مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (٥٢)

فتح الرب الحميد

بشرح

تجريد التوحيد المفيد

للمقريزي رحمه الله

ت ٨٤٥هـ

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي



مركز الراجحي للدراسات و الإستشارات


فتح الرب الحميد
بشرح
تجريد التوحيد المفيد

ح مركز عبدالعزيز الراجحي للإستشارات والدراسات، ١٤٣٨ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الراجحي، عبدالعزيز عبدالله

فتح الرب الحميد بشرح تجريد التوحيد المفيد . / عبدالعزيز عبدالله الراجحي – الرياض، ١٤٣٨ هـ.

٤٤٨ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٤-٠-٩٠٩٣٤-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٨/٦٠٧٣

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٦٠٧٣

ردمك: ٤-٠-٩٠٩٣٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

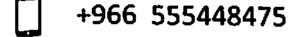
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

تم الصف والإخراج

مركز عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

للاستشارات والدراسات التربوية والتعليمية



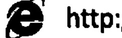

+966 555448475

+966 535600668

0114455995 / Fax : Ext.108

info@mnaratt.com




http://shrajhi.com.sa/


@AlSheikhAlRajhi



@shrajhi




abdulaziz-alrajhi



مجموعة مؤلفات ورسائل فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي (٥٢)

فتح الرب الحميد
بشرح
تجريد التوحيد المفيد

للمقريزي رحمه الله

ت ٨٤٥هـ

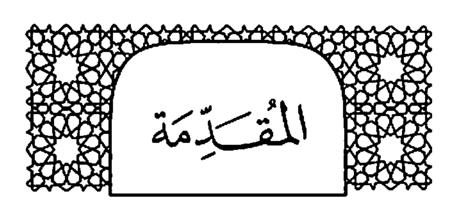
تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

مركز عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

للاستشارات والدراسات التربوية والتعليمية


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا ونبينا وإمامنا وقدوتنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي العربي المكي ثم المدني، أشهد أنه رسول الله حقًّا، وأنه رسول الله إلى الثقلين الجنِّ والإنس، وإلى العرب والعجم، وأنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده.

أشهد أنه بَلَّغَ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه من ربه اليقين، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإني أحمد الله وأُثني عليه الخير كله، وأسأله المزيد من فضله، وأسأله ﷻ أن يُصلح قلوبنا وأعمالنا ونياتنا وذرياتنا، ثم أسأله ﷻ أن يرزقنا الإخلاص في العمل والصدق في القول.

□ ترجمة المؤلف(١)

الإمام العلَّامة أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم المقريزي المصريُّ الشافعيُّ، أصله من بعلبك، ولكنه مصريُّ المُولِد والوفاة، مولده في سنة ست وستين وسبعمائة، وتُوفي سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

□ نشأته:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : «نشأ نشأة حسنة،وحَفِظَ كتابًا في مذهب أبي حنيفة تبعًا لجده لأمه الشيخ شمس الدين بن الصائغ الأديب المشهور، ثم لَمَّا ترعرع وجاوز العشرين ومات أبوه سنة ست وثمانين تحول شافعيًّا».

□ ثناء أهل العلم عليه :

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : «وكان إمامًا بارعًا مُفنَّنًا مُتقِنًا ضابطًا ديِّنًا خَيِّرًا مُحِبًّا لأهل السنة، يميل إلى الحديث والعمل به حتى نُسِبَ إلى الظاهر».

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ : «وكان مُتبحِّرًا في التاريخ على اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك».

□ مؤلفاته:

[١] «إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع».

[٢] «البيان المفيد الفرق بين التوحيد والتلحيد».

---

(١) ترجمته في : «إنباء الغمر بأبناء العمر» لابن حجر (٩/ ١٧٠ ـ ١٧٢)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥)، و«البدر الطالع» للشوكاني (١/ ٧٩ ـ ٨١).

[٣] «درر العقود الفريدة لترجمة المعاني المفيدة».

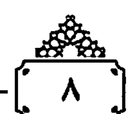
[٤] «تجريد التوحيد المفيد»، وهو كتابنا هذا.

□ **موضوع الرسالة :**

هذه الرسالة ألَّفها في توحيد العبادة، وهي من المؤلَّفات الفريدة في بابها، حتى قيل : «إنه لم يُؤلَّف قبله في توحيد العبادة».

وكان العلماء السابقون يُؤلِّفون في توحيد الأسماء والصفات كما ذكر **الإمام البخاري** رَحِمَهُ اللهُ في «كتاب التوحيد» في آخر «الجامع الصحيح»، ويتكلمون عن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن أهل البدع يُنكِرون الأسماء والصفات ويؤولونها، لكن التأليف الخاص في توحيد العبادة والألوهية إنما شاع عند المتأخِّرين، وهذا الكتاب من أوائل الكتب التي أُلِّفت في توحيد العبادة خاصَّة، فمن هنا تبرز أهمية هذا الكتاب، **ومنها** : «كتاب التوحيد» للإمام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وهو مُتأخِّر، وكتابه عظيم لم يُؤلَّف مثله وعلى منواله، وهو في توحيد العبادة خاصَّة.

وقد اعتمد **الإمام المقريزي** رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب على نقول عن الأئمة والعلماء،وأكثره منقول من كتابين **للإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ «الجواب الكافي»و«مدارج السالكين»، وكتاب «مدارج السالكين» كتابٌ عظيم وفيه بحوث عظيمة، ولكن هناك أيضًا كلام **للمؤلف** رَحِمَهُ اللهُ يعتذر فيه عن **الهروي** صاحب «منازل السائرين»،وقد يكون فيه كلمات مسايرة **لبعض الصوفية** لكن الكتاب عظيم،ولكنه يعتذر عن **الهروي**؛ لأن **الهروي** له مواقف مشكورة في الردِّ على المبتدعة نُفاة الصفات، لكنه لَمَّا جاء في باب السلوك وافقهم فهو يعتذر عليهم،



وشيخ الإسلام يعتذر عنه فيقول:

شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه[(١)]

ونقل أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ من «الفوائد» و«بدائع الفوائد»، ونقل أيضًا عن **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو منقول من كُتُبِ **شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى**، ولكن **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ لا يعزو لهما، ولعلَّ له عذرًا، وهو أن كثيرًا من الناس في زمنه قد انصرفوا عن كتب **ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله** بسبب تنفير بعض الناس، فلهذا قصد **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ أن ينقل من كُتُبِهما ولا يعزو لهما حتى يُنْتفعَ بكتابه.

ونقل **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا في أول الكتاب عن **الإمام الغزالي** رَحِمَهُ اللَّهُ من «إحياء علوم الدين»، وهذا القدر الذي نقله عنه عليه بعض التعليقات اليسيرة، ومع ذلك فهو كتاب عظيم كما ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ أنه: «جمُّ الفوائد بديع الفرائد»، فوائد عظيمة في توحيد العبادة قلَّ أن تجدَّ هذه الفوائد والمعاني والموضوعات مجموعةً في كتاب مثل هذا الكتاب، فينبغي لطالب العلم أن يعتني بهذا الكتاب ويتفهَّمَه ويتأمَّل معانيه حتى يستفيد.

والكتاب قد حققَّه **الدكتور علي بن محمد العمران ـ وفقه الله** ـ فجمع مخطوطاته وقابل بعضها ببعض حتى أخرج لنا هذه النسخة الجيدة ـ فجزاه الله خيرا ـ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه
عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧).

فصل
في بيان منزلة علم التوحيد لاسيما وأن هناك من يُزهِّدُ في تعلُّمِهِ

لا شكَّ أن التوحيد والعقيدة السليمة هو الأصل الذي تُبنى عليه الأعمال، فلا تصح الأعمال إلا بالاعتقاد الصحيح، ومن لم يبنِ أعماله على اعتقاد صحيح فإنه على شفا جُرُفٍ هارٍ كالذي يبني بيتًا على التراب من غير أساس، فلابُدَّ من الأساس وهو الاعتقاد السليم، بتوحيد الله في أسمائه وصفاته، وفي ربوبيته،وفي ألوهيته.

وأعمال العباد من صلاة وزكاة وصيام وحج وبِرٍّ وصِلة مبنيةٌ على التوحيد، فمن لم يُوحِّدِ الله لا تصح أعماله، فالذي يذبح لأصحاب القبور أو ينذر لهم أو يدعوهم من دون الله أو يطوف بقبورهم تقرُّبًا إليهم فإن أعماله حابِطة باطلة؛ لأنه لم يُؤسس أعماله على التوحيد الذي هو أصل الدين وأساس المِلَّةِ.

والذي لا يهتم بالتوحيد قد يقع في الشرك وهو لا يدري، في «الصحيحين»[1] عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ،

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٧).

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: «وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟»، قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ»، قُلْتُ: «وَمَا دَخَنُهُ؟»، قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، قُلْتُ: «فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟»، قَالَ: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا»، فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»، قُلْتُ: «فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟»، قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، قُلْتُ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟»، قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»، فسأل حذيفة رضي الله عنه وجزاه الله خيرًا هذه الأسئلة واستفاد المسلمون منها، يسأل عن الشر يقول: «مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إنما تُنْقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا دخل في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[1]، فإذا دخل في الإسلام من لا يعرف الجاهلية يقع في الشرك وهو لا يعلم؛ لا يدري فيظن أنه توحيد، مثل: عُبَّاد القبور، يطوفون بالقبور ويذبحون لهم

---

(١) ذكره **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله في مواضع من كتبه، منها: «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٥٩٠)، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠١)، وكذا **ابن القيم** رحمه الله في «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٥).

وهو بمعناه عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤١٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٧٥) عن المستظل بن حصين قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال: «قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب»، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: «متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟»، قال: «حين يسوس أمرهم من لم يعالج أمر الجاهلية ولم يصحب الرسول».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

يقولون: «هذا ليس شركًا، هذه محبة للصالحين، هذا تشفُّع، هذا إعطاء حقوقهم، أنتم تكرهون الصالحين ولا تُعطونهم حقوقهم»، هكذا جعلوا الشرك حقوقًا للصالحين، وصرفوا لهم التوحيد وجعلوه من حقوقهم، فالذي لا يعرف الجاهلية يقع في الشرك وهو لا يدري، ولهذا كان الصحابة ﵃ أفضل من أولادهم؛ لأن الصحابة عاشوا في الجاهلية وخَبَرُوا الشرك وذاقوا مرارته وعَرَفُوه فلا يقعون فيه مرة أخرى، بخلاف أولادهم الذين نشؤوا في الإسلام وهم لا يعرفون الجاهلية فيقع في الجاهلية والشرك وهو لا يدري أنه شرك.

إذًا لا بُدَّ أن تعرف الجاهلية حتى لا تقع فيها، وتعرف الشرك حتى لا تقع فيه، وكُنْ كحذيفة ﵁ يسأل عن الشرِّ مخافة أن يقع فيه، وأما قول الإنسان: «أنا لست مُشرِكًا» ويُعرِض عن التوحيد، فهذا نوع من الإعراض، **قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب** ﵀: «اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة، ...، **العاشر**: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به»[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: ٣].

ومن هنا يتبيَّن عِظم وأهمية التوحيد، وذلك من خلال دراسة كُتُب التوحيد والعقائد على طريقة السلف، فالذي يُزهِّد فيها فإنه يُزهِّد في الأمر الذي بعث الله به رُسُلَهُ، وأنزل به كُتُبَهُ، ولأجله خلق الله الخلق، وانقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيدٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ، ولأجله خُلِقَتِ الجنةُ والنار، فلا يُزهِّد في تعلُّم التوحيد إلا شخص جاهل، أو أنه مُشرِكٌ يُرِيد أن يدعوا إلى الشِّرك ويُنفِّرَ من التوحيد.

ومن عَلِمَ منزلةَ التوحيد من الدين وأنه أصل الدين وأساس

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٣٦٢).

المِلَّةِ لا يمكن أن يُزهِّدَ فيه ولا أن يصرف الناس عنه، والنبي ﷺ ظلَّ بمكة ثلاثة عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد، ويقول للناس: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» تُفْلِحُوا»**[1]، ولم تنزل فرضية الصيام ولا الزكاة ولا الحج ولا الأذان ولا الحدود إلا في المدينة، وأما الصلاة فمِنْ عظم شأنها فإنها شُرِعَت قبل الهجرة بسنة أو بثلاث سنين، أما صلاة الجماعة والأذان فقد فُرِضَا في المدينة، وكلُّ ذلك لأهمية التوحيد، فينبغي لطالب العلم والمسلم أن يعتني بالتوحيد والعقائد، وأن يحرص على فهمها، فيعتني بكلام الله وبكلام رسوله ﷺ بفهم أهل العلم؛ حتى يَسْلَمَ له دينُهُ، ويصلحَ له توحيدُهُ، وحتى يكون من أولياء الله وأحبابه.

نسأل اللهَ تحقيق التوحيد وتخليصَهُ وتنقيتَهُ من شوائب الشرك؛ فمن حقَّقَ التوحيد وخلَّصه من شوائب الشرك دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومن حقَّقَه وهذَّبَهُ ونقَّاهُ وصفَّاهُ من شوائب الشرك والبدع والكبائر دخل الجنة من أول وهلة فضلًا من الله تعالى وإحسانًا، ومن لقي الله بتوحيد مُلطَّخ فهو على خطر من دخول النار، ومن لقي الله بالشرك فهو من أهل النار المخلدين فيها ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.



---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهليًا فأسلم ﷺ.
قال الذهبي: «إسناده قوي». «تاريخ الإسلام» (١/ ١٥١).
وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢) من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه، وصححه **ابن الملقن** في «البدر المنير» (١/ ٦٨٠).

فصل
في الحثِّ على العلم وإخلاص النية فيه

إن تعلُّمَ العلم وتعليمه من أفضل القُربات وأجلِّ الطاعات، حتى إن طلب العلم مقدَّمٌ على نوافل العبادات من الصلاة والصيام والحج، فلو تعارض طلب العلم مع نوافل الصلاة وقيام الليل وصلاة الضحى يُقدَّم طلب العلم، وكذلك لو تعارض طلب العلم مع صيام نفل كصيام الأثنين والخميس أو صيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر أو صيام يوم وإفطار يوم أو صيام يوم وإفطار يومين فالمُقدَّم طلب العلم، وما ذاك إلَّا لأنَّ تعلُّم العلم وتعليمه نفعه مُتعدٍّ؛ يُنْقِذ الإنسانُ نفسَهُ به من الجهل، ويُنْقِذ غيره أيضًا منه، فالأصل في الإنسان أنه لا يعلم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]

وليغتبط طالب العلم بهذا الخير وهذه النعمة التي ساقها الله إليه؛ لأن ذلك من علامات إرادة الله الخير للعبد أن يُوجِّهَهُ إلى طلب العلم والتَّفقُّهِ في دين الله والتَّبصُّرِ في شريعة الله كما ثبت في «صحيح مسلم»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»**،

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٦٩٩).

وفي «الصحيحين»[١] عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكلُّ من أراد الله به خيرًا لا بُدَّ أن يُفقِّهَهُ في الدين، فمن لم يُفقِّهْهُ في الدين لم يُرِدِ الله به خيرًا»[٢].

ومَيَّزَ الله تعالى العلماء ورفع شأنهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر: ٩].

وقرن الله تعالى شهادة العلماء بشهادته وشهادة ملائكته على أجلِّ مشهود وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨]، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله الزيادة من العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]، ولم يقل «ربِّ زدني مالًا» أو «جاهًا» أو «سلطانًا».

والعلم الشرعي وراثة الأنبياء، فالأنبياء ورَّثُوا العلم ولم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، رقم (٧١)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب «الحث على طلب العلم»، رقم (٣٦٤١)، والترمذي، كتاب العلم، باب «ما جاء في فضل الفقه على العبادة»، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، في المقدمة، باب «فضل العلماء والحث على طلب العلم»، رقم (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦). =

وسلوك طريق العلم سلوك إلى طريق الجنة كما تقدَّم في «صحيح مسلم»[(١)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»، فعليك طالب العلم أن تغتبط بهذه النعمة التي ساقها الله إليك.

وعليك أن تُجاهِد نفسك على الإخلاص لله تعالى في طلبك العلم؛ لأن تعلُّم العلم عبادة، والعبادة لابُدَّ لها من الإخلاص، فلا تصح عبادة لله إلا بالإخلاص والمتابعة؛ قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿۞وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢]، يقول تعالى مُخبرًا عمن أسلم وجهه لله أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع مابه أمر وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقًا من الله متينًا أنه لا يُعذِّبُهُ[(٢)]، فلابُدَّ من الإخلاص، فيُجاهِد الإنسان نفسه على الإخلاص بأن يتعلَّم العلم تعبُّدًا لله ﷻ، وليُنْقِذَ نفسه من الجهل ويُنْقِذَ غيره، قال مهنا : قلت لأحمد بن حنبل: «ما أفضل الأعمال؟»، قال: «طلب العلم لمن صحَّت نيته»، قلت: «وأي شيء تصحيح النية؟»، قال: «ينوي يتواضع فيه، وينفي عنه الجهل»[(٣)].

= وقد ذكره البخاري في «صحيحه» (١/ ٣٧) بغير إسناد، قال : «بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».
قال ابن الملقن : «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير»(٧/ ٥٨٧).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٥١).

وفي «الصحيحين»[(١)] عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وكلُّ من أراد الله به خيرًا لا بُدَّ أن يُفَقِّهَهُ في الدين، فمن لم يُفَقِّهْهُ في الدين لم يُرِدِ الله به خيرًا»[(٢)].

ومَيَّزَ الله تعالى العلماء ورفع شأنهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزُّمَر: ٩].

وقرن الله تعالى شهادة العلماء بشهادته وشهادة ملائكته على أجلِّ مشهود وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عِمرَان: ١٨]، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله الزيادة من العلم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه: ١١٤]، ولم يقل «ربِّ زدني مالًا» أو «جاهًا» أو «سلطانًا».

والعلم الشرعي وراثة الأنبياء، فالأنبياء ورَّثُوا العلم ولم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، رقم (٧١)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب «الحث على طلب العلم»، رقم (٣٦٤١)، والترمذي، كتاب العلم، باب «ما جاء في فضل الفقه على العبادة»، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، في المقدمة، باب «فضل العلماء والحث على طلب العلم»، رقم (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦). =

وسلوك طريق العلم سلوك إلى طريق الجنة كما تقدَّم في «صحيح مسلم»[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»**، فعليك طالب العلم أن تغتبط بهذه النعمة التي ساقها الله إليك.

وعليك أن تُجاهِد نفسك على الإخلاص لله تعالى في طلبك العلم؛ لأن تعلُّم العلم عبادة، والعبادة لابُدَّ لها من الإخلاص، فلا تصح عبادة لله إلا بالإخلاص والمتابعة؛ قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢]، يقول تعالى مُخبرًا عمن أسلم وجهه لله أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع مابه أمر وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقًا من الله متينًا أنه لا يُعذِّبَهُ[٢]، فلابُدَّ من الإخلاص، فيُجاهِد الإنسان نفسه على الإخلاص بأن يتعلَّم العلم تعبُّدًا لله ﷻ، وليُنْقِذَ نفسه من الجهل ويُنْقِذَ غيره، قال مهنا : قلت لأحمد بن حنبل: «ما أفضل الأعمال؟»، قال: «طلب العلم لمن صحَّت نيته»، قلت: «وأي شيء تصحيح النية؟»، قال: «ينوي يتواضع فيه، وينفي عنه الجهل»[٣].

= وقد ذكره البخاري في «صحيحه» (١/ ٣٧) بغير إسناد، قال: «بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

قال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير»(٧/ ٥٨٧).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٥١).

وليحذر طالب العلم من الخواطر الرديئة التي تَرِدُ على الإنسان والتي تُفْسِد عليه قصدَه، كأن يطلب العلم للمال أو للجاه أو للوظيفة أو للشُهرة أو للمباراة أو للمُداراة أو غير ذلك، عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»[(١)]، فيجب أن يتعلَّم العلم لله، وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: «فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟»، قَالَ: «قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ»، قَالَ: «كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ «جَرِيءٌ»، فَقَدْ قِيلَ»، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: «فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟»، قَالَ: «تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ»، قَالَ: «كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ «عَالِمٌ»، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ «هُوَ قَارِئٌ»، فَقَدْ قِيلَ»، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: «فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟»، قَالَ: «مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ

---

(١) «طبقات الحنابلة» لأبي يعلى (١/ ٣٨٠، ٣٨١)، و«الفروع» لابن مفلح (١/ ٤٦٥)، و«الآداب الشرعية» له(٢/ ٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب «ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا»، رقم (٢٦٥٤).

قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم؛ تُكلم فيه من قِبل حفظه».

وخَرَّجه ابن ماجه بمعناه (٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٩) من حديث ابن عمر وجابر وحذيفة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٩٠٥).

أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ»، قَالَ: «كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ «هُوَ جَوَادٌ»، فَقَدْ قِيلَ»، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، والذي جعل أعمال هؤلاء الثلاثة تنقلب وبالًا عليهم النية السيئة، فالعالم الذي تعلَّم العلم والقارئ الذي قرأ القرآن درجته عالية لو كان مُخلِصًا لله، ولكان من الصِّدِّيقِينَ الذين هم بعد درجة الأنبياء، لكن لَمَّا كانت نيته لغير الله صارت وبالًا عليه، وكذلك قتيل المعركة لو كان عمله خالصًا لله لكان من الشهداء، في المرتبة الثالثة بعد الأنبياء والصِّدِّيقِينَ، وكذلك الْمُصَدِّقُ الْمُنْفِق أمواله في سبيل الخيرات لو كانت أعماله لله لكان من الصالحين؛ فإن الناس أربع مراتب: الأنبياء، ثم الصِّدِّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، فعلى المسلم أن يُجاهِد نفسه حتى تصلُحَ نيته ويكون قصده وجه الله والدار الآخرة.

وإذا كنت تُريد بطلب العلم الدنيا فكيف تجعله وسيلة للدنيا والعلم أسمى وأعلى وأغلى؟!؛ الدنيا لا تُساوي شيئًا، فإذا أردتَ الدنيا فادخل في معترك الحياة والبيع والشراء فتحصل على المال، أَمَّا أن تجعل العلم طريقًا ووسيلة للمال فهذا هو الوبال، فليكن قصدك وجه الله والدار الآخرة، فتعلَّمِ العلم لله ولأجل أن ترفع الجهل عن نفسك وغيرك، وما يأتيك من الدنيا من مكافأة أو وظيفة فإنما يكون هذا وسيلة مُعِينة على طلب العلم لا غاية؛ فالغاية هي طلب العلم، أَمَّا أن تجعل المالَ هو الغايةَ وطلب العلم هو الوسيلةَ فهذا هو الهلاك، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ

إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦]، فعلى الإنسان أن يُجاهِد نفسه حتى لا تسترسل مع هذه الخواطر الرديئة، والمجاهِد موعُود بالهداية كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وعلى المسلم أن يحرص على طلب العلم وحضور الدروس والدورات العلمية والمحاضرات والندوات؛ حتى يحصل على ما قَدَّرَ الله له وكتب من العلم، ووسائل وطرق العلم في هذا الزمن كثيرة كالدراسة في المعاهد والكليات والجامعات، وسماع البرامج المفيدة في إذاعة القرآن أو غيرها، وسماع الأشرطة المُسجَّلة لأهل العلم والبصيرة المعروفين بسلامة المعتقد، وقراءة الكتب لأهل العلم والبصيرة القديم منها والحديث.

وينبغي لطالب العلم أن يحرص على إحضار ذهنه، فلابُدَّ من إحضار الذهن، وحسن الفهم والسؤال، وتقييد الفوائد.

العِلمُ صَيدٌ والكِتابةُ قَيدُهُ ... قَيِّدْ صيودكَ بالحِبالِ الواثِقَة
فَمِن الحَماقَةِ أَنْ تَصيدَ غَزالَةً ... وتَفكها بَينَ الخَلائقِ طالِقَةَ

فلابُدَّ من هذه الأمور:

(١) الإخلاص.

(٢) الحرص على حضور مجالس العلم.

(٣) تقييد الفوائد.

(٤) حضور الذهن.

(٥) قراءة الدرس قبل المجلس وبعده.

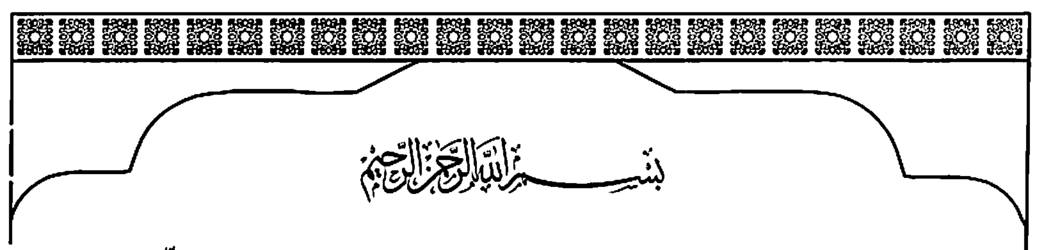
(٦) السؤال عما أشكل.

هكذا ينبغي لطالب العلم، وهكذا يكون مُوفَّقًا.

نسأل الله للجميع التوفيق والسَّداد، ونسأله سبحانه أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، والثبات على دينه والاستقامة عليه حتى الممات.







«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلّى الله على نبيِّنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا كتاب جمُّ الفوائد بديع الفرائد ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة، سَمَّيْتُهُ «كتاب تجريد التوحيد المفيد»، والله أسأل العون على العمل به بِمَنِّهِ».

الشَّرْح

افتتح المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بالبسملة تأسيًّا بالكتاب العزيز، فإن الله تعالى افتتح كتابه بالبسملة، وتأسيًّا برسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ في رسائله إلى الملوك ورؤساء القبائل والعشائر كان يفتتح كتابه بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» كما كتب إلى هِرَقْلَ عظيم الرُّوم «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِاللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى...**»[١] الحديث.

وقوله ﷺ: «**عظيم الروم**» مضاف إليهم، فهو عظيم عندهم وإن كان وضيعًا عند الله».

○ وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» الباء للاستعانة، أي: أستعين باسم الله.

○ قوله: «الله» أعرف المعارف، لا يُسمَّى به غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأصل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب «بدء الوحي»، رقم (٧)، ومسلم كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«الله» إلاه، على وزن فِعال، حُذِفتِ الهمزة فالتقت اللام التي هي عين الكلمة واللام الأولى الزائدة ففخمتا فصارتا لامًا مُشدَّدة.

و«الله» ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[1]، وأسماء الله مُشتقَّة مشتملة على معان ليست جامدة، فـ«الله» مشتمل على صفة الألوهية، و«الرحمن» مشتمل على صفة الرحمة، و«العليم» مشتمل على صفة العلم، و«القدير» مشتمل على صفة القدرة، وهكذا.

وأسماء الله قسمان:

الأول: قسم لا يُسمَّى به غيره، مثل: «الله»، و«الرحمن»، و«الخالق»، و«الرازق»، و«مالك المُلك»، و«رب العالمين»، و«النافع»، و«الضار»، و«المعطي»، و«المانع»، و«القابض»، و«الباسط».

الثاني: أسماء مشتركة تُطلق على الله وعلى غيره، مثل: «العزيز»، و«الرحيم»، و«السميع»، و«البصير»، و«الحي»، و«القدير»، فهذه أسماء مشتركة إذا سُمِّيَ الله بها فله الكمال، وإذا سُمِّيَ بها المخلوق فله ما يليق به.

- قوله: «**الرحمن**» لا يُسمَّى به غيره.
- قوله: «**الرحيم**» خاصٌّ بالمؤمنين.

وثنَّى رحمه الله بـ«**الحمد لله رب العالمين**» فجمع بين البسملة والحمدلة، وهذا أيضًا لا بأس به؛ **والأكثر** أن تكون البداءة بالبسملة فيفتتح المؤلفون بالبسملة، وأما الخطب فإنها تُفتتح بـ«الحمد لله» كما في خطبة الجمعة، وإن جمع بينهما فلا حرج كما هنا، فجمع **المؤلف** رحمه الله **قال:** «**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين**» وكذلك في الكتاب العزيز: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) «تفسير الطبري» عن ابن عباس رضي الله عنهما (١/ ٥٤).

ﭐلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ١-٢]، وأما حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ**[(١)] **لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللهِ** ﷻ **فَهُوَ أَبْتَرُ - أَوْ قَالَ: أَقْطَعُ**»[(٢)] فهو حديث ضعيف لا تقوم به الحجة.

○ وقول **المؤلف** رحمه الله «**الحمد لله رب العالمين**»، الحمد: هو الثناء على المحمود بصفات الإنسان الاختيارية: مثل الكرم، والجود، والشجاعة، والإقدام والجبلّيةِ مثل: الطول، والبياض، وما أشبه ذلك مع حُبِّهِ وإجلاله وتعظيمه، بخلاف المدح فلا يلزم أن تكون معه محبة، فقد تُثني على الشخص بصفاته وقد تُحبه وقد لا تُحبه، فالحمد أكمل من المدح.

والألف واللام في «**الحمد**» للاستغراق، فجميع أنواع المحامد مستغرقة لله مِلكًا واستحقاقًا، فهو المالك والمستحقُّ لها، واللام في «لله» للملك، فهو سبحانه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، «**ربِّ**» يُرَبِّيهِم بنعمه، خالقهم وإلههم ومعبودهم، «**العالمين**» جمع

---

(١) أي: شريف يحتفل له ويهتم به، والبال في غير هذا: القلب. «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (١/ ١٦٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب «خطبة النكاح»، رقم (١٨٩٤)، وأحمد (٢/ ٣٥٩) - واللفظ له -.

وأخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «الهدي في الكلام»، رقم (٤٨٤٠) بلفظ: «**كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدُ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْذَمُ**»، **وقال**: «رواه يونس وعقيل وشعيب وسعيد بن عبد العزيز عن الزهري عن النبي مرسلًا».

قال الدارقطني: «تفرد به قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وأرسله غيره عن الزهري عن النبي ﷺ، وقرة ليس بقوي في الحديث، ورواه صدقة عن محمد بن سعيد عن الزهري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن النبي ﷺ ولا يصح الحديث، وصدقة ومحمد بن سعيد ضعيفان، والمرسل هو **الصواب**». «السنن» (١/ ٢٢٩)

وقال: «**والصحيح** عن الزهري المرسل». «العلل» (٨/ ٢٩).

عَالَم، وهو: كلُّ ما سوى الله، فالمخلوقات كلها عالَم، فالجن عالَم، والإنس عالَم، والطيور عالَم، والحشرات عالَم، والسموات والأرض عالَم، والله ربُّ المخلوقات كلها وربُّ الجميع.

○ قوله: «**والعاقبة**» الحميدة «**للمتقين**» والمتَّقِي هو الذي اتَّقى الشرك وغضب الله وسخطه والنار، فوحَّدَ الله وأخلص له العبادة، فهذا هو الذي تكون له العاقبة الحميدة برضا الله تعالى عليه، والتمتع بدار كرامته، والسلامة من غضبه والنارِ، أما غيره فعاقبته غضب الله والنار ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ قوله: «**وصلَّى الله على نبيِّنَا محمد**» أصح ما قيل في تعريف صلاة الله على عبده: ما رواه البخاري في «صحيحه»[١] قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ»، فأنتَ تسأل الله أن يُثنِي على عبده، «اللهم اثنِ على عبدك في الملإ الأعلى»، والصلاة من الملائكة الدعاء، والصلاة للآدمي دعاء كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادعُ واستغفرْ لهم.

○ قوله: «**على نبيِّنَا**» النبي مشتق من النَّبَاوَة وهي الشيء المرتفع[٢] والفرقُ بين النبي والرسول: أن النبي من أُوحِي إليه بشرع ولم يُؤمر بتبليغه، والرسول من أُوحِي إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه[٣]، وفي

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» (٤/ ١٨٠٢) مُعلَّقًا بصيغة الجزم.

قال ابن حجر: «أخرجه ابن أبي حاتم، ومن طريق آدم بن أبي إياس، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع ـ هو ابن أنس ـ بهذا، وزاد في آخره «له»». «فتح الباري» (٨/ ٥٣٣).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»(٥/ ٣).

(٣) انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ١٥٠).

هذا إشكال؛ إذ كيف يُوحى إليه بشرع ولا يُؤمر بتبليغه؟.

والصحيح ما ذكره المحققون **كشيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله قال: «فالنبي: هو الذي يُنبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ الله به، فإن أُرسِل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالًا يعم النوعين، وقد خصَّ أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح»[1] فالصواب: أن الرسول يُرسل إلى أمة كافرة فيؤمن به بعضهم ويردُّ بعضهم عليه دعوته كأصحاب الشرائع العظيمة كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ، والنبي هو الذي يُوحى إليه ويُكلَّف بالعمل بشريعة سابقة كأنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، فكلهم كُلِّفُوا بالعمل بالتوراة كداود وسليمان ويحيى وزكريا، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

○ قوله: «**محمد**» اسم نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وقد ألهم الله أهله بأن سَمَّوه بهذا الاسم؛ لكثرة محامده وخصاله الحميدة، وله أسماء عديدة، فمن أسمائه: «أحمد» كما قال عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ

(١) «النبوات» (ص ١٨٤).

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦]، ومن أسماءه: «الماحِي» الذي يمحو الله به الكفر، و«الحاشِر» الذي يُحشر الناس على عقِبهِ، و«العاقِب» الذي ليس بعده نبي(١)، فكما أن الله تعالى له أسماء كثيرة فالنبي ﷺ له أسماء كثيرة، وكذا القرآن الكريم، كما للسيف أسماء كثيرة عند العرب.

○ قوله: «**خاتم النبيين**» يعني: آخرهم، فليس بعده نبي كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفي «صحيح مسلم»(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»، فهو خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام، ولا بُدَّ من الإيمان بذلك، فمن ادَّعى أن بعده نبي فهو كافر بالله العظيم.

○ قوله: «**وعلى آله**» وآل النبي ﷺ قيل هم ذريته وأزواجه خاصة، **وقيل**: هم أمته وأتباعه إلى يوم القيامة، وهذا عام ويدخل فيه دخولًا أوليًا أزواجه وذريته وأقاربه المؤمنون(٣).

○ قوله: «**وصحبه**» جمع صاحب، وأصح ما قيل في تعريف الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على الإسلام(٤)، فيدخل فيمن لقيه: من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب «ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ»، رقم (٣٥٣٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجدومواضع الصلاة، رقم (٥٢٣).

(٣) انظر: «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص ٢١٠، ٢١١).

(٤) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (١/٦).

أو لم يروِ، ومن غزا معه أو لم يغزُ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى، وعلى القول بأن الآل هم أمته وأتباعه إلى يوم القيامة فالصحب داخلون فيهم، فيكون المؤلف ﷺ صَلَّى على الصحب مرتين، مرة استقلالًا ومرة بدخولهم في الآل.

○ قوله: «**أجمعين**» كلمة يُؤتى بها للعموم.

○ قوله: «**أما بعد**» يُؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر، وتُقال في الخطب والرسائل[1]، وكان النبي ﷺ يقول في خطبته «أما بعد» كما روى مسلم في «صحيحه»[2] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ...**»، وهي أفضل من «وبعد»، والأولى أن يُؤتى بالفاء بعدها.

واختلف **العلماء** في أول من تكلَّم به؟، **فقيل**: داود ﷺ، **وقيل**: يعرب بن قحطان، **وقيل**: قس بن ساعدة، **وقال بعض المفسرين أو كثير منهم**: أنه فصل الخطاب الذي أوتيه داود، **وقال المحقِّقون**: فصل الخطاب: الفصل بين الحق والباطل[3].

○ قوله: «**فهذا**» إشارة إلى ما تصوَّره في الذهن وأقامه مقام المكتوب المقروء الموجود بالعيان «**كتاب**» مصدر سُمِّي به المكتوب

---

(١) وقد عقد البخاري في «صحيحه»(١/ ٣١٢) بابًا في استحبابه،قال: باب «من قال في الخطبة بعد الثناء «أما بعد»»، وذكر فيه جملة من الأحاديث.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، رقم (٨٦٧).

(٣) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٦/ ١٥٦).

كالخلق بمعنى المخلوق، يُقال: كتبت كَتْبًا وكتابةً، والكَتْب الجمع، ومنه: الكتيبة وهي الجيش[(١)]، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف، والمراد به هنا: المكتوب، أي: هذا مكتوب.

○ قوله: «**جمٌّ**» أي: كثير «**الفوائد**» جمع فائدة، وهي: ما يستفيده المرء ممَّا لم يكن يعلمه، فهذا الكتاب كثير الفوائد كما قال مؤلفه رَحِمَهُ اللَّهُ وصَدَقَ.

○ قوله: «**بديع الفرائد**» جمع فريدة، وهي: الشيء المُنْفرِد الذي لا نظير له، والمعنى: أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أبدع في فرائده، وهذا واضح في ترتيبه لهذا الكتاب وجمعه والتقسيمات التي فيه، فذكر تقسيمات كثيرة، فذكر الشرك وقَسَّمَه إلى شرك في الربوبية وفي الألوهية، وكذلك ذكر أقسام الناس في الحكمة والتعليم، والأقسام في أفضل الأعمال إلى غير ذلك من التقسيمات والترتيب والإبداع في التنظيم، فهو كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كتاب جمُّ الفوائد بديع الفرائد» ففوائده كثيرة وفرائده بديعة.

○ قوله: «**ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة**» يعني: ينتفع به المخلِص الذي أخلص عمله ونيته لله، أما من يُريد الدنيا فلا ينتفع به؛ فهو يتكلَّم في أمور الآخرة، فيما يعتقده المرء في ربِّه ونبيه ودينه، ومعرفة التوحيد وأقسامه، والشرك وأنواعه، ومعرفة أقسام الناس في الحِكم والتعليم، وإثبات القدر، وشروط العمل المقبول، والمراتب الأربعة التي لابُدَّ لها في العبودية.

○ قوله: «**سَمَّيْتُهُ «كتاب تجريد التوحيد المفيد»**» وتجريد الشيء:

---

(١) «المطلع على أبواب المقنع» للبعلي (ص ٥).

تخليصه وتنقيته ممَّا عَلَقَ به فيُزِيل عنه ما ليس منه، يعني: يجرد التوحيد، ويجعله خالصًا من غيره، واضحًا لا لبس فيه.

و«**التوحيد**» مصدر وَحَّدَ يُوحِّد توحيدًا إذا جعل الشيء واحدًا، وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلواحدٍ كُنْ واحدًا في واحدٍ   أعني سبيل الحق والإيمان[1]

قوله (فلواحدٍ) وهو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى (كُنْ واحدًا) أي: اجمع هِمَّتك على الله واتجه إليه سبحانه (في واحدٍ) وهو الصراط المستقيم، ولهذا قال: (أعني سبيل الحق والإيمان).

والتوحيد: هو إفراد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

○ قوله: «**واللهَ**» لفظ الجلالة منصوب على التعظيم، مُقدَّم على الفعل، بمعنى: أسأل الله، «**أسأل العون على العمل به**» يسأل **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ ربَّهُ الإعانة على العمل بهذا الكتاب «**بِمَنِّهِ**»؛ فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو الذي يَمُنُّ بذلك، ونحن كذلك نسأل الله سبحانه أن يُعيننا على العمل به بِمَنِّهِ وكرَمِهِ.



(١) «النونية» (ص٢١٩).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اعلمْ أن الله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالِكُهُ وإلهُهُ، فالرَّبُّ مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ، فمعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٢] رابُّ العالمين، فإن الرَّبَّ سبحانه وتعالى هو الخالق المُوجِد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المُتكفِّل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا».

الشَّرْح

○ قوله: «**اعلمْ أن الله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالِكُهُ وإلهُهُ**» المعلومات أقسام، **منها**: العلم، **ومنها**: الظَّنُّ، **ومنها**: الوهم، **ومنها**: الشك.

العِلم: حكم الذهن الجازم بعد تصوره المطابق للواقع، ويُطلق على اليقين.

الظَّنُّ: هو الراجح من الأمرين المتردد بينهما.

الوهم: المرجوح منهما.

الشك: هو المساوي(١).

والمعنى في كلام **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: تيقن أن الله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالِكُهُ وإلهُهُ.

---

(١) انظر: «أصول الفقه» لابن مفلح (١/ ٣٥)، «البحر المحيط» للزركشي (١/ ٧٤).

○ قوله: «**هو ربُّ كلِّ شيءٍ**» يعني: الخالق لكل شيء كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، المُوجِد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم «**ومالِكُهُ**» أي: مالك العباد، فهم تحت تصرفه وقهره، وتنفذ فيهم قدرته ومشيئته«**وإلهُهُ**» يعني: معبوده بالحقِّ.

جمع **المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الأوصاف الثلاثة الرَّبِّ والمالكِ والإلهِ فقال: «**اعلمْ أن الله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالِكُهُ وإلهُهُ**» فالربوبية والألوهية إذا اجتمعتا افترقتا وإذا افترقتا اجتمعتا، فإذا أُطلِق «الرَّبُّ» دخل فيه الإله، وإذا أُطلِق «الإله» دخل فيه الرَّبُّ، وإذا اجتمعتا فُسِّرَ«الرَّبُّ» بالخالق القائم بتربية عباده وإصلاحهم، وفُسِّرَ«الإله» بالمعبود، وذلك مثل الفقير والمسكين، فإذا أُطلِق «الفقير» دخل فيه المسكين، وإذا أُطلِق «المسكين» دخل فيه الفقير، وإذا اجتمعا فُسِّرَ«الفقير» بأنه أشد حاجة، وكذلك الإيمان والإسلام، فإذا أُطلِق «الإيمان» دخلت فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا أُطلِق «الإسلام» دخلا فيه كذلك، وإذا اجتمعا فُسِّرَ «الإسلام» بالأعمال الظاهرة، وفُسِّرَ «الإيمان» بالأعمال الباطنة كما في حديث جبريل[1]، وكذلك البِرُّ والتقوى، إذا أُطلِق «البِرُّ» يشمل فعل الأوامر وترك النواهي، وكذلك التقوى، وإذا اجتمعا البِرُّ والتقوى فُسِّرَ«البِرُّ» بفعل الأوامر و«التقوى» بترك النواهي، وهذا له نظائر كثيرة.

○ قوله: «**فالرَّبُّ مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابٌّ، فمعنى قوله تعالى:** ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] **رابُّ العالمين، فإن**

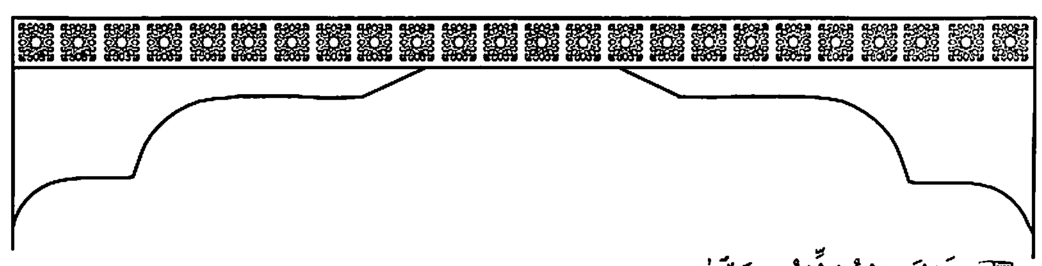
---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له»، رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الربَّ ﷻ هو الخالق المُوجِد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المُتكفِّل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا» الرَّبُّ يأتي بمعنى الخالق والمالك والمعبود، فيُطلق على الخالق المُوجِد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، ويُطلق على المالك، وهذان المعنيان يكونان بتوحيد الربوبية، ويُطلق أيضًا على المعبود، وهذا هو توحيد الألوهية كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: ١-٣].

وهو سبحانه المعبود بحقٍّ، ويستحقُّ العبادة ولا يستحقُّها غيره؛ لأنه هو الخالق المُوجِد لعباده، وهو القائم بتربية عباده وإصلاحهم، وهو الذي أعطاهم السمع والبصر والفؤاد والعقل، والذي أوجدهم من العدم، وهو الذي رباهم بنعمه، فما لعباده من نعمة إلا منه سبحانه، ومن هذا وصفه فهو المستحقُّ للعبادة، وكل معبود سوى الله فهو معبود بالباطل؛ كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢].





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«والإلهية : كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويُفْرِدُونه بالحبِّ والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنذر والطاعة والطلب والتوكل، ونحو هذه الأشياء».

الشَّرْح

لَمَّا فَسَّرَ المؤلف رحمه الله الربوبية انتقل إلى الألوهية، وهي «**كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا**»، فالربوبية من الله لعباده، والألوهية من العباد لله، فالربوبية من الله فهو الخالق والمُوجِد والمُربي لعباده القائم بتربيتهم، والإلهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا ويفردونه بأنواع العبادة.

○ قوله: «**مألوهًا**» أي: الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا، وخوفًا ورجاء وتعظيمًا.

○ قوله: «**ويُفْرِدُونه بالحبِّ**» والمراد: محبة العبادة، وهي المحبة التي تقتضي الذل والخضوع، فالعبادة اسم يجمع غاية الحب له وغاية الذل له.

وضابط محبة العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله: هي التي تقتضي كمال الحب وكمال الذل والخوف، **فلها ركنان**:

الأول: كمال الحب.

الثاني: كمال الذل والخوف، فإذا اجتمعا صارت عبادة، وإذا

انفرد أحدهما لا تكون عبادة، فإذا أحبَّ شخصًا ولم يذل ويخضع له لم يكن عابدًا له، وإذا ذلَّ لشخص وخضع له ولم يُحبه لم يكن عابدًا له، وإذا أحبه وخضع له فهو عابد له، فمثلًا قد يحب الإنسان شخصًا لكن لا يذل ولا يخضع له، وقد يخضع ويذل لسلطان ظالم، أو للص حينما يضع السيف على رقبته، فيخضع ويذل للسلطان الظالم واللص لكن لا يحبهما، ويحب الصالحين لكن لا يخضع ولا يذل لهم، فإذا اجتمعا خضوع وذل فهي عبادة، أما المحبة الطبيعية كمحبة الإنسان للمال وللصديق وللولد فهذه محبة طبيعية.

والمحبة يلزم منها الطاعة والاتِّباع، فمن ادَّعى محبة الله فلابُدَّ أن يُطيع الله ورسوله، ومن زعم أنه يُحبُّ الله وهو يعصيه فهو كاذب في دعواه، ولَمَّا ادَّعى قوم محبة الله امتحنهم الله بهذه الآية ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، وتُسمَّى «آية المحنة»[١]، فمن كان مطيعًا لله ورسوله فهو صادق في دعواه للمحبة، ومن كان عاصيًا لله ورسوله فهو كاذب في دعواه لها، فالطريقة المثلى للمحبة: أن تُطيع الله ورسوله، وأن تتبع الرسول فيما جاء به، وأن تمتثل أوامر الله، وتجتنب نواهيه كما قال القائل:

تعصي الإله وأنت تُظهر حُبَّه ... هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبًّا صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[٢]

○ قوله: «**والخوف**» المراد: خوف العبادة، وهو الخوف في السرِّ، ويُسمَّى بـ«خوف السرِّ»، فإذا صُرِفَ لغير الله يكون شركًا،

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٢٢).
(٢) انظر: «شعب الإيمان» (٢/ ٤٤)، «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٩)، «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٩٧).

وهناك خوف طبيعي، فالمرء يخاف من السَّبُع فيأخذ السلاح، ويخاف من العدو فيأخذ حِذره، ويخاف من الَحرِّ فيتقيه.

والخوف أنواع:

النوع الأول: **الخوف الطبيعي**: كأن تخاف من المخلوق الذي له أسباب ظاهرة فتخاف من العدو فتأخذ حذرك، أو تخاف من السباع، أو تخاف من البرد فتلبس ثيابك، أو تخاف من الجن فتتحرز منهم بالأوراد الشرعية، وتتعوذ بكلمات الله التامة من شرِّ ما خلق، وتقرأ آية الكرسي.

النوع الثاني: **خوف العبادة**: أن تخاف من شيء ليست أسبابه ظاهرة، فتخاف من الميت مثلًا أن يُمِيت ولدك، أو يحرمك دخول الجنة، أو يقطع رزقك، أو يسلط عليك عدوه فتدعوه من دون الله، فهذا خوف السرِّ، وهذا شرك لمن صرفه لغير الله، أما الخوف الذي يحمل الإنسان على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا معصية.

○ قوله: «**والرجاء**» المراد: رجاء العبادة، وهو رجاء السرِّ، وهو: أن يغدو كلُّ راجٍ خائفًا، فهو يرجو حصول المطلوب ويخاف حصول المرهوب، وهذه هي أركان العبادة، حبٌّ وخوف ورجاء،ولابُدَّ من اجتماعها في العبادة.

ومَنْ عَبَدَ اللهَ بواحد منها لم يكن عابدًا لله، فعبادة الله بالحبِّ وحده طريقة **الصوفية**، يقول أحدهم: «ما عبدت الله خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبًّا لذاته وشوقًا إليه» وهذا يذكره أهل الوعظ في كتبهم عن رابعة العدوية[1] - إن

(١) انظر: «إحياء علوم الدين»للغزالي (٤/ ٣١٠).

صحَّ عنها - وهذا باطل؛ لأن الله تعالى أخبر أن أنبياءه ورسوله يعبدونه بالخوف والرجاء، لما ذكر سبحانه الأنبياء إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ويحيى قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، قوله: ﴿رَغَبًا﴾ هذا الرجاء، وقوله: ﴿وَرَهَبًا﴾ هذا الخوف، وقال سبحانه عن المتقين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ [السجدة: ١٦]، فلابُدَّ من الحبِّ والخوف والرجاء، وعبادة الله بالخوف وحده طريقة **الخوارج**، ولهذا كَفَّروا المسلمين بالمعاصي، وعبادة الله بالرجاء وحده طريقة **المرجئة** الذين لا يخافون الله، ولا يرون أن المعاصي لها تأثير[(١)].

ولهذا **قال بعض السلف**: من عبدالله بالحبِّ وحده فهو **زنديق**، ومن عبده بالخوف وحده فهو **حروري**، ومن عبده بالرجاء وحده فهو **مرجىء**، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو **مؤمن**».

والخوف والرجاء كجناحي الطائر لا يطغى أحدهما على الآخر، لكن **قال بعض العلماء**: ينبغي على العبد أن يُغلِّب في حال الحياة جانب الخوف؛ حتى يحمله على البُعد عن المُحَرَّمات والمسابقة إلى الخيرات، وأما عند الموت فإنه يُغلِّب جانب الرجاء؛ حتى لا يموت إلا وهو يحسن الظن بالله[(٢)].

○ قوله: «**والإخبات**» يعني: الخشوع، خشوع القلب والجوارح.

○ قوله: «**والتوبة**» يعني: توبة العبادة، وهي الرجوع إلى الله

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢١).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/ ٤١١).

ﷻ، وطلب مغفرة الذنوب، وهذا لا يقدر عليه إلَّا الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، وفي «مسند أحمد»(١) عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: «اللهم إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»**، فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله كالسجود والصيام.

وأما التوبة بمعنى الرجوع عن الخطأ فيما يتعلَّق بالمخلوق فلا بأس أن يُقال له؛ كما في حديث عائشة ﵂ في «الصحيحين»(٢) أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: **«يَا رَسُولَ اللهِ أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ»**، أي: تتوب إلى الله مما أذنبت، وتتوب إلى رسوله مما أخطأت في حقِّه.

○ قوله: «والنذر» وهو أن يُوجِب المرء على نفسه طاعة لم يُوجِبها الله عليه، كأن ينذر أن يصلي أو يصوم أيامًا معدودة أو يحج، فإذا كان نذر طاعة وجب عليه الوفاء، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧] أي: أن الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا برُّوا بوفائهم لله بالنذور التي كانوا ينذرونها في طاعة الله، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٢٨٤)
وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، وفيه: محمد بن مصعب وثَّقه أحمد، وضعَّفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب «التجارة فيما يُكره لبسه للرجال والنساء»، رقم (٢١٠٥)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، رقم (٢١٠٧).

﴿... تَدۡرِ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

○ قوله: «والطاعة» فالطاعة تكون لله، وطاعة رسوله ﷺ تابعة له، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، كما أن محبة الرسول ﷺ والمؤمنين تابعة لمحبة الله تعالى.

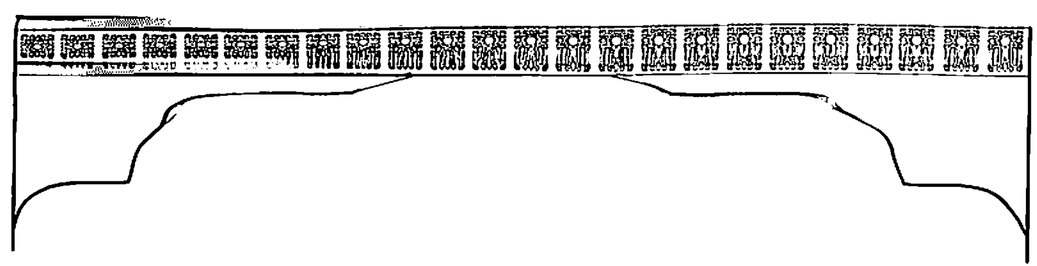
○ قوله: «والطلب» بمعنى: الدعاء، أي: الطلب من الله ودعاؤه سبحانه.

○ قوله: «والتوكل» أي: الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، وهذا خاصٌّ به ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].

○ قوله: «ونحو هذه الأشياء» فهذه أمثلة وليس المراد منها الحصر.







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإن التوحيد حقيقته: أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤيةً تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشرَّ إلَّا مِنْهُ تعالى.

وهذا المقام يثمِرُ التَّوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله تعالى، والتسليم لحُكمه».

الشَّرْح

○ قوله: «**فإن التوحيد حقيقته**» التوحيد مصدر وَحَّدَ يُوحِّد توحيدًا إذا جعل الشيء منفردًا[1]، وهو: إفراد الله بالربوبية وبالأسماء والصفات وبالألوهية، ويُقال في التوحيد: إفراد الله بالعبادة؛ لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فطري، ولكن لابُدَّ من توحيد الله في الربوبية والأسماء والصفات والألوهية.

○ قوله: «**أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤيةً تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشرَّ إلَّا مِنْهُ تعالى**» وهذا داخل في توحيد الربوبية، وذلك بأن يعتقد العبد أن الأمور كلها من الله، وأن كلَّ شيء بيده سبحانه، فبيده الخلق والرَّزق والعافية والنصر والغنى والفقر، وأنه قَدَّرَ الخير والشرَّ،

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٥/ ١٢٤، ١٢٥).

وذلك كله لحكمة.

قرَّر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لابُدَّ في توحيد الربوبية «أن ترى الأمور **كلها من الله تعالى رؤيةً تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط**» يعني: الركون إليها والاعتماد عليها؛ فالركون والاعتماد إنما يكون على الله، لكن لا مانع من فعل الأسباب بالجوارح.

وقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط فيه تفصيل:

إن كان المراد بقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط عدم الركون إليها والاعتماد عليها فهذا حقٌّ؛ لأن الركون إلى الأسباب شرك في التوحيد.

فالتوحيد أن تفعل الأسباب على أنها أسباب جعليَّة - بجعل الله لها أسبابًا - مع عدم الركون إليها، فالركون إلى الأسباب والاعتماد عليها شرك في الربوبية، وترك الأسباب قدح في العقل، والتوحيد أن تفعل الأسباب ولا تعتمد عليها، ولا تترك الأسباب فتكون عاصيًا لله(١).

والأسباب أنواع:

منها: ما يجب تركه، وهي الأسباب المُحَرَّمَةُ كالتداوي بالمُحَرَّمَات فهذه لا يجوز فعلها.

ومنها: أسباب واجبة لابُدَّ من فعلها، كالإيمان والتوحيد؛ فهو أعظم الأسباب لدخول الجنة كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

وعبارة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُوهِمة، لكن مقصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تقطع الالتفات بالقلب إلى الأسباب، ولهذا قال: «**فلا ترى الخير والشرَّ**

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٤٩٩).

إلَّا مِنْهُ تعالى» وهذا كلام **الغزالي** رَحِمَهُ اللهُ في «الإحياء»[(١)].

◌ قوله: «**وهذا المقام يثْمِرُ التَّوكل**» والتَّوكل: هو الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، وهو يجمع بين أمرين:

الأول: فعل الأسباب المشروعة التي أمر الله بها.

الثاني: الاعتماد على الله بالقلب في حصول النتيجة.

◌ قوله: «**وترك شكاية الخلق، وترك لومهم**» والمقصود: ترك شكاية الخلق ولومهم بالشيء الذي لم يُقدِّره الله على أيديهم، فإذا طلب أمرًا ولم يُقدَّر له على يد هذا المخلوق فلا يلمه ولا يذمه؛ فإن الله لم يُقدِّرْ ذلك، وقد روى عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيقِينِ: أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسُخْطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ؛ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ إِلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ، إِنَّ اللهَ جَعَلَ الرَّوحَ وَالْفَرَجَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ**»[(٢)].

فإذا توكَّلَ العبد على ربه واعتمد عليه وفَوَّضَ أمره إليه وعَلِمَ أن كلَّ شيء بأمره وأنه قَدَّرَ الأشياء فلا يشكو الخلق، ولا يلومهم، ولا يذمهم بالشيء الذي لم يحصل على أيديهم، ولكن يلومهم ويذمهم على أفعالهم السيئة التي تُخالف الشرع، فلا بأس من ذمِّهم ونصيحتهم.

---

(١) «إحياء علوم الدين»(١/ ٣٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٢١).

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث عمرو، تفرد به علي بن محمد بن مروان عن أبيه».

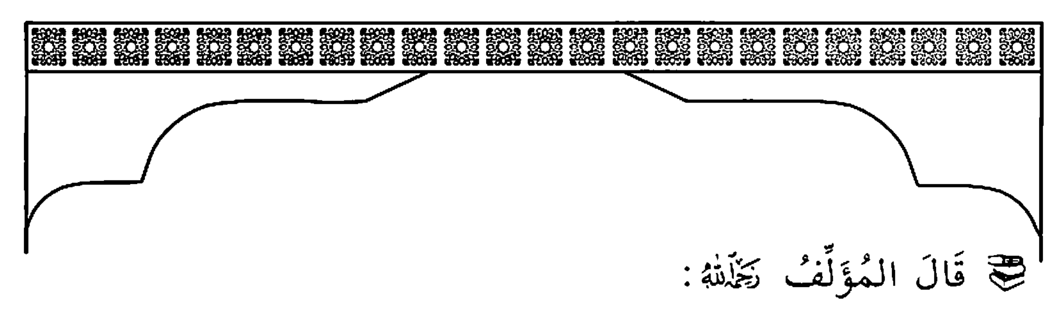
وقال البيهقي: «محمد بن مروان ضعيف».

○ قوله: «**والرضا عن الله تعالى، والتسليم لحُكمه**» فترضى عن الله، وترضى بقضائه وقدره، وترضى بحكمه الذي حكم به على عباده وما أنزله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وتُسلِّم لحُكمه الشرعي والجزائي والقدري، وترضى به، **لحُكمه الشرعي** فيما حكم بين عباده فيما أنزله الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، **ولحكمه الجزائي** بأنه يحكم بين عباده يوم القيامة بنفسه ﷻ، **ولحُكمه القدري** حينما يُقدِّر على هذا الفقر وعلى هذا الغنى، فلا بُدَّ من التسليم لحُكم الله الشرعي والجزائي والقدري، والرضى به، وكل هذا من ثمرات التَّوكل.

ويجب التحاكم إلى القرآن والسنة، ولا يصح الإيمان إلا به؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فنفى الله تعالى الإيمان حتى يُحَكِّمَ العبد الرسول في موارد النزاع، ويُسلِّم ويطمئن لحُكمِه، ولا يكون في نفسه حرج، فلابُدَّ من التسليم لحُكم الله.

وهذا التوحيد الذي فَسَّرَهُ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: توحيد الربوبية، ولا يكفي، والتوحيد كما سيأتي هو إفراد الله تعالى بالعبادة.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا عرفتَ ذلك فاعلم أن الربوبية مِنْهُ تعالى لعباده، والتَّأَلُّه من عباده له سبحانه، كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه ﷻ».

الشَّرْح

المشار إليه في قوله «**وإذا عرفتَ ذلك**» إلى ما تقدَّم من معنى الربوبية والألوهية، من أن اعتقاد أن الله تعالى: «**هو الخالق المُوجِد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المُتكفِّل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا**»، وأن «**الإلهية: كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويُفْرِدُونه بالحبِّ والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنذر والطاعة والطلب والتَّوكل، ونحو هذه الأشياء**».

○ قوله: «**فاعلم**» أي: تيقن «**أن الربوبية مِنْهُ تعالى لعباده**»؛ لأنه خالقهم، ومُوجِدهم، والقائم بتربيتهم، والمُتكفِّل بصلاحهم، فهذه أفعاله تعالى.

○ قوله: «**والتَّأَلُّه**» وهو التَّعبُّد «**من عباده له سبحانه**» وذلك بإفراد الله بأفعال العباد التي يتعبَّدون بها من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ودعاء، وبرٍّ للوالدين، وصلة للأرحام، وجهاد، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وغيرها.

○ قوله: «**كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه ﷻ**» فالرحمة هي الرابطة بين الله وعباده، فهو تعالى رحيم بعباده.

ومن رحمته: أنه خلقهم وأوجدهم.

ومن رحمته: أنه يرزقهم ويعافيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن رحمته: أنه لا يُعاجلهم بالعقوبة.

ومن رحمته: أنه يمهل ولا يهمل، في «الصحيحين»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»، فمن نفى رحمة الله فقد قطع الصلة بين الله وبين عباده.

والرحمة رحمتان:

الأولى: الرحمة التي هي صفة لله تبارك وتعالى.

الثانية: رحمة مخلوقة، وهي أثر من أثر الصفة، ومن ذلك: ما في «الصحيحين»(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: «أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ»، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: «مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟!»، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: «أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، وَقَالَ لِلنَّارِ: «إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: «قَطْ قَطْ» فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «جعل الله الرحمة مائة جزء»، رقم (٦٠٠٠)، ومسلم، كتاب التوبة، رقم (٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «قوله ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠]»، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٤٦).

بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا»، ومنه: حديث جُنْدُبٌ ؓ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا، ثُمَّ صَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَتَى رَاحِلَتَهُ فَأَطْلَقَ عِقَالَهَا ثُمَّ رَكِبَهَا، ثُمَّ نَادَى: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَدًا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَقُولُونَ هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟!**»، **قَالُوا**: «بَلَى»، قَالَ: «**لَقَدْ حَظَرْتَ، رَحْمَةُ اللهِ وَاسِعَةٌ؛ إِنَّ اللهَ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَنْزَلَ اللهُ رَحْمَةً وَاحِدَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلَائِقُ جِنُّهَا وَإِنْسُهَا وَبَهَائِمُهَا، وَعِنْدَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ، أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟**»[(١)].

وتفسير **الأشاعرة** لـ«الرحمة» بالإنعام، وقولهم أن معنى «الرحمن» المُنْعِم غلط؛ فالإنعام أثر من آثار الرحمة، **وهم** مُبتدِعة؛ فهم يُثبِتُون سبع صفات ويتأوَّلُون البقية[(٢)]، والمتأول غير الجاحد، فمن جحد أسماء الله وصفاته يكفر، **وهم** لم يجحدوها ولكن تأوَّلوها.



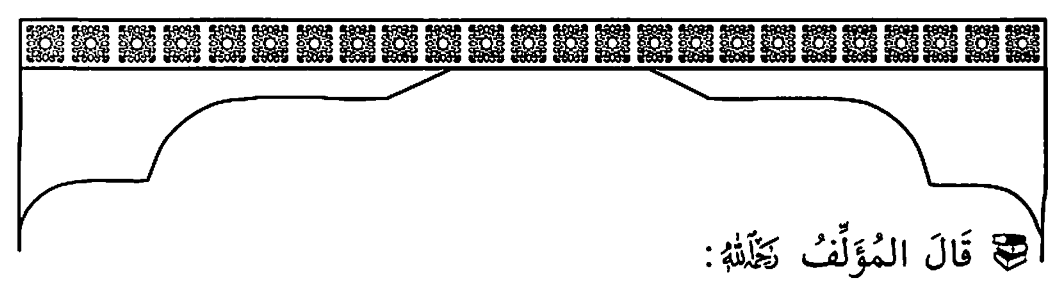
---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «من ليست له غيبة»، رقم (٤٨٨٥)، وأحمد (٤/ ٣١٢) ـ واللفظ له ـ.

قال الهيثمي: «رواه أبو داود باختصار، رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي عبدالله الجشمي، ولم يضعِّفه أحد». «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٤).

وقوله «**لَقَدْ حَظَرْتَ رَحْمَةُ اللهِ وَاسِعَةٌ**» له أصل في «صحيح البخاري»، كتاب الأدب، باب «رحمة الناس والبهائم»، رقم (٦٠١٠) من حديث أبي هريرة ؓ بلفظ: «**لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا**» يُرِيدُ: رَحْمَةَ اللهِ.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى»(٦/ ٣٥٨، ٣٥٩).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«واعلمْ أن أنفس الأعمال وأجلَّها قدرًا: توحيد الله تعالى».

الشَّرْح

○ قوله: «**واعلمْ**» العلم هو حكم الذهن الجازم وتصوره على حقيقته، والمعنى: تيقن «**أن أنفس الأعمال وأجلَّها قدرًا: توحيد الله تعالى**».

والأمر إذا جاء عن الله أو رسوله ﷺ فهو للوجوب في **الصحيح** من أقوال أهل الأصول، وإذا جاء من المخلوق فهو للطلب والالتماس(١)، غير أن هذا الأمر الذي أمر به المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ليس أمرًا دنيويًا إنما هو أمر بتحقيق التوحيد، ومقتضاه مأخوذ من الكتاب والسنة، ففيهما نصوص تدلُّ على أن أنفس الأعمال وأجلَّها قدرًا هو توحيد الله تعالى.

والتوحيد هو الذي لأجله خلق الله الخليقة، وأرسل الله الرُّسُلَ، وأنزل الله الكُتُبَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكلُّ نبي بعثه الله إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد، يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]،

(١) انظر: «القواعد والفوائد الأصولية» لابن اللحام (ص ١٥٩).

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والتوحيد حقُّ الله على عباده، وهو محضُ حقٍّ له ﷻ، في «الصحيحين»[(١)] عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ»، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**»، قُلْتُ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ»، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟**»، قُلْتُ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «**حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**».

وتوحيد الله أشرف وأنفس وأفضل الأعمال؛ لأن بتحقيقه تحصل السعادة، فتحقيق التوحيد وتخليصه وتهذيبه وتنقيته من شوائب الشِّرك يُدخِل المسلم الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولهذا بَوَّبَ الإمام المجدِّد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في «كتاب التوحيد»[(٢)] «باب من حَقَّقَ التوحيد دخل الجنة بغير حساب»، يعني:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب «إرداف الرجل خلف الرجل»، رقم (٥٩٦٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٠).

(٢) «كتاب التوحيد» (ص ١٥).

خَلَّصَهُ وصَفَّاهُ ونَقَّاهُ وهَذَّبَهُ من شوائب الشِّرك والبدع والمُحدثات فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وبهذا يتبيَّن أن أنفس الأعمال وأشرفها وأفضلها وأجلَّها توحيد الله ﷻ؛ فيتحقيقه تحصل السعادة الأبدية، وبإضاعته تحصل الشقاوة الأبدية، فمن ضَيَّعَ التوحيد وأشرك بالله فهو الشقي أبد الآبدين إذا مات على ذلك، ومن حَقَّقَ التوحيد فهو السعيد أبد الآباد، ولهذا فإن أول الأوامر في القرآن الكريم الأمر بتوحيد الله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١]، وأول نهي نهى الله عنه في القرآن هو الشِّرك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

فمن لقي الله بتوحيد خالص غير مُلطَّخ بالشِّرك والمعاصي والبدع فهو الناجي السالم، ومن أهل الجنة والكرامة، ويدخل الجنة من أول وهلة؛ فضلًا من الله وإحسانًا، وإن لقي الله بتوحيد مُلطَّخ بالمعاصي من غير توبة فهو على خطرٍ من عذاب القبر ومن الأهوالِ التي تُصيبه في شدائد القيامة، ومن دخول النار، وقد يُعفى عنه وقد يُعذَّب فهو داخل تحت المشيئة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، وإذا لم يَعْفُ الله عنه فلابُدَّ أن يُطهَّرَ في النار حتى يزول خبثه؛ فالمعاصي خَبَثٌ كالأوساخ والنجاسة في الثوب لابُدَّ من غسلها ليطهر الثوب، فكذلك العاصي لابُدَّ من تطهيره، وإن لقي الله بغير توحيد فهو مُعذَّب في قبره، وتصيبه أهوال يوم القيامة، وهو خالد مُخلَّد في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ [المَائدة: ٧٢].

والتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، وبالربوبية، وبالأسماء

والصفات.

وأصحُّ ما قيل في تعريف العبادة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «هي: اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرُّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة»(١).

وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات نوعان فطر الله الخلق عليهما، وإنما جرى النزاع والخصومة بين الرُّسُل والأمم في توحيد الألوهية، **وقد غلط في مُسمَّى التوحيد طوائف من أهل الكلام وغيرهم.**

قال أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «منازل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»(٢) في تعريف التوحيد: «تنزيه الله تعالى عن الحدث»، والمخلوقات كلها محدثة، ففَسَّرَ التوحيد بأنه تنزيه الله عن مخلوقاته المحدثة، وهذا ليس تعريفًا؛ إذ لا يتجاوز حدَّ توحيد الربوبية، **وعُبَّاد الأصنام والأوثان** نَزَّهوا الله عن المحدثات، ولم يقولوا: «إنه محدث»، بل قالوا: «إن الله هو الأول فليس قبله شيء، وهو واجب للبرِّ بذاته»، فنزَّهوا الله عن المحدثات ولم يكونوا مُوحِّدين.

وقال الْجُنَيْدُ: «التوحيد: هو إفراد القديم عن المحدث»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

(٢) «منازل السائرين» (ص ١٣٥).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٤٤٤).

و«القديم» ليس من أسماء الله، **وقد أنكر العلماء على أهل البدع الذين سَمُّوا الله بـ«القديم»**، وقد أنكروا على الإمام الطحاوي ﷺ لَمَّا قال: «قديم بلا ابتداء»[1]، والذي من أسماء الله «الأول»، وهو أحسن من «القديم»؛ لأن «القديم» يُشعِر بالقِدم والبِلى، وما من قديم إلا وقبله أقدم منه، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩]، والعرجون: عرجون النخلة، العذق يُسمَّى العرجون، فإذا جاء العرجون الجديد صار الأول قديمًا بالنسبة للجديد، بخلاف الأول فإنه يشعر بأن كل شيء آيل إليه، ويشعر بأنه لا أولية لبدايته، بخلاف القديم؛ فما من قديم إلا وهناك أقدم منه، فليس «القديم» من أسماء الله، وقد غلط أهل البدع في عَدِّه من أسماء الله.

وهذا الإفراد الذي أشار إليه **الْجُنَيْدُ** نوعان:

الأول: إفراده في الاعتقاد، في أسماء الله وصفاته وأفعاله.

الثاني: إفراده في التَّأَلُّهِ والعبادة[2].

وهذا صحيح، إِلَّا أن هذا التعريف فيه غموض، والتوحيد هو حقُّ الله على عباده فينبغي أن يكون التعريف واضحًا، فيُقال: التوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، وأشمل منه أن يُقال: إفراد الله في الربوبية، والأسماء والصفات، والعبادة.

فكلمة التوحيد «لا إله إِلَّا الله» معناها: لا معبود حق إلا الله، وليس معناها لا خالق إلا الله؛ ولو كان معناها لا خالق إلا الله لكان كفار قريش مُوحِّدين؛ لأنهم يقولون ذلك كما حكى تعالى عنهم

---

(١) «متن العقيدة الطحاوية» (ص ١٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٧).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلا تتبيَّن عظمة هذه الكلمة وأنها تنفي الإلهية عن غير الله وتُثبِتُها لله إلَّا إذا فُسِّرَ الإله بالمعبود، فالإله هو المعبود.

و«لا» في كلمة التوحيد هي النافية للجنس، من أخوات «إنَّ» تنصب الاسم وترفع الخبر، و«إلهَ» اسم جنس، وهو اسمها منصوب، والخبر محذوف، وتقديره: حقٌّ، و«إلَّا» أداة استثناء، والاسم الشريف «الله» بدل من الخبر المحذوف.

والصوفية والأشاعرة يُفسِّرون «الإله» بالخالق، يقولون: لا خالق إلا الله[1]، وهذا باطل؛ فمعناه لم يتعدَّ توحيد الربوبية، لو كان معناه لا خالق إلا الله لصار كفار قريش مؤمنين؛ لأنهم يقولون لا خالق إلا الله.

- كلمة التوحيد «لا إله إلَّا الله» فيها نفي وإثبات، نفي جميع أنواع العبادة لغير الله، وهذا هو الكفر بالطاغوت، وإثبات العبادة لله الذي هو الإيمان به، ففيها كفر وإيمان، وليس هناك توحيد إلا بأمرين نفي وإثبات؛ قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلو قال شخص: «أنا أعبد الله» فهذا مجرد إثبات فلا يكون موحِّدًا؛ لأنه قد يعبد الله ويعبد معه غيره، فلابُدَّ أن يُوحِّدَ الله بنفي العبادة عن غيره حتى يكون مُوحِّدًا، فلابُدَّ من النفي والإثبات.

---

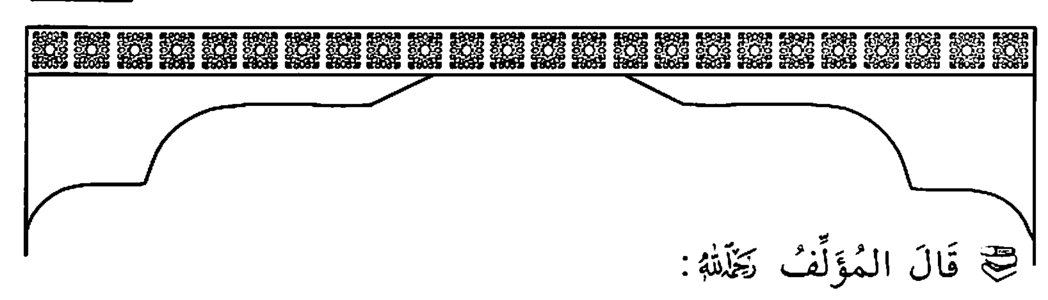
(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ٢٢٦)، «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٨)، (٥/ ٥٦٥)، (١٠/ ١٣١)، «شرح حديث النزول» (ص ١٧٨)، و«منهج السنة النبويه» (٣/ ٣٣١)، و«مدراج السالكين» (١/ ١٧٤) (١/ ٣٣٦-٣٣٩).

وكذلك في توحيد الأسماء والصفات لابُدَّ من إثبات الأسماء والصفات التي أثبتها الله لنفسه، ولابُدَّ من نفي التعطيل والتمثيل والتشبيه والتكييف، فإثبات الأسماء والصفات لله تعالى يقوم على هذه الأمور.

وكذلك في توحيد الربوبية لابُدَّ من إثبات أفعال الله ﷻ، ولابُدَّ من نفيها عن غيره، فليس هناك توحيد إلا بأمرين: نفي وإثبات، تحلية وتخلية، فلا بُدَّ أن يتخلَّى عن الشِّرك والبدع ثم يتحلى بالإيمان والتوحيد، فيكفر بالطاغوت ويؤمن بالله.

ومن الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها، وتُبغِض أهلها، وتُكفِّرهم، وتُعاديهم.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

غير أن التَّوحيد له قِشران:

الأول: أن تقول بلسانك «لا إله إلَّا الله»، ويُسمَّى هذا القول توحيدًا، وهو مناقض التَّثلِيثِ الذي تعتقده النصارى، وهذا التَّوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يُخالِف سِرُّهُ جهرَهُ.

والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك، والتَّصديق به، وهذا هو توحيد عامة الناس.

ولُبَاب التَّوحيد: أن يرى الأمور كلها من الله تعالى، ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادة يُفْرِده بها، ولا يعبد غيره.

الشَّرْح

هذا الكلام نقله المؤلف رحمه الله من «إحياء علوم الدين»[1] والغزالي رحمه الله عنده نوع من التصوف، وأيضًا على طريقة **الأشاعرة**، وهذا هو الموضع الذي نقله منه ولذلك حصل عنده بعض الأخطاء، والباقي نقله من ابن القيم رحمه الله.

قال المؤلف رحمه الله: «غير أن التَّوحيد له قِشران» القِشر ـ بالكسر ـ في اللغة: هو غشاء الشيء[2].

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٣، ٣٤).

(٢) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (١٣/ ٤١٥).

وقد جعل المؤلف رحمه الله للتوحيد قِشرين:

القِشر الأول: النطق بكلمة التَّوحيد «لا إله إلا الله».

القِشر الثاني: اعتقاد القلب معنى كلمة التَّوحيد.

وكلمة التَّوحيد كما يقول المؤلف رحمه الله هي المناقضة للتثليث، وإذا كانت مناقضة للتثليث فكيف تكون قِشرًا؟!.

وتسمية النطق بكلمة التَّوحيد «قِشرًا» غلط لأمرين:

الأمر الأول: أن القِشر يُطلق على الشيء غير المهم الذي لَا يُؤْبَهُ له، وكلمة التَّوحيد ليست قِشرًا بل هي أفضل الكلام؛ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»»**[(١)]، **وبها يدخل العبد الإسلام، في «الصحيحين»**[(٢)] **عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَاللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «يَا عَمِّ، قُلْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»**، وفي «صحيح البخاري»[(٣)] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «في دعاء يوم عرفة»، رقم (٣٥٨٥).
قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «إذا قال المشرك عند الموت «لا إله إلا الله»»، رقم (١٣٦٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟»، رقم (١٣٥٦).

قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: «أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ»، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**».

الأمر الثاني: أن تقسيم الدين إلى لباب وقشور باطل؛ إذ الدين كله لباب ليس فيه قشور، وليس فيه شيء غير مطلوب.

وقد أنكر **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله على من قَسَّمَ الشريعة إلى أصول وفروع، **فقال**: «فأما التفريق بين نوع وتسميته «مسائل الأصول» وبين نوع آخر وتسميته «مسائل الفروع» فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة، ولا عن التابعين لهم بإحسان، ولا أئمة الإسلام، وإنما هو مأخوذ عن **المعتزلة** وأمثالهم من أهل البدع، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كُتُبهم، وهو تفريق متناقض»[1]، فكيف يُقسِّم التَّوحيد إلى قشور ولباب، ويقول: إن القِشر الأول أن تقول بلسانك «لا إله إلا الله» وهي كلمة التَّوحيد وهي أفضل الكلام؟!

وسبب غلطه نقله عن الغزالي رحمه الله ولم يتأمل المعنى، ولو لم ينقل عنه ونقل كلام الأئمة والعلماء من أهل البصيرة كسائر مسائل الكتاب لكان **أولى**.

وكلمة التَّوحيد هي الكلمة التي من أجلها خلق الله الخلق، وأرسل الرُّسُل، ومعناها: لا معبود حق إلا الله.

○ قوله: «**الأول: أن تقول بلسانك: «لا إله إلَّا الله»، ويُسمَّى هذا القول توحيدًا**»، ولا يكفي النطق بها، بل لابُدَّ من معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، والبعد عما يناقضها، والكفر بما يُعبد

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٦).

من دون الله، فلا يكون الإنسان مُوحِّدًا إلا بذلك كما قال **الإمام المجدِّد محمد بن عبدالوهاب** رحمه الله في بيانه لمعنى هذه الكلمة، وذكر حديث أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»(١) **فقال الإمام** رحمه الله: «وهذا من أعظم ما يُبيِّن معنى «لا إله إلا الله»؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يُضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شكَّ أو توقَّف لم يَحْرُمْ ماله ودمه، فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها؟، وياله من بيانٍ ما أوضحه؟، وحجةٍ ما أقطعها للمنازع؟»(٢).

○ قوله: «**وهو مناقض التَّثليثِ الذي تعتقده النصارى**» فالنصارى يقولون بالتثليث فيجعلون الآلهة ثلاثة، اللهَ وعيسى ومريمَ ـ عياذًا بالله ـ، وقد كَفَّرَهُم الله تعالى فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣-٧٤]، وهم بقولهم في التثليث متناقضون؛ أحيانًا يقولون هم ثلاثة بالأقانيم(٣) أو ثلاثة بالأشخاص،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٣).

(٢) «كتاب التوحيد» (ص ٢٦).

(٣) **قال القرطبي**: «ويعنون بالأقانيم: الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح في كلام لهم فيه تخبط بيانه في أصول الدين، ومحصول كلامهم يئول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يُجريه الله ﷻ على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته». «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٣). =

ويقولون: «اسم الأب والابن وروح القدس إله واحد»[(١)]، فهم متناقضون، وأكثرهم لا يفهمون معنى التثليث.

فَبَيَّنَ المؤلف رحمه الله أن كلمة التوحيد مناقضة للتثليث الذي يعتقده النصارى، **وهي أيضًا مناقضة لمذهب المجوس** القائلين بالأصلين النور والظلمة[(٢)]، **وكذلك مناقضة للمُشركين** في العبادة أصنامًا وأوثانًا.

○ قوله: «**وهذا التَّوحيد يصدر أيضًا من المنافق الذي يُخالِف سِرُّهُ جهرَهُ**» المنافق هو الذي يُظهِر الإسلام ويُبطن الكفر، والنِّفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفًا، يُقال: نافق ينافق منافقة ونِفاقًا، وهو مأخوذ من النَّافِقَاءِ أحد حجرة اليربوع، إذا طُلِبَ من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه، **وقيل**: هو من النَّفَقِ، وهو السَّرَب الذي يُسْتَتَر فيه لِسَتْرِه كفره[(٣)].

فبَيَّنَ المؤلف رحمه الله أن هذا التوحيد يصدر من المنافق الذي يُخالِف سِرُّهُ جهرَهُ، فهو ينطق بلسانه وإن كان قلبه مُكذِّبًا، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البَقَرَة: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ

= **وقال ابن تيمية**: «أن قولهم بالأقانيم ـ مع بطلانه في العقل والشرع ـ لم ينطق به عندهم كتاب، ولم يوجد هذا اللفظ في شيء من كتب الأنبياء التي بأيديهم ولا في كلام الحواريين، بل هي لفظة ابتدعوها، ويُقال إنها رومية، وقد قيل «الأقنوم» في لغتهم معناه الأصل، ولهذا يضطربون في تفسير الأقانيم، تارة يقولون أشخاص، وتارة خواص، وتارة صفات، وتارة جواهر، وتارة يجعلون الأقنوم اسمًا للذات والصفة معًا، وهذا تفسير حذاقهم». «الجواب الصحيح» (٣/ ٢٠٠).

(١) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص ٤٢).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٥/ ٩٧).

إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١].

وسيأتي الكلام على ما سماه المؤلف رحمه الله بالقشر الثاني وأنه توحيد عامة الناس.

○ قوله: «**ولُبَاب التَّوحيد: أن يرى الأمور كلها من الله تعالى**» أي: يعتقد أن الأمور كلها من الله، وهذا من عقيدة القلب «**ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط**» يعني: يتوكل على الله، وهذا من عقيدة القلب.

○ قوله: «**وأن يعبده سبحانه عبادة يُفْرِده بها، ولا يعبد غيره**» يعبد الله بالنطق بالشهادتين، والتصديق، والإقرار، والعمل.

ويدخل في ذلك: الأعمال القلبية من الإيمان بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه، ويدخل أيضًا: عمل الجوارح.

وبهذا يتبيَّن أن الإيمان والتوحيد نطق باللسان، وتصديق بالقلب، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، كلها داخلة في مُسمَّى التَّوحيد، وكلها لباب وليس فيها قشور، والدين كله لباب، وتقسيم الدين إلى قشور ولباب وأصول وفروع لا أصل له، وهذه كلها من أغلاط **الغزالي** رحمه الله، **وعُذْرُ المؤلف** رحمه الله أنه نقل عنه ولم يتأمل وأحسن الظَّنَّ به.

❁ **فالتوحيد لا يصح إلا بأمور أربعة:**

الأول: النُّطق باللسان، بأن ينطق الشهادتين.

الثاني: تصديق القلب وإقراره، بأن يُصدِّق ويُقِرَّ بقلبه بما دلت عليه الشهادتان.

وإقرار القلب وتصديقه بمعنى واحد، وإقرار القلب وتصديقه هو

قول القلب، فقول القلب هو إقراره وتصديقه، يُقال: «قول القلب»، ويُقال: «إقرار القلب»، ويُقال: «تصديق القلب».

الثالث: أعمال القلب كالمحبة، فلابُدَّ أن يكون في قلب العبد محبة تبعث الجوارح على الأعمال، وكذا الانقياد، والإخلاص، والصدق، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء.

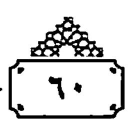
الرابع: أعمال الجوارح، وإذا لم ينقد القلب لم تنقد الجوارح.

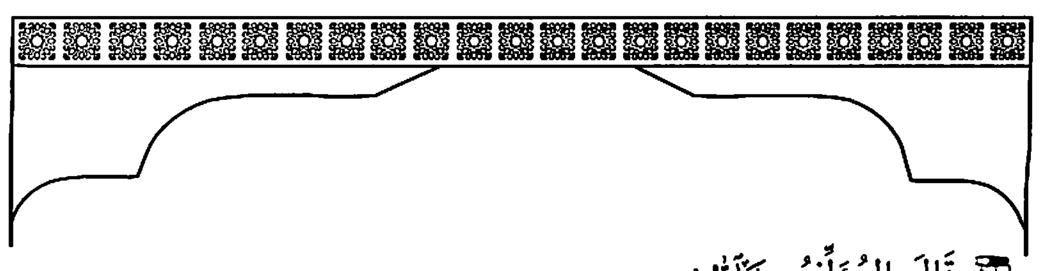
فإبليس مُصدِّق في الباطن، لكن ليس عنده انقياد؛ لكفره إباءً واستكبارًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٤]، فإبليس قابَلَ أمر الله بالإباء والاستكبار لا بالتكذيب، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعـراف: ١٢] فامتنع من الطاعة لأنه لا يُؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني ـ لعنه الله ـ: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟!، ثم بَيَّنَ أنه خير منه بأنه خُلِقَ من نار والنار أشرف مما خلقتَه منه وهو الطين، فهذا اعتراض على الله وردٌّ للحقِّ، فأول من ردَّ الحقَّ إبليس، **قال بعض السلف**: «أول من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس»(١).

فلا يمكن أن يعبد الله أحدٌ عبادة إلا بأن ينطق بلسانه بكلمة التوحيد، وأن يعتقد معناها، ويعمل بمقتضاها بجوارحه، وبهذا يتبيَّن أن هذه الأمور كلها لباب وليس فيها قشور.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٥).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«**ويُخْرِجُ عن هذا التَّوحيد: اتِّباعُ الهوى، فكلُّ من اتَّبع هواه فقد اتَّخذ هواه معبوده، قال الله تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]».

الشَّرْح

التَّوحيد ـ الذي هو نطق باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالقلب والجوارح ـ يُخْرِجُ عنه اتِّباع الهوى.

الذي يُخْرِجُ عن التَّوحيد أمران:

الأول: ما يُناقِض التَّوحيد بالكلية.

الثاني: ما يُناقِض كماله الواجب.

وهل اتِّباع الهوى يُناقِض التَّوحيد بالكلية أو يُناقِض كماله الواجب؟

الأمر محتمل، **والمؤلف** رَحِمَهُ اللهُ نقل عن **الغزالي** رَحِمَهُ اللهُ ولم يُفصِّل، أو يُعلِّق، أو يُناقِش.

○ قوله: «**ويُخْرِجُ عن هذا التَّوحيد: اتِّباعُ الهوى، فكلُّ من اتَّبع هواه فقد اتَّخذ هواه معبوده، قال الله تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾» هذا الكلام ليس على الإطلاق فلا بُدَّ فيه من التقييد؛ فاتِّباع الهوى قد يكون شركًا كما لو اتَّبع الهوى وعَبَدَ الصَّنَمَ، وقد يكون كبيرةً كمن اتَّبع هواه في التعامل بالربا أو فعل الزنا، وقد يكون

مباحًا كما لو هوى امرأة جميلة وخطبها وتزوجها فهذا مباح إذا لم تشغله عن طاعة الله، أو هوى جمع المال فجمعه إذا لم يشغله عن طاعة الله، وقد جَهَّزَ عثمان رضي الله عنه يوم العسرة ثلاث مئة بعير بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ ابْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي ثَوْبِهِ حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: «**مَا ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**» يُرَدِّدُهَا مِرَارًا[(١)]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[(٢)].

ويدل لذلك ما ثبت في «الصحيحين»[(٣)] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟!»، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قُلْتُ: «**مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ**[(٤)]»، **فليس كل من اتَّبع هواه**

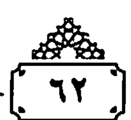
---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب «في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه»، رقم (٣٧٠١)، وأحمد(٥/ ٦٣) ـ واللفظ له ـ.
وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٣/ ١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٢).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». «المستدرك» (٢/ ٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «قوله ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: «ترجئ: تؤخر، أرجئه أخره»»، رقم (٤٧٨٨)، ومسلم، كتاب الرضاع، رقم (١٤٦٤).

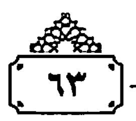
(٤) هو بفتح الهمزة، من أرى، ومعناه: يُخفِّف عنك ويُوسِّع عليك في الأمور، ولهذا خَيَّرَك. شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٠/ ٥٠).

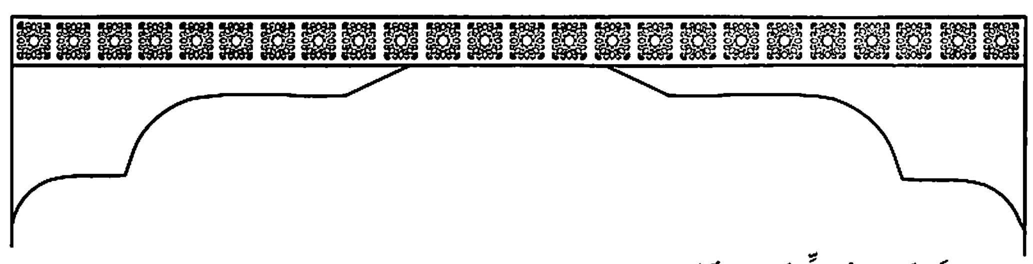


فقد عَبَدَهُ كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

والآية التي استدل بها **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] ليست دليلًا له، بل ضدُّ ما استدل به، فلم يقل سبحانه «أفرأيت من هوي إلاهًا»، وليس في الآية أن من هوي شيئًا عبده، وإنما فيها أن من عبد الشيء فقد هواه، فمن عبد صنمًا فقد مال مع هواه.







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا تأملتَ عرفتَ أن عابد الصَّنَم لم يعبده إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتَّبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبَّر عنها بـ«الهوى»».

الشَّرْح

○ قوله: «**وإذا تأملتَ**» أي: تأملت ما تقدَّم من ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن من اتَّبع هواه فقد اتخذه معبودًا، وتبيَّن فيما تقدَّم أن **الصواب** في المعنى: أن من عبد شيئًا فقد هواه.

○ قوله: «**عرفتَ أن عابد الصَّنَم لم يعبده إنما عبد هواه**» هذا جواب «**إذا**» المُتقدِّمَة، والمعنى: أنَّ عابد الصَّنَم ما عَبَدَهُ إلا لأنه يهواه فهو داخل في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٣] فصار مُشرِكًا؛ لأنه عبد ما يهواه وهو الصَّنَم.

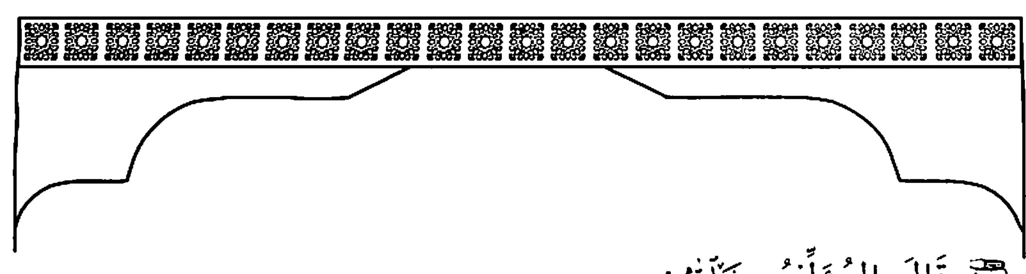
○ قوله: «**وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتَّبع ذلك الميل**» أي: فَلَمَّا مال وهوى دين آبائه صار مُشرِكًا بهذا الميل لأنه يَعَبَدَ ما يهواه.

○ قوله: «**وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يُعبَّر عنها بـ«الهوى»**» فإذا مال الإنسان إلى مألوفاته فقد هويها، وهذا فيه تفصيل، فإذا هوى العبد أمرًا مباحًا ثم اتَّبع هواه في ذلك فلا حرج عليه كمن أَلِفَ نوعًا من الطعام مما أحلَّهُ الله، وكمن هوى جمع المال فاتَّبع هواه ولم يشغله عن طاعة الله، أما الهوى الذي يصدُّ عن

الحقِّ وسبيل الله فهذا هو المذموم، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ: ٢٦].

وبهذا يتبيَّن أن هذه الإطلاقات للمؤلف رحمه الله في هذه الأمور العظيمة ينبغي تقييدها.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ويُخْرِجُ عن هذا التَّوحيد: السُّخط على الخلق، والالتفات إليهم، فإن من يرى الكلَّ من الله كيف يسخط على خلقه أو يأمل سِوَاهُ؟!، وهذا التَّوحيد مقام الصِّدِّيقِينَ.

الشَّرْح

إلى هنا انتهى نقل **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ من كتاب «إحياء علوم الدين» **للغزالي** رَحِمَهُ اللَّهُ.

○ قوله: **«ويُخْرِجُ عن هذا التَّوحيد: السُّخط على الخلق، والالتفات إليهم»** يعني: يُخْرِجُ عن هذا التَّوحيد الذي قَرَّرَهُ أمران:

الأول: السُّخط على الخلق.

الثاني: الالتفات إليهم.

وكون السُّخط على الخلق يُخْرِجُ عن التَّوحيد فيه إطلاق في القول وإجمال؛ فالسُّخط على الخلق منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، والمحمود منه الواجب والمستحب، والمذموم منه المكروه والمُحرَّم، ومن السُّخط على الخلق ما يُنافِي كمال التَّوحيد الواجب ومنه ما ينافي كماله المستحب.

السُّخط على الخلق جميعًا بما فيهم الأنبياء الصالحين كفر وضلال؛ إذ معناه كُرْهُ دينهم، ومَنْ كَرِه الدين فقد كفر وحبط عمله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمَّد: ٩].

والسُّخط على العصاة والكفار وبغضُهُمْ لكونهم عصوا الله من التَّوحيد، وموافقة لله تعالى؛ لأنه يغضب على الكفار، قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: ٦]، فلا يُخْرِجُ ذلك من التوحيد بل هو منه.

فإذا تُرِكَ السُّخطُ على بعض الخلق فستنتشر المُنْكرات والبِدع لعدم إنكارها وتغييرها.

والسُّخط على بعض الناس لأنهم لم يقوموا بخدمته لكونه له حقٌّ عليهم من الخطأ وليس من نواقض التَّوحيد، ولا يَخْرُجُ بهذا عن التَّوحيد،كمن سَخِطَ على ابنه إذ لم يعمل له أمرًا دُنيويًّا فهذا مباح ولا يُخْرِجُ عن التَّوحيد.

وقد يكون السُّخط على بعض الناس يُنافِي كمال التَّوحيد المستحب، مثل :كونك تسخط على جارك أو قريبك لأنه لم يخدمك؛ فتركه **أولى وأفضل**، وهو من كمال التَّوحيد.

فهذا الإطلاق من المؤلف رحمه الله **ليس بسديد ولا بجيد**؛ فليس كل سخط على الخلق يُخْرِجُ عن التَّوحيد، بل منه ما يُخْرِجُ عن التَّوحيد، ومنه : ما يُخْرِجُ عن كماله الواجب أو كماله المستحب، ومنه: ما يكون مباحًا، ومنه: ما يكون من التَّوحيد.

وقول المؤلف رحمه الله إن الالتفات إلى الخلق يُخْرِجُ عن التَّوحيد فيه تفصيل:

الالتفات إلى الخلق بالاعتماد عليهم والركون إليهم من دون الله: شرك في الربوبية.

ونفي الأسباب وتركها قدح في العقل؛ لأن الله فطر الأسباب بالمسببات، وفطر الخلق على فعل الأسباب، فيأكل الإنسان ويشرب

ويتزوج، ويبيع ويشتري كل هذا أخذًا بالأسباب، فالأكل والشرب من أسباب بقاء الحياة، والزواج سبب في الولد، فالأسباب لابُدَّ من فعلها، وتركها قدح في العقل.

ومن الأسباب: العمل الصالح؛ فقد جعله الله سببًا في دخول الجنة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

والأسباب منها: أسباب مُحرَّمة، وأسباب مُباحة.

والمُسبِّب هو الله تعالى، وقد تنفع الأسباب وقد لا تنفع، فإن أراد الله أن تنفع نفعت، وإن أراد الله أن لا تنفع فلن تنفع.

والأسباب لها ثلاث حالات:

الحالة الأولى: الركون إلى الأسباب والاعتماد عليها، وهذا شرك في الربوبية.

الحالة الثانية: ترك الأسباب بالكلية، وهذا قدح في العقل.

الحالة الثالثة: فعل الأسباب لكون الله تعالى جعلها أسبابًا وأمرِ بفعلها، دون الركون إليها والاعتماد عليها، وهذا هو التَّوحيد.

الواجب على المسلم: أن يفعل الأسباب على أن الله جعلها أسبابًا، ولا يركن إليها، ولا يعتمد عليها، وإنما يعتمد على المُسبِّب وهو الله ﷻ، وذلك هو التَّوكل كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

والتَّوكل يجمع أمرين:

الأمر الأول: فعل الأسباب التي أمر الله بها.

الأمر الثاني: تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه في حصول النتيجة.

وبهذا يتبيَّن أن عبارة **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ «**ويُخْرِجُ عن هذا التَّوحيد: السُّخط على الخلق، والالتفات إليهم**» فيها تفصيل.

○ قوله: «**فإن من يرى الكلَّ من الله كيف يسخط على خلقه؟!**» وظاهر قوله: «**فإن من يرى الكلَّ من الله**»: أن المراد الخير والشرُّ، فالمعنى: فإن من يرى الخير والشرَّ من الله كيف يسخط على غيره؟!، والمراد: من يرى الخير والشرَّ من الله خلقًا وإيجادًا، وإلَّا فالشرُّ لا يُضاف إلى الله تعالى، فالشرُّ لا يدخل في أسمائه ولا صفاته، وإنما يدخل في مفعولاته كما في «صحيح مسلم»[1] عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كان يقول في افتتاح الصلاة: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»، فإن الشرَّ المحض الذي لا حكمة لإيجاده وتقديره لا يوجد.

فإن الله تعالى لا يخلق الله شرًّا محضًا، لا حكمة في إيجاده وتقديره، وقضائه، فكل شيء خلق لحكمة، فالله حكيم في أقواله وأفعاله وخلقه وقدره وقضاءه، يخلق لحكمة، ويأمر لحكمة، وينهى لحكمة، ويقدر لحكمة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»، فالشر لا يدخل في أسماء الله وصفاته، ولا مفعولاته، ولا أفعاله، لكنه في مخلوقاته، والله تعالى لا يخلق شرًّا محضًا لا حكمة في إيجاده وتقديره.

ولابُدَّ من الإيمان بأن الخير والشرَّ مخلوقان لله، خلافًا **للقدرية** الذين يقولون إن أفعال العباد غير مخلوقة لله، وزعموا أن العبد يُحدِثها أو يخلقها دون الله[2]، وهذا باطل؛ بل إنه تعالى خلق الخير

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافر وقصرها، رقم (٧٧١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٠٦، ٤٠٧).

والشرَّ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الخير والشرُّ من عند الله، قال: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: ٧٨].

والشرُّ لا يُضاف إلى الله، **إضافة الشرِّ تأتي على ثلاث أحوال:**

الأول: أنه يدخل في عموم المخلوقات؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزُّمَر: ٦٢].

الثاني: أن يُضاف الشرُّ إلى فاعله؛ كقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفَلَق: ٢]، ولا يُضاف إلى الله.

الثالث: أن يُحذف فاعله؛ كقول الله تعالى عن الجنِّ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجنّ: ١٠]، فـ﴿أُرِيدَ﴾ هنا مبني للمجهول، ولما جاء الخير قال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ: ١٠] فأضاف الخير إلى الله، والشرَّ إليهم.

- المؤمن يرى الكلَّ من الله، ويعتقد أن الخير والشرَّ منه سبحانه، ويسخط على الخلق في الأمور التي شرع الله أن يسخط عليهم فيها، ولا يسخط عليهم إذا دلت النصوص على عدم السُّخط، فالمسألة فيها تفصيل كما تقدَّم.

○ قوله: «**أو يأمل سِوَاهُ؟!**» يعني: يرجو سِوَاهُ، وهذا فيه تفصيل؛ فلا بأس أن يأمل العبد ويرجو الخلق فيما يقدِرون عليه من الأمور، كأن ترجوه أن يُعِينك في أمر مباح أو مشروع، فلا بأس في الطلب من المخلوق فيما يقدر عليه.

أما رجاء السرِّ والعبادة كأن يرجو ميتًا ينصره على عدوه، أو ليدخله الجنة، أو لينقذه من عذاب النار فهذا شرك، أما رجاء الحيِّ

الحاضر القادر فلا بأس.

رجاء الخلق والأمل منهم فيه تفصيل فقد يكون شركًا، وقد يكون مشروعًا، وقد يكون مباحًا، فالأحوال ثلاثة:

الحالة الأولى: رجاء شرك، كأن يرجو الميت رجاء السرِّ، ورجاء السرِّ أن يرجو الميت بسرِّهِ كأن يرجو ميتًا لينصره على عدوه بسرِّه لا بأسباب ظاهرة.

الحالة الثانية: رجاء مشروع، كأن ترجو أخاك أن يُعِينك في إنكار المنكر، أو في الدعوة إلى الله.

الحالة الثالثة: رجاء مباح، كأن ترجو الحيَّ الحاضر في أمر يقدر عليه، كأن ترجو أخاك أن يُعِينك في تربية ولدك وتعليمه.

وبهذا يتبيَّن أن قول المؤلف ﷺ بحاجة إلى تقييد، فعباراته مُطلقة، وكان الواجب التقييد.

○ قوله: «**وهذا التَّوحيد مقام الصِّدِّيقِينَ**» التَّوحيد الأول توحيد عامة الناس، وهو اعتقاد القلب وتصديقه وقول اللسان، وهو التَّوحيد الذي جاء به الرُّسُل، وتقدَّم أن توحيد الصِّدِّيقِينَ يرجع إلى التَّوحيد الذي هو عقيدة القلب وقول اللسان، وبهذا يتبيَّن أنه ليس هناك توحيد للعامة ولا للخاصة، فالتوحيد الذي سَمَّاه المؤلف ﷺ توحيد الخاصة يرجع إلى التَّوحيد الثاني الذي سَمَّاه توحيد العامة، وبه يتبيَّن غلطه ﷺ في هذه التقسيمات والتفصيلات.

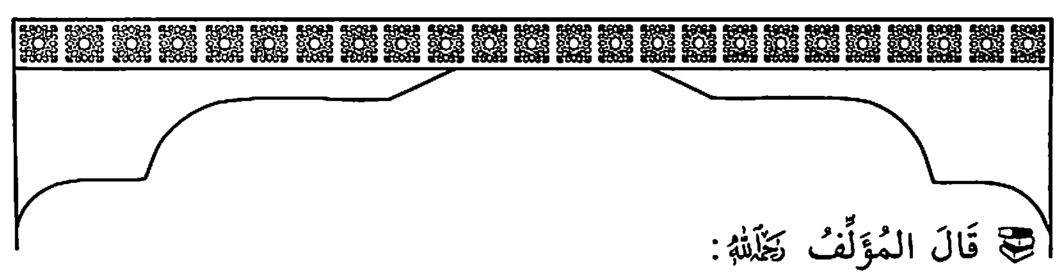
فالتوحيد واحد، وهو توحيد الأنبياء والمرسلين، وذلك لمن نطق بالشهادتين، وأقرَّ وصَدَّقَ واعتقد بقلبه، وعمل بجوارحه، لكن الناس يتفاوتون، فتوحيد الأنبياء والمرسلين أفضل من توحيد الصِّدِّيقِينَ، وتوحيد الصِّدِّيقِينَ أفضل من توحيد الشهداء، وتوحيد

الشهداء أفضل من توحيد عامة الناس، ويتفاوتون في هذا تفاوتًا لا يُحصيه إلا الله بحسب ما يقوم في قلوبهم من الإخلاص والصِّدق والمحبة والرغبة، وكلهم مُوحِّدُون، فلا يُقال «توحيد العامة» و«توحيد الخاصة»؛ إذ التوحيد واحد، وهو الذي جاء به الأنبياء وأرسل الله به الرُّسُل ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فمن أفرد الله بالعبادة فهو مُوحِّد، والتفاوت بين العباد بحسب حقائق التَّوحيد ومقامات الإيمان، فليس إيمان وتوحيد الناس واحدًا، كما تقول **المرجئة** أن إيمان الفسَّاق كإيمان الأنبياء والمؤمنين(١)، وظنهم أن الإيمان الذى في القلب يكون تامًّا بدون العمل الظاهر(٢)، وهذا من أبطل الباطل، وهو مناقض لِمَا دلَّت عليه النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



(١) «العقيدة الأصفهانية» لابن تيمية (ص ١٧٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ٣٦٤).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولا ريب أن توحيد الربوبية لم يُنْكِره المشركون، بل أقرُّوا بأنه سبحانه وحْدَهُ خالقهم، وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كُلِّهِ، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة، كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فَلَمَّا سووا غيره به في هذا التَّوحيد كانوا مشركين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: ١] أي: يُسوون غيره به، وقال الله تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: ١٥٠]».

الشَّرْح

هذا البحث نقله المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من «مجموع الفتاوى»[1] لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ و«مدارج السالكين»[2] للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

وفي هذا البحث: التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وأن توحيد الربوبية توحيد فطري أقرَّ به المشركون، ولم يُنْكِره أحد إلا من شَذَّ، وأما توحيد الألوهية فهو الذي فيه الخصومة بين الرُّسُل وأممهم.

ولابُدَّ للمسلم ـ ولاسيما طالب العلم ـ أن يُفرِّق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ حتى لايقع فيما وقع فيه **الصوفية وأهل**

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٠، ٥١).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٩ - ٢١).

البدع وأهل الكلام من عدم التفريق بين التَّوحيدين، والله تعالى ورسولُه عليه الصلاة والسلام فَرَّقَا بينهما، فلابُدَّ من التفريق بين الأمور المختلفة والجمع بين الأمور المتَّفِقة، ومن فَرَّقَ بين الأمور المتَّفِقة وجمع بين الأمور المختلفة فقد ضلَّ.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ قَسَّمَ التَّوحيد إلى قسمين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

وأقسام التَّوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الألوهية.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وهذا التقسيم هو المعروف عند أهل العلم، واعتمده **المتأخِّرُون**، ودليله الاستقراء والتتبع للنصوص، ومن يستقرئ النصوص يجد أن التَّوحيد لا يتجاوز هذه الأقسام الثلاثة، كما أن شروط الصلاة تسعة؛ باستقراء العلماء للنصوص، وكما أن فروض الوضوء ستة، وكما أن محظورات الإحرام في الحج تسعة.

۞ شبهة:

قال بعض أهل البدع والمشركين كيف تُقسِّمُون التَّوحيد ثلاثة أقسام وهو لم يأتِ في الكتاب ولا في السنة؟!، **وقالوا**: إن القول بأن التَّوحيد ثلاثة أقسام تثليث كتثليث النصارى الذي قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]

والجواب: أنه لاشكَّ أن هؤلاء ضالُّون مُنحرِفون، فتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات مأخوذ من النصوص.

توحيد الربوبية:

مضاف إلى الرَّبِ، وهو توحيد الله بأفعاله كالخلق والرزق والإماتة والإحياء وغيرها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فتُؤمِن بأن الله هو الخالق، الرازق، المُدبِّر، المحيي، المميت، بمعنى: أنك تُوحِّد الله بأفعاله هو فتضيفها وتنسبها إليه، وتعتقد أن الله هو الفاعل وحده لا شريك له، وأن الله هو الرَّب وغيره مربوب، وتؤمن بأنه الخالق وغيره مخلوق، وبأنه المالك وغيره مملوك، وبأنه المُدبِّر وغيره مُدبَّر، وهكذا بقية الأفعال تعود إلى هذا، فلابُدَّ من الإيمان بهذه الأفعال الأربعة، الخلقِ والرَّبِ والمُلْك والتدبير.

وتوحيد الربوبية لم يُنْكِره المشركون بل آمنوا وأقرُّوا به، ووحَّدوا الله فيه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [العنكبوت: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف: ٨٧]، حتى الحيوانات العجماوات فُطِرت على هذا، فإذا أصابها الضيم رفعت رأسها إلى السماء.

ومشركو العرب أكثرهم وقع في شرك الألوهية، **وبعضهم** أشرك في الربوبية فكان يظن أن روح الميت تخرج وتطير، **وبعضهم** أنكر البعث، **وبعضهم** أنكروا اسم الرحمن من أسماء الله تعالى، وفي «صحيح البخاري»(١) عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ ﵄ في صلح

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب «الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط»، رقم (٢٧٣٤).

الحديبية، وفيه: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: «هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا»، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، **قَالَ سُهَيْلٌ: «أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ «بِاسْمِكَ اللهم» كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ»**، فإنكارهم للربوبية أو للأسماء والصفات قِلَّة، لكن يوجد، وأكثر شركهم في الالوهية والعبادة.

وتوحيد الربوبية مبنيٌّ على أنك تُضيف أفعال الله إليه وتنفِيها عن غيره، فهو مبنيٌّ على هذين الأمرين: إثبات أفعال الرَّب ﷻ، ونفيِها عن غيره.

وهذا التَّوحيد لا يكفي في الدخول في الإسلام، بل لابُدَّ من توحيد الله في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته، فيجب الإتيان بأنواع التَّوحيد الثلاثة متلازمة، ومن لم يؤمن بواحد منها فليس مُوحِّدًا.

وتوحيد الربوبية فطريٌّ، لكن هناك من البشر من شَذَّ، فاستبعدوا المعاد، وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا، وقالوا: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون: ٣٦] أي: بعيد هذا الوعد ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧] أي: يموت قوم ويحيى آخرون، وهذا هو اعتقاد **الدهرية**[1]، **وكما يقول بعض الجهلة من الزنادقة**: «أرحام تدفع وأرض تبلع»[2]، وقال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(١) انظر: «معارج القبول» لحافظ الحكمي (٢/ ٧٧٦).
(٢) «البداية والنهاية» (١/ ١٢٥).

وكذا **الطبائعيون** الذين يقولون أن الطبيعة هي التي أوجدت البشر، ويُفسِّرونها بتفسيرين:

الأول: الطبيعة ذات الأشياء، فيقولون: ذات الأرض خلقت الأرض، وذات السماء خلقت السماء، وذات الجبال خلقت الجبال.

الثاني: يُفسِّرون الطبيعة بصفات الأشياء وخصائصها من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والملاسة والخشونة، والمتقابلات من نمو واغتذاء وتزاوج وتوالد، فهذه الصفات هي الطبيعية وهي التي أوجدت الأشياء[1].

وهذا باطل عقلًا وحسًّا؛ لا يمكن ذات الشيء تُوجِد الشيء، وإذا عجزت ذات الأشياء أن تُوجِد نفسها فعجز ذاتها من باب أولى.

وقد ردَّ الله عليهم، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، أي: أَوجِدُوا من غير مُوجِد أم هم أَوجَدُوا أنفسهم؟، أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، وفي «الصحيحين»[2] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] قَالَ: «**كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ**»، ومال رضي الله عنه إلى الإسلام، ليس مثلنا نقرأ

---

(١) انظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص ٥٦)، «الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» لأبي الحسين العمراني (١/ ٢٤٥)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «قوله ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]»، رقم (٤٨٥٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤٦٣).

وقلوبنا غافلة لاهية.

فلا يمكن أن يكون الإنسان موجودًا بدون مُوجِد، ومستحيل أن يُوجِد الإنسان نفسه؛ لأنه كان عدمًا قبل أن يُوجَد، والعدم ليس بشيء، فلابُدَّ أن يكون له مُوجِد أوجده وهو الله ﷻ، فهو واجد الوجود لذاته، ولم يُوجِده أحد، وليس له فرع ولا أصل، فليس له ولد ولا والد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وهو سبحانه الموصوف بأنه «الأول» الذي ليس قبله شيء، فليس لأولتيه بداية، وهو «الآخر» الذي ليس بعده شيء، فليس لآخرتيه نهاية، وهو «الظاهر» الذي ليس فوقه شيء، وهو «الباطن» الذي ليس دونه شيء، ولا يحجبه شيء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، وقد فَصَّلَ النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة التي من أسماء الله تعالى كما في «صحيح مسلم»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا مَضْجَعَنَا أَنْ نَقُولَ: **«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهم أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»**.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٧١٣).

توحيد الأسماء والصفات:

الإيمان بما سَمَّى أو وصف الله به نفسه أو رسوله ﷺ، وهو أيضًا توحيد فطريٌّ.

سَمَّى الله تعالى نفسه الرحمن الرحيم الملك العزيز، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣]، فهذه أسماء سَمَّى الله بها نفسه ولا بُدَّ من الإيمان بها.

وأسماء الله مُشتقَّة مشتملة على معان وصفات، فـ«الله» مشتمل على صفة الألوهية، و«الرحيم» مشتمل على صفة الرحمة، و«العليم» مشتمل على صفة العلم، و«العظيم» مشتمل على صفة العظمة، وهكذا في جميع الأسماء.

و«الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله، وفيهما: إثبات اسم «الغفور»و«الرحيم»، وأسماء الله مشتقة، فكل اسم مشتمل على صفة، فـ«الغفور» مشتمل على صفة المغفرة، و«الرحيم» مشتمل على صفة الرحمة، فنثبت من هذا: اسمان لله وصفتان، اسم الله «الغفور» واسم الله «الرحيم»، وصفة المغفرة وصفة الرحمة، فخرج لنا أربع، اسمان وصفتان.

ووصف الله تعالى نفسه بالاستواء فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وبالرضا فقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وبالغضب فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤]، وبصفة الكُره فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ

أَنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وبالمقت فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، وهكذا.

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأحد المُتوحِّد بذاته وأسمائه وصفاته، فليس له مثيل ولا نظير، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢] الذي تصمد إليه الخلائق لحوائجها، فهو صمد في نفسه، قائم بنفسه، مُقِيم لغيره تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ليس له مثيل، وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ**»، **فَأَنْزَلَ اللهُ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ١-٣][(١)]، وهي تعدل ثلث القرآن كما في «صحيح البخاري»[(٢)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟**»، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: «أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟!»، فَقَالَ: «**اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ**».

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الإخلاص»، رقم (٣٣٦٤)، وأحمد (٥/ ١٣٣).
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٢/ ٥٨٩).
وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن أبي العالية مرسلًا، **وقال**: «وهذا أصح».
وقال ابن حجر: «وصحَّح الموصول ابن خزيمة والحاكم، وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى والطبري والطبراني في «الأوسط»». «فتح الباري» (٨/ ٧٣٩).
وأخرجه أبو يعلى في «المسند» رقم (٢٠٤٤) من حديث جابر بن عبدالله أن أعرابيًا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أنسب الله»، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها.
قال ابن كثير: «إسناده مقارب». «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٦٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب «فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»، رقم (٥٠١٥).
وأخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم(٨١١) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأسماء والصفات توقيفية، أي: يُوقف فيها عند النصوص، فما ورد إثباته لله من الأسماء والصفات في نصوص الكتاب والسنة نُثْبِته، وما لم يرد فيها لا نُثْبِته.

«المَكْرُ» لا يُطلق على الله، فلا يُقال: من صفات الله «المَكْرُ»؛ لأنها صفة ذم، لكن يكون المَكْرُ مدحًا في مقابلة مكر الماكِر، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، فإذا جاءت على صفة الفعل تبقى على صفته، وإذا جاءت مضافةً تُضاف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ولا يُشتق منها اسم، ولا يُقال: «اسم الله الماكِر»، ولا «الكايد» ولا «المخادِع».

❁ **تنبيه:**

يكثر بين بعض الناس إذا عقدوا تجارة بينهم أن يقول بعضهم لبعض: «خان الله لمن يخون»؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] وهذا لا يجوز، فلا يُوصف الله بالخيانة؛ هذا وصف ذم، يُقال: «إن الله ليمكر بالماكرين» وهذا من الكمال في مقابلة مكر الماكر، وكذا «يكيد للكائدين»، ولا يُقال من أسماء الله الماكر والكائد؛ لأن أصل المكر والكيد مذموم، أما الخيانة فكلها مذمومة ولا يُنسب إلى الله إلى شيء مذموم، أما قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ فالضمير لا يعود على لله، بل على الرسول ﷺ، فلا يُقال «خان الله لمن يخون»، لكن ينبغي على الإنسان إذا أراد أن يبيع أو يشتري يقول قبل أن يعقد الصفقة: «يا أخي لا تغشني، لا تخُنِّي، أخبرني عن عيوب السلعة»، أما أن يعقد الصفقة ويقول «خان الله لمن يخون» فهذا باطل ـ نسأل الله العافية ـ.

وتوحيد الأسماء والصفات مبنيٌّ على ثلاثة أصول:

الأول: إثبات الأسماء والصفات.

الثاني: نفيها عن غير الله.

الثالث: قطع الطمع عن معرفة الكيفية، وتفويض علم الكيفية إلى الله ﷻ، فكيفية الأسماء والصفات لا يعلمها إلا هو ﷻ.

يقول **أهل السنة والجماعة**: معنى الصفة معلوم، والكيفية المجهولة، كما **قال الإمام مالك** رحمه الله لما سُئِلَ عن الاستواء **قال**: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[١]، والاستواء له في اللغة العربية أربع معاني، استقرَ وعلا وصعد وارتفع، وكيفية استواء العبد معلوم، أما كيفية استواء الله مجهول، ولو سقط الكرسي لسقط الجالس عليه، لكن ربَّ العالمين استوى على العرش لا لحاجته إليه، ولهذا **المُشبِّه يقولون**: إن استواء الرَّب على العرش كاستواء الإنسان على الدابة، فكما أن الدابة سقطت سقط راكبها فقياس ذلك لو سقط العرش لسقط الرَّب، **فالمُشبِّهة** كفرة، أما **أهل السنة والجماعة** فيقولون: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والله تعالى استوى على العرش لا لحاجته إليه، وهو الحامل للعرش ولحملته بقوته وقدرته، فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ونفي الكيفية المراد بها العلم، يعني: نفي علم الكيفية، وإلا فالله تعالى له كيفية يعلمها هو سبحانه، ولا يعلمها العباد، لذلك

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٥-٣٢٦)، و«عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص ١٧)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٤٠٨)، وصححه الذهبي في «العلو» (ص ١٠٣) وقال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٤٠٧): إسناده جيد.

نقول: «قطع الطمع عن إدراك الكيفية».

والذي يقول: «نُفوِّض حقيقة الصفة» نقول له: «ما مرادك بالحقيقة؟»، إن كنت تُريد المعنى فليس بصحيح، فلا نُفوِّضْ؛ فالمعنى معلوم، وإن كان مرادك الكيفية فنعم، لكن نقول الكيفية كما قال **أهل السنة والجماعة**.



توحيد الألوهية:

توحيد الله بأفعال العباد التي يُتقرَّب بها إليه من الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والذبح، والنذر، والخوف، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والخشوع، والإخبات، والإنابة، وغير ذلك.

ومعنى توحيد الله بها: أن تصرِفها لله وتتقرَّب إليه بها دون غيره، فلا يكون فيها إرادة لغير الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فسمَّاه الله كافرًا.

وتوحيد الألوهية ليس فطريًا وإن كان الله تعالى قد فطر عباده على محبة الله وعبادته، وإذا تُرِكَ الإنسان من غير مُؤثِّرات خارجية

لَمَالَ إلى التَّوحيد، لكن الشياطين اجتالتهم،وفي «صحيح مسلم»[1] عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: «**كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**[2]**، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا،...**»، فَاجْتَالَتْهُمْ الشياطين فعدلوا عن الفطرة وانحرفوا عنها، ووقعت الخصومة بينهم وبين الرُّسُل والأنبياء، ولو كان فطريًا ما أنكره المشركون، ولم تقع فيه الخصومة، بل الحروب والقتال والجهاد في سبيل الله شُرِعَ من أجل إثبات توحيد الألوهية، فالفطري الذي ليس فيه خلاف ولا يُنازع فيه أحد، هو توحيد الربوبية، والرسول ﷺ ما نازعهم في توحيد الربوبية.

وتوحيد الألوهية مبنيٌّ على أصلين:

الأول: نفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى.

الثاني: إثبات جميع أنواع العبادة لله تعالى.

وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»؛ فإن معناها لا معبود حق إلا الله، وهي كلمة التَّوحيد، وهي كلمة التقوى التي تَقِي قائلها من الشرك، وهي الكلمة العظيمة التي يدخل بها العبد الإسلام، وهي

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٦٥).

(٢) **قال النووي:** «أي: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل كذا فسره **الهروي وآخرون، وقال شمر:** اجتال الرجل الشيء ذهب به، واجتال أموالهم ساقها وذهب بها، شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٧/ ١٩٧).

آخر ما يخرج به من الدنيا، وهي التي لأجلها خلق الله الخليقة، وأرسل الله الرُّسُل، وأنزل الكُتُب، ولأجلها خُلِقَت الجنة والنار، ولأجلها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ولأجلها حُقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وقامت القيامة.

وهي مشتملة على ركنين: نفي جميع أنواع العبادة عن غير الله، وإثبات جميع أنواع العبادة لله، ففيها كفر وإيمان، كفر بالطاغوت وإيمان بالله، ومعنى الكفر بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتبغض أهلها، وتُكفِّرهم وتُعادِيهم، لا بُدَّ من الكفر بالطاغوت فتتخلى عنهم ثم بعد ذلك تتحلى بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

هذه كلمة الإسلام، فمن قالها حُكِمَ بإسلامه، فإن قالها بلسانه مُصدِّقًا بها بقلبه ويعتقد معناها فهذا هو المؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإن قالها بلسانه مُكذِّبًا بها في الباطن فهو المنافق، في الدرك الأسفل من النار نعوذ بالله، لكنه يُعامل معاملة المسلمين؛ لنطقه بالشهادتين، فيرِث ويُورث، ويُصلَّى عليه، ويُدفن في مقابر المسلمين، إلَّا إن ظهر منه ما يُوجب الرِّدة فيُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِلَ.

وأفضل الكلام كلام الله، ثم كلمة التَّوحيد «لا إله إلا الله»، ثم الكلمات الأربع «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، روى مسلم في «صحيحه»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَأَنْ أَقُولَ «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ» أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»**.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٦٩٥).

لكن هذه الكلمة لا تنفع قائلها عند الله إلا إذا عَلِمَ معناها وعَمِلَ بمقتضاها، وابتعد عما يناقضها، ولهذا قَرَّرَ العلماء وبَيَّنُوا شروط هذه الكلمة، وشروطها دلَّتْ عليها النصوص.

الشرط الأول: العلم المُنَافِي للجهل، كيف يتكلَّم العبد بهذه الكلمة وهو لا يعرف معناها؟!، فتعلم معنى هذه الكلمة، ومعناها: أنها مشتملة على نفي وإثبات، النفي في قولك «لا إله»، والإثبات في قولك «إلا الله»، والنفي المراد به: نفي جميع ما يُعبد من دون الله، وهذا هو الكفر بالطاغوت، والإثبات في قولك «إلا الله»، إثبات الألوهية لله ﷻ.

الشرط الثاني: اليقين المُنافِي للشكِّ والريبة، يقول العبد «لا إله إلا الله» بيقين ليس عنده شكٌّ ولا تردد، فإن شكَّ وتردد فهو منافق، بعض المنافقين عنده شكٌّ وريب، وبعض المنافقين مُكذِّب، وبعضهم مرة يُصدِّق ومرة يُكذِّب، فيخبو الإيمان مرة ويظهر مرة، ولهذا ضرب الله لهم مثلًا ناريًّا ومثل مائيًّا، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧-١٩]، فلا بُدَّ من اليقين في قول هذه الكلمة، فيتيقَّن أن الله هو المعبود الحقُّ، وأن كل معبود سواه فهو معبود بالباطل كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

الشرط الثالث: الإخلاص المُنافِي للشرك، لا بُدَّ أن يقولها عن إخلاص بحيث لا يقع في عمله شرك ولا ناقض من نواقض

الإسلام، فإن وقع في قوله شرك قولي أو اعتقادي أو عملي بطلت هذه الكلمة، كمن سبَّ اللهَ أو رسولَه عليه الصلاة والسلام، أو دينَ الإسلام، أو استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه، أو أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة وجوبه كأن يُنْكِر وجوب الصلاة أو الزكاة أو الحج أو الصوم أو برَّ الوالدين، أو يُنْكِر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة تحريمه كأن يُنكِر تحريم الزنا أو الربا أو الخمر أو الرشوة أو عقوق الوالدين أو قطيعة الرحم أو قتل النفس بغير حقٍّ فيكون مرتدًا بذلك فتَنْتقض هذه الكلمة، ويُزِيل الإخلاص.

الشرط الرابع: الصِّدق المانع من النِّفاق، بمعنى: أنه يقولها بلسانه ويُصدِّقها بقلبه، فاللسان ينطق، والقلب يُصدِّق، فإن قالها بلسانه وكَذَّبَ بها بقلبه أو شكَّ فلا تنفعه هذه الكلمة؛ لأنه ليس عنده صدق، بل قالها عن كذب كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨]، فأثبت لهم الإيمان باللسان ونفى عنهم الإيمان بالقلب، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١] فهم يشهدون بألسنتهم وقلوبهم مُكذِّبة.

الشرط الخامس: المحبَّة لها المُنَافِية للبُغض، فيُحبُّ هذه الكلمة وأهلها فلا يبغضنهم، بل يُواليهم وينصرهم ويُؤيِّدهم.

الشرط السادس: الانقياد المُنَافِي لضده، فيقول «لا إله إلا الله» بلسانه، وينقاد قلبه للإتيان بحقوقها، وهي الأعمال الواجبة طاعةً لله وابتغاء مرضاته.

وحقوق هذه الكلمة: أداءُ الواجبات كالصلاة، والصوم،

والزكاة، والحج، وبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، وتركُ المحرمات، وأعظمها وأغلظها الشرك، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحقِّ، والعدوان على الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، وترك التعامل بالرِّبا، وترك الرشوة، والزنا، والغيبة، والنميمة، فحقوق هذه الكلمة الانقياد لها، لذا **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «فلا بُدَّ في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لِمَا سواه، وهذا حقيقة قولنا «لا إله إلا الله»، فمن استسلم لله ولغيره فهو مُشرِك، والله لا يغفر أن يُشرَك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]»[١].

الشرط السابع: القبول الْمنافِي للترك، فقد يقولها بعض الناس، ولكن لا يُقبلها ممن دعاه إليها تعصُّبًا وتكبُّرًا.

وزاد **بعضهم شرطا ثامنا**: الكفر بما يُعبد من دون الله كما ثبت في «صحيح مسلم»[٢] عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»، وقد بَيَّنَ **الإمام المجدِّد محمد بن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث «**وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ**»في «كتاب التوحيد»[٣] «وهذا من أعظم ما يُبيِّن معنى «لا إله إلا الله»؛ فإنه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصِمًا للدَّم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لَفْظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٤٥٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٣).

(٣) «كتاب التوحيد» (ص ٢٦).

شريك له، بل لا يَحْرُمُ ماله ودمه حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكفْرَ بما يعْبُدُ من دون الله، فإن شَكَّ أو توقَّفَ لم يَحْرُمْ ماله ودمُه، فيالها من مسألة ما أعْظَمها وأجَلَّها؟!، وياله من بيانٍ ما أوْضَحَهُ؟!، وحجّةٍ ما أقطَعَهَا للمنازع؟!».

إذا لا بُدَّ أن يُضيف إلى ذلك الكفرَ بما يُعبد من دون الله، أي: البراءة من كل معبود سواه، بأن يعتقد بطلان عبادة غير الله، ويتركها، ويبغضها، ويُكفِّر أهلها، ويُعادِيهم، ولهذا من نواقض الإسلام: أن من لم يُكفِّر المشركين أو شكَّ في كفرهم أو صحَّح مذهبهم كفر **إجماعًا**[1]، فالذي يقول: «لا إله إلا الله» ويقول: «أنا لا أُكفِّر اليهود والنصارى؛ فهم على دين يمكن أن يكون حقًّا» فقد بطلت كلمة «لا إله إلا الله» عنده؛ إذ لم يكفر بالطاغوت.

ولا يلزم من كونك تُكفِّرهم وتُعادِيهم أن تقتلهم؛ لأن دماءهم وأموالهم معصومة، فالكفار على أقسام:

١/ قسم مُحارِب لنا كاليهود، فهؤلاء دماءهم وأموالهم حلال.

٢/ أهل الذمة ومن دخل في بلاد المسلمين له عهد، أو دخل في أمان أو دخل بكفالة أو مستأمن فدماءهم وأموالهم معصومة؛ في «صحيح البخاري»[2] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»، فتبغضهم وتُعادِيهم وتُكفِّرهم لكن تعاملهم معاملة حسنة، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١٠/ ٩١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب «إثم من قتل معاهدًا بغير جرم»، رقم (٣١٦٦).

يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨-٩]، وفي «الصحيحين»(١) عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُلْتُ: «وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟»، قَالَ: «**نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ**»، حتى الوالدان الكافران لا يحبهما المسلم محبة دينية، ولا يطيعهم في الشرك، لكن مع ذلك يُصاحِبهما في الدنيا معروفًا كما قال الله تعالى في الوالدين الكافرين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥]، فحتى لو كان والدك كافرًا تُصاحِبه، وتُحسِن إليه، وتُطعِمه وتسقيه، وتُنفِق عليه، وتتلطف معه، وتدعوه إلى الله، لكن لا تُحبُّه محبة دينية إذا كان على الكفر، ولا تُطعه في الشِّرك ولا المعصية.

وتوحيد الألوهية هو الذي أنكره المشركون، وهو الذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وأممهم في قديم الدهر وحديثه مِنْ لَدُنْ أوَّلهم نوح إلى آخرهم وخاتمهم نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الشِّرك وقع في قوم نوح عليه السلام، وأما قبل نوح فلم يقع الشِّرك، ولهذا أول رسول بُعِثَ للناس بعد وقوع الشِّرك نوح، وكان قبله نبي الله آدم، لكن لم يقع الشِّرك وإنما وقعت المعصية كما قتل قابيل أخاه هابيل.

ويحتج الله تعالى عليهم في إلزامهم بتوحيد الألوهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية، يعني: كما أنكم آمنتم ووحَّدتم الله في ربوبيته،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب «الهدية للمشركين، وقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾»، رقم (٢٦٢٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٠٣).

واعترفتم أن الله هو الخالق الرازق، وهو الذي خلق السموات والأرض، وهو المُدبِّر إذًا عليكم أن تعبدوه وحده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هذا أمر بتوحيد العبادة، واحتج عليهم بتوحيد الربوبية الذي يؤمنون به فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، وكذا احتجَّ عليهم في سورة «النمل» بتوحيد الربوبية المُقِرُّون به، فاحتج بما يُقِرُّون به على ما يُنْكِرُونه، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

ومن العلماء **كشيخ الإسلام ابن تيمية**[(١)] **وابن القيم**[(٢)] **رحمهما الله** من قَسَّمَ التَّوحيد إلى قسمين:

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات، فجعلوا توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات قسمًا واحدًا، **وقالوا:** هذا التوحيد هو

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/١٠٧).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/٤٤٩).

إثبات حقيقة ذات الرَّب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله،ويُسمَّى «التوحيد العلمي»، و«التوحيد الاعتقادي»، و«التوحيد القولي»، وهو توحيد واحد، دلَّت عليه سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، وآخر سورة «الحشر» ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وهو نوع واحد، وهذا هو الأصل، فالأصل أنهما نوع واحد يتعلَّق بالرَّب وذاته وأسمائه وصفاته، لكن لَمَّا كَثُرَ الجدل حول الأسماء والصفات وأُثير حوله من اختلاف فُصِلَ توحيد الأسماء والصفات وجعله **المتأخرون** قسمًا مستقلًا، وإلَّا فالأصل أنه نوع واحد.

الثاني: «توحيد في الطلب والإرادة والقصد»، يُسمَّى «توحيد الألوهية»، و«توحيدالعبادة»، و«التوحيد الإرادي»، و«التوحيد الطلبي»، و«التوحيد الفعلي».

وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] ومن جاء بعده قَسَّموه إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والمعنى واحد.

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٤٤٤)، (١/٥٠٨)،(٢/٦٧)، (١٢/ ٢٢).

وهذه الأقسام متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض، ولا يصح إيمان عبد ولا توحيده حتى يُوحِّد الله بهذه الأنواع الثلاثة كلها، ولا يكفي بعضها عن بعض، فمن وحَّد الله في الربوبية ولم يُوحِّده في الألوهية لم يصح إيمانه، ولهذا فإن المشركين وحَّدُوا الله في الربوبية ولم يُنْكِروه بل آمنوا وأقرُّوا به، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولكن لم يُوحِّدوا الله بالألوهية فأشركوا معه في العبادة، ولهذا كَفَّر النبي ﷺ كفار قريش واستحلَّ دماءهم وأموالهم وهم مُوحِّدُون لله في الربوبية؛ لأنهم لم يُوحِّدوا الله في الألوهية.

وكذلك أيضًا وحَّدوا الله في الأسماء والصفات، وهو توحيد فطريٌّ، فلم يُنْكِروا هذا، لكن وُجِدَ بعضهم أنكر اسم «الرحمن» كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ولكن قد وُجِدَ في أشعارهم إثبات اسم «الرحمن»، **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «والظاهر: أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بـ«الرحمن»، **قال ابن جرير**: وقد أنشد بعض الجاهلية الجهال:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندب الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشاء الرحمن يَعْقِد ويُطْلِق[1]

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٢)، وانظر: «تفسير الطبري» (١/ ٥٨).

والمشركون تتنوع عبادتهم، **منهم**: من يعبد الأشجار والأحجار، **ومنهم**: من يعبد الملائكة، **ومنهم**: من يعبد المسيح، **ومنهم**: من يعبد النجوم، **ومنهم**: من يعبد الشمس والقمر، وهؤلاء جميعًا كَفَّرَهم رسول الله ﷺ ، واستحلَّ دماءهم وأموالهم، ولم يُفرِّق بينهم.

وهذه الأقسام الثلاثة متلازمة، فتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فدلالات الألفاظ أقسام : دلالة التضمن، ودلالة الالتزام، ودلالة المطابقة.

❁ ودلالات الألفاظ ثلاثة أنواع:

١- دلالة التضمن، وهي: دلالة الشيء على بعض أو جزء معناه.

٢- دلالة الالتزام، وهي: دلالة الشيء على خارج معناه.

٣- دلالة المطابقة، وهي: دلالة الشيء على جميع معناه[(١)].

فمن وحد الله في ألوهيته ففي ضمن ذلك أنه وحد الله في ربوبيته، ودلالته على توحيد الربوبية والألوهية دلالة مطابقة.

أما دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية فهي دلالة التزام، يعني من أقر بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لزمه أن يوحده في ألوهيته، لكن ليس كل أحد يلتزم بما لزمه، ولهذا فإن الله ﷻ يحتج على كفار قريش بإقرارهم بتوحيد الربوبية ويُلزِمهم بتوحيده سبحانه في الألوهية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هذا أمر بتوحيد العبادة، واحتج عليهم بتوحيد الربوبية الذي يؤمنون به فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ

---

(١) انظر: الإحكام للآمدي (١/ ٣٦).

فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، وكذا احتجَّ عليهم في سورة «النمل» بتوحيد الربوبية المُقِرُّون به، فاحتج بما يُقِرُّون به على ما يُنْكِرُونه، قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

وهذا معنى قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ **«ولا ريب أن توحيد الربوبية لم يُنْكِره المشركون، بل أقرُّوا بأنه سبحانه وحْدَه خالقهم، وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كُلِّهِ، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة»** فأنكروا توحيد الإلهية، توحيد العبادة والمحبة، قال الله تعالى في سورة «ص»: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٤-٦]، يُوصِي بعضهم بعضًا بالصبر على الآلهة وهم يعترفون بأنها لا تخلق ولا تُدبِّر ولا تُحيي ولا تُمِيت لكنهم يعبدونها؛ يزعمون أنها تُقرِّبهم إلى الله وتشفع لهم عنده كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا

يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فالذي أنكره المشركون توحيد الإلهية والمحبة، والذي أقرُّوا به توحيد الربوبية.

○ قوله: «**كما قد حكى الله تعالى عنهم**» يعني: تكلَّم الله حكاية عنهم، وليس هذا من **مذهب الْكُلَّابِيَة والأشاعرة** في شيء، وإنما قولهم: أن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خُلِقَ ليدل على ذلك المعنى، ثم إما أن يكون خُلِقَ في بعض الأجسام الهواء أو غيره، أو ألهمه جبريل فعَبَّرَ عنه بالقرآن العربي، أو ألهمه محمد فعَبَّرَ عنه بالقرآن العربي، أو يكون جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو غيره(١)، فليس المراد هذا، بل المراد: تكلَّم الله حكاية عنهم، وهذه العبارة ترِد في كلام الأئمة **كشيخ الإسلام ابن تيمية(٢) وابن القيم(٣) رحمهما الله**.

○ قوله: «**كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** [البقرة: ١٦٥]» يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومالهم في الدار الآخرة حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه، ويحبونهم كحُبِّهِ، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضدَّ ولا ندَّ له، ولا شريك معه(٤).

وفي قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه يحبونهم كحُبِّ الذين آمنوا لله، هذا قول

---

(١) «مجموع الفتاوى»(١٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٤٤)، (٢٦/ ١٧٢).
(٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٣٩)، و«الجواب الكافي» (ص ١٤٩).
(٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٣).

ابن عباس، وعكرمة، وأبي العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

الثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أي: يُسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة، هذا اختيار **الزجاج**[1].

وهذه الآية فيها إثبات أنهم أشركوا في توحيد الألوهية والمحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥] يعني: محبة العبادة والتعظيم والذلّ والخضوع، وليست المراد المحبة الطبيعية، فالمحبة أقسام:

١- **محبة رحمة وإشفاق** كمحبة الوالد لولده.

٢- **ومحبة تقدير وإجلال** كمحبة الولد لوالده.

٣- **ومحبة طبيعية** كمحبة الجائع للطعام.

٤- **ومحبة أُنس وألف** كمحبة المشتركين في صناعة أو تجارة، وهذه ليس فيها شيء.

٥- **محبة عبادة وتعظيم وخضوع وذل وطاعة وانقياد** وهي محبة الله، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك، **ومن محبة لله** محبة الأنبياء والرُّسل والصالحين لأجل الله فهي تابعة لمحبته، ومحبة أهل الخير والصلاح والتُّقى لله لكونهم مستقيمين على طاعة الله، ومحبة ما يُحبه الله من شخص أو فعل أو حُكم، وتكره ما يكرهه الله من شخص أو فعل أو حُكم، والحب في الله والبغض في الله أوثق عُرى الإيمان، فتحب المستقيم على طاعة الله لاستقامته ولو كان أبعد الناس، وتُبغض العاصي ولو كان قريبًا.

والمحبة مع الله أن يحبَّ مع الله غيره، وهي محبة الأنداد

---

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ١٧٠).

لأندادهم، وهي المحبة الشِّركية.

وإذا قَدَّمَ شيئًا من الدنيا على محبة الله يكون عاصيًا، فمن قَدَّمَ مثلًا محبة الآباء أو الأبناء أو الأزواج أو الإخوان أو العشيرة أو الأموال أو التجارات أو المساكن على محبة الله يكون عاصيًا ومرتكبًا لكبيرة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]؛ فهذه هي محبة العبادة.

○ قوله: «**فَلَمَّا سووا غيره به في هذا التَّوحيد**» سووا غيره به في توحيد العبادة والمحبة، توحيدِ الألوهية والمحبة، سووا غيره به في الخضوع والذلِّ والطاعة «**كانوا مشركين**».

ولفظ العبودية يتضمن: كمال الذل وكمال الحب(١)، فإذا اجتمعا صارت عبادة، وإذا انفرد أحدهما لا تكون عبادة، فقد يحب الإنسان شخصًا لكن لا يخضع ولا يذل له فلا يكون عابدًا، وقد يخضع ويذل للظالم أو للسلطان لجبروته لكن لا يحبه فلا يكون عابدًا، فإذا اجتمع حب وذل فهذه هي العبادة، **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان

---

(١) «التحفة العراقية» (٤٤) (٦٣) (٧٠)، «العبودية» (ص ٤٨)، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥١) (١٠/ ٤٦٦) (١٨/ ١٦٤)، «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٣٣)، «مدارج السالكين» (١/ ١١٢) (٢/ ١٧٩) (٣/ ٤٠٩).

ومدار هذه المحبة والذل بالأمر **فقال**:

ومداره بالأمر أمر رسوله   لا بالهوى والنفس والشيطان
وعبادة الرحمن غاية حبه   مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر   ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله   لا بالهوى والنفس والشيطان[(١)]

يعني: امتثال الأمر، والأمر إما أمر بالفعل أو بالترك، فتؤدِّي الأوامر مع غاية الحب وغاية الذلِّ، تصلي لله مع غاية الحب وغاية الذلِّ، وتُؤدِّي الزكاة مع غاية الحب وغاية الذلِّ، وتترك الربا طاعة لله ورسوله مع غاية الحب وغاية الذلِّ، وهكذا.

○ قوله: «**كانوا مشركين**» أي: لَمَّا سووا آلهتهم في المحبة والتعظيم برب العالمين صاروا مشركين.

والشرك: هو تسوية غير الله بالله بما هو من خصائص الله، فالمُشرِك سوى غير الله بالله في المحبة والتعظيم لا بالخلق والرزق كما أخبر تعالى عنهم ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٨]، سووهم بالمحبة والتعظيم الذي هو توحيد الألوهية، والآيات التي قبلها تُبيِّن ذلك، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٠-٩٣]، ثم قال: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يعني: الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) «نونية ابن القيم» (ص٣٥).

[الشُّعَرَاء: ٩٧] أي: في خسران وتبار وحيرة عن الحقِّ بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يُعبد، وهذا معنى قوله ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٨] أي: في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم، ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٩] يعني: الشياطين الذين زيَّنُوا لنا عبادة الأصنام، **وقيل**: أسلافنا الذين قلَّدناهم[1].

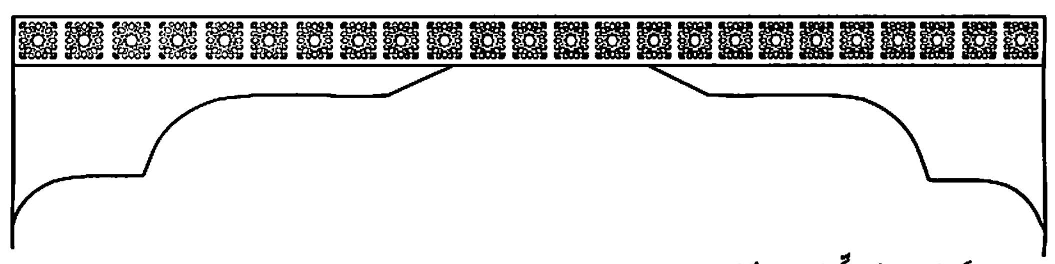
○ قوله: «**فَلَمَّا سووا غيره به في هذا التَّوحيد كانوا مشركين كما قال تعالى**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعَام: ١] **أي: يُسوون غيره به، وقال الله تعالى**: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٠]» يسوون غيره به في المحبة والتعظيم، فيجب العناية بالتَّوحيد.

تنبيه:

ما تسلكه بعض الجماعات من كونهم لا يهتمون بالتَّوحيد ويهتمون بالأعمال الخيرية - بزعمهم - هذا غلط عظيم، فالواجب العناية بالتَّوحيد؛ فهو أهم المُهِمَّات، وأفرض الفرائض، وأوجب الواجبات، فيجب العناية به قبل الأعمال الخيرية؛ لأنها مبنية عليه، وبدونه لا تنفع، فالمُشرِك لو عمل أعمالًا خيرية ولم يُوحِّد الله لم تنفعه، فإذا عَمِلَ أعمالًا خيرية يُطعم بها طعمة في الدنيا، ويُجازى بها صحة في بدنه، ووفرة في ماله، ويأتي في الآخرة ولا حسنة له، لكن المؤمن يُخلِف الله عليه في الدنيا ويعقبه خيرًا في الآخرة.



(١) «تفسير القرطبي» (١٣/١١٦).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وقد عَلَّمَ الله ﷻ عِبَادَهُ كيفية مباينة الشِّرك في توحيد الإلهية، وأنه تعالى حقيقٌ بإفراده وليًّا وحَكَمًا وربًّا، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فلا وليَّ ولا حكمَ ولا ربَّ إلَّا الله، الذي مَنْ عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وَحَّدَ ربوبيته».

الشَّرْح

○ قوله: «**وقد عَلَّمَ الله ﷻ عِبَادَهُ كيفية مباينة الشِّرك في توحيد الإلهية**» أي: أن الله تعالى عَلَّمَ عباده كيف يُباينون الشِّرك في توحيد الإلهية ويبتعدون عنه بأن يُوحِّدُوا الله، ويُفرِدوه بالمحبة والإلهية والتعظيم والإجلال والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والإنابة.

الله هو الإله، وهو الاسم الجامع الذي من صفاته الكمال ونعوت الجلال، وهو الإله الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وخوفًا وتعظيمًا ورجاءً ورغبة ورهبة وتوكلًا.

ولا بُدَّ من هذه المباينة؛ ولهذا لَمَّا لم يُباين المشركون الشِّرك في توحيد الألوهية صاروا كُفارًا، واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم، وصاروا من أهل النار.

○ قوله: «**وأنه تعالى حقيقٌ**» أي: جدير وأهل «**بإفراده وليًّا**» والولي ضد العدو، فالمسلم يتولى ربه ولا يتولى غيره، فلا بُدَّ من

إفراده بالولاية، فتتولى الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المَائدة: ٥٦]، «وحَكَمًا» فهو الحَكم ﷻ، وذي الحُكم، ومن أسماءه «الحَكم»، وهو يحكم بين عباده في الدنيا بشرعه الذي أنزله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ويحكم بين عباده بُحكمه القدري، يُقدِّر عليهم ﷻ ما يشاء بحكمته، ولا يمتنع أحد من حُكمه القدري، فإذا حكم على أحد بالعِزَّةِ لا يُذِلُّه أحد، ولو حكم عليه بالذُّلِّ لا يُعِزُّهُ أحد، ويحكم بين عباده بحكمه الجزائي بنفسه يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، فهو تعالى حقيق بإفراده وليًّا وحَكَمًا.

ولا بُدَّ من التَّحاكُم إلى شرع الله؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، فمن تحاكم إلى القوانين الوضعية لم يُفرِد ربه بالحُكم، ولم يتَّخِذِ الله حَكَمًا، بل اتَّخذ غيره حَكَمًا، وكلمة «الإلهية» وهي العبادة عامة، تشمل جميع أنواع العبادة، ومن أنواعها: الحاكمية، وهي مثل الخوف والرجاء والمحبة، فكلمة العبادة تشمل جميع أفرادها، ومن أفرادها: الحاكمية، وداخلة في مسمى الإلهية.

○ قوله: «**وأنه تعالى حقيقٌ بإفراده وليًّا وحَكَمًا وربًّا**» فلا بُدَّ من إفراده حَكَمًا وربًّا، كما أنك تُفرده بالربوبية ولا رب غيره تُفرِده كذلك بالولاية، فلا تتولى غير الله ورسوله والمؤمنين، وكذلك تُفرِده بالحُكم فلا تتحاكم إلى غير شرعه.

○ قوله: «**فقال تعالى**: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعَام: ١٤]» فلما قرَّر أن الله تعالى له ما في السماوات والأرض، ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى

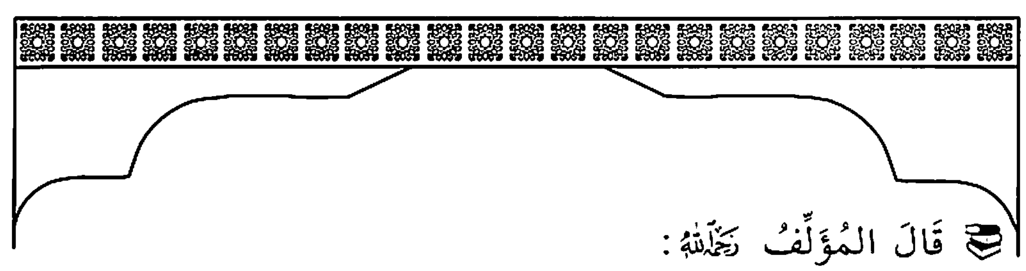
ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣] أَمَرَ نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف ﴿أَغَيۡرَ﴾ هذا الذي هذه صفاته ﴿أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ بمعنى: أن هذا خطأ لو فعلته بَيِّنٌ[1].

○ قوله: «**وقال: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾** [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ [الأنعام: ١٦٤]» أي: فهل أتحاكم إلى غير شرع الله؟!، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٢٦]، فالحكم لله في الدنيا بشرعه الذي أنزله، وفي الآخرة بالجزاء فيحكم بين عباده بنفسه ﷻ، وبحكمه القدري الذي يُقدِّره على عباده، ولا يمتنع أحد.

○ قوله: «**فلا وليَّ ولا حكمَ ولا ربَّ إلّا الله**» فلا ولي للمؤمن إلا الله، ولا حكم إلا الله، ولا رب إلا الله «**الذي من عدل به غيره**» فاتخذ غيره وليًّا أو حكمًا «**فقد أشرك في ألوهيته ولو وَحَّدَ ربوبيته**».



(١) «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢/ ٢٧٣).



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مَفْرَقُ الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام «لا إله إلَّا الله»، فلو قال: «لا ربَّ إلَّا الله»لما أجزأه عند المُحَقِّقِينَ، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد، ولهذا كان أصل «الله» الإله كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه، إلَّا من شذَّ منهم».

الشَّرْح

○ قوله: «**فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها**» يعني: كلهم مُقِرُّون بتوحيد الربوبية، **فالوثنيون واليهود** مُقِرُّون به، **والنصارى** قد لا يُقِرُّون بتوحيد الربوبية؛ لأنهم قالوا بالتثليث، وكذلك **المجوس**، لكن **أكثر الخلائق** مؤمنها وكافرها اجتمعوا على توحيد الربوبية، أي: يُقِرُّون بأن الله هو رب الخلائق، حتى الذين قالوا بالتعدد **كالنصارى** الذين قالوا بالتثليث «الأب والابن وروح القدس إله واحد»، ما قالوا أنها متساوية، فالأب هو الإله الأكبر، وهو خالق السموات والأرض، وكذلك **المجوس** الذين قالوا بالنور والظلمة[1]، يقولون: النور هو الإله المحمود، والظلمة الشريرة متنازع في قِدَمِها.

وفرعون مُقِرٌّ في الباطن بتوحيد الربوبية كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص ٤٢).

بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ولكنه كان مُشْرِكًا في الألوهية، قيل: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] كان لفرعون إله يعبده، **قال الحسن البصري**: «كان لفرعون إله يعبده في السر»[١].

○ قوله: «**وتوحيد الإلهية مَفْرَقُ الطرق**[٢] **بين المؤمنين والمشركين**» فانقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيد، فمن وَحَّدَ الله في ربوبيته فهو مؤمن، ومن أشرك في ألوهيته فهو كافر، وأما توحيد الربوبية فاجتمع عليه الخلائق مؤمنها وكافرها، لكنه لا يكفي في سعادة العبد، ولا في نجاته، ولا في دخوله في الإسلام، بل لا بُدَّ من توحيد الألوهية.

○ قوله: «**ولهذا كانت كلمة الإسلام «لا إله إلَّا الله»**» وقد تقدَّم أن معناها لا معبود حق إلا الله، وإعراب هذه الكلمة: «لا» نافية للجنس، مِن أخوات «إن»، تنصب الاسم وترفع الخبر، «إله» اسمها، اسم جنس، والخبر محذوف، وتقديره: «لا إله» الإله المعبود، والخبر محذوف تقديره حق، «إلا الله»، والاسم الشريف بدل من الخبر المحذوف، تقديره: لا إله حق إلا الله، لا معبود بحق إلا الله.

«إله» اسم جنس يُطلق على الله وغيره، لكن إذا جاءت بالألف واللام **فالصواب** أنه خاص بالإله، ولهذا يُقال للعبد «عبد الإله»، فالألف واللام خاص بالله كما أن «الرَّب» بالألف واللام خاص بالله، فالرَّب هو الله والإله هو الرَّب، أما إذا حذفتَ الألف واللام وقلتَ «إله» صار اسم جنس عام يشمل الإله الحق والإله الباطل،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٤٠).
(٢) المَفْرَقُ من الطريق: المَوْضِعُ الذي يتشعَّب منه. «تاج العروس» للزبيدي (٢٦/ ٢٨٤).

وكذلك «رب» كـ«رب الدار» و«رب الإبل».

○ قوله: **«فلو قال: «لا ربَّ إلَّا الله»لما أجزأه عند المُحَقِّقِينَ»**؛ لأنه وَحَّدَ الله في الربوبية، لكن ما وَحَّدَه في الألوهية، وبذلك ما خرج من الكفر، وكذا لو قال «لا خالق إلا الله» فلا يكون مُوحِّدًا؛ لأن المشركين يقولون «لا ربَّ إلا الله» ويقولون «لا خالق إلا الله».

وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع كما ظنَّه مَنْ ظنَّه **مِنْ أئمة المُتكلِّمِين**، حيث ظن أن الإلهية هي القُدرة على الاختراع دون غيره، وأن من أقرَّ بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شَهِدَ أن لا إله إلا هو؛ فإن المشركين كانوا يُقِرُّون بهذا وهم مشركون كما تقدَّم بيانه، بل الإله الحق هو الذى يستحق بأن يُعْبد، فهو إله بمعنى مألوه، لا إله بمعنى آله، والتوحيد أن يُعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلها آخر(١).

○ قوله: **«فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد، ولهذا كان أصل «الله» الإله كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه، إلَّا من شذَّ منهم»** وهذا الكلام اقتبسه من «بدائع الفوائد»(٢) للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

○ قوله: **«فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد»** كُلِّهم، فيُوحِّدُوا الله ويُفرِدوه بالعبادة؛ لأن الله خلقهم لذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبذلك أرسل الله الرُّسل وأنزل الكُتُب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ولأجله شُرِعَ الجهاد.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٠١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٧٣).

توحيد الألوهية هو المطلوب من العباد، وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مطلوب كذلك منهم، لكنهم فُطِرُوا عليه ولم يُنْكِروه، وإلا فالكلُّ مطلوب، ومن أشرك في واحد منها لا يكون مُوحِّدًا.

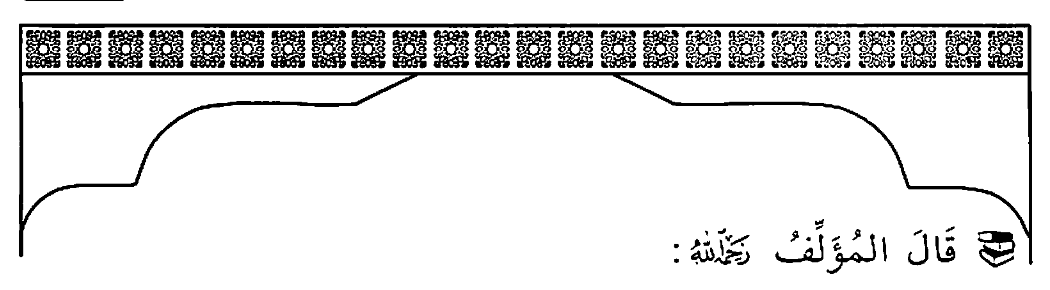
وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسيلتان لتوحيد الإلهية والعبادة؛ فهما يُعرِّفانك بالله، لأنهما إثبات حقيقة ذات الرَّبِّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإذا عرفتَ ربك وأنه الخالق وغيره مخلوق وأنه الرَّبُّ وغيره مربوب وأنه المالك وغيره مملوك وأنه المُدبِّر وغيره مُدبَّر وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا حينئذ تعبده.

○ قوله: «**ولهذا كان أصل «الله» الإله**» فأصل «الله» الإله على وزن فعال، والألف واللام زائدة، أُسقِطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى التي هي عين الاسم فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مُشدَّدة[١] «كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه، إلَّا من شذَّ منهم» وهذا **كلام ابن القيم**[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومعنى «الله»: المألوه، كما **قال ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»[٣]، فالله هو المألوه الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً.



(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٥).
(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٧٣).
(٣) أخرجه الطبري في «التفسير»(١/ ٥٤).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وبهذا الاعتبار الذي قَرَّرنا به «الإله» وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه كان «الله» هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي يُنْكِره المشركون، ويحتجُّ الرَّبُّ تعالى عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٥٩-٦٠]، وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجُمَلِ قال عقبها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فأَبَانَ تعالى بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقَّفُون في إثبات توحيد الإلهية لا الربوبية، على أن منهم مَنْ أشرك في الربوبية كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى، وبالجملة فهو تعالى يحتجُّ على مُنكِري الإلهية بإثباتهم الربوبية».

الشَّرْح

○ قوله: «**وبهذا الاعتبار الذي قَرَّرنا به «الإله»**» أنه هو المألوه الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا وخوفًا وتعظيمًا ورجاءً «**وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه**» فكان هو المستحق للعبادة، ولهذا «**كان «الله» هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا**» فهو الاسم الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال، وهو أعرف المعارف.

اسم «الله» هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وكلها ترجع إلى هذا الاسم، «الله» هو المألوه الذي تألهه القلوب محبةً، والمعبود بحق، فبقية الأسماء كلها تأتي صفات له، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، فهو المعبود بحقٍّ المتصف بهذه الصفات «**وهو الذي يُنْكِره المشركون**» فأنكروا أن يُوحَّدَ الله ويُفْرَد بالعبادة.

○ قوله: «**ويحتجُّ الرَّبُّ ﷻ عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته**» أي: لَمَّا أقرَّ المشركون بتوحيد الربوبية احتجَّ الله عليهم وألزمهم بتوحيد الألوهية كما في سورة «النمل» «**كما قال الله تعالى**: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩-٦٠]»، هذا توحيد الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شرع الله تعالى يُبيِّن أنه المُنْفرِد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار والفيافي والقفار والزروع والأشجار والثمار والبحار والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: جعله رزقًا للعباد ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين ﴿ذَاتَ

بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرزاق المستقل بذلك، المُتفرِّد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به المشركون كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم مُعترِفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفْرَدَ بالعبادة من هو المُتفرِّد بالخلق والرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع الله يُعبد وقد تبيَّن لكل ذي لُبٍّ مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرزاق؟![1] ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ يجوز: أن يُراد به يعدِلون عن طريق الحقِّ، أن يجورون في فعلهم، ويجوز: أن يُراد بالله يعدِلون غيره، أي: يجعلون له عدِيلًا ومثيلًا[2].

○ قوله: «**وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجُمَلِ**» في نفس السورة «**قال عقبها**: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟»، قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٠).
(٢) «المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/ ٢٦٦).

بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦١-٦٤] فاحتجَّ الله عليهم بذلك على توحيد الألوهية، كيف تجعلون معه إلهًا وأنتم تُقِرُّون بأنه خالق السموات والأرض، وبأنه يُجيب المضطر، وهو الذي يهدي في ظلمات البر والبحر، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعِيده ثم تعبدون معه إلهًا غيره؟!، فالفاعل لهذه الأشياء هو المستحقُّ للعبادة.

○ قوله: «**فأَبَانَ ﷻ بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقَّفُون في إثبات توحيد الإلهية لا الربوبية**» فلا يُثبِتون توحيد الألوهية، أما توحيد الربوبية فلا يتوقَّفُون فيه بل يُثبِتونه «**على أن منهم مَنْ أشرك في الربوبية كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى**» يعني: الغالب أنهم مُوحِّدُون في الربوبية، لكن يوجد منهم مَنْ يُشرك فيه، كأن يقول: «مطرنا بِنَوْءِ كذا» يعني: بنجم كذا وكذا؛ لحديث «الصحيحين»[1] عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**»، قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: «مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ» فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: «بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا» فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»، فهذا شرك في الربوبية لكنه قليل.

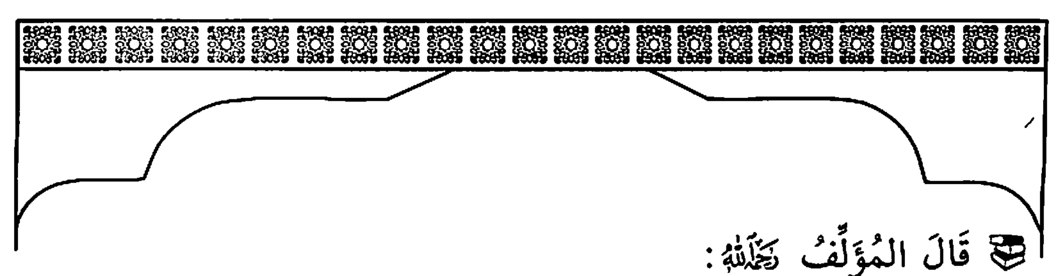
كذلك بعض المشركين يعتقد أن الميت إذا مات تخرج روحه وتصير هامة فتطير، وأنها تنصر من دعاها، وتحمي من لاذ بحِمَاها، فهذا نوع من الشرك في الربوبية لكنه قليل أيضًا، ومثل ما سيذكره

(١) أخرجه البخاري، كتاب الآذان، باب «يستقبل الإمام الناس إذا سَلَّمَ»، رقم (٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٧١).

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك من شرك الاتحادية، وشرك التَّعظيم، وشرك فرعون، وشرك الفلاسفة الذين يقولون بقِدم العالم، كل هذا شرك في الربوبية، لكن الغالب أن الشِّرك في توحيد الألوهية.

○ قوله: «**وبالجملة فهو تعالى يحتجُّ على مُنكِري الإلهية بإثباتهم الربوبية**» فاحتجَّ على مُنكِري الإلهية بأنهم أثبتوا توحيد الربوبية وإن كان يوجد منهم من يُنكِر توحيد الربوبية ولكنه قليل، مثل: قوله تعالى في أول الأوامر في القرآن الكريم أمر بالتوحيد، وأول النواهي في القرآن الكريم النهي عن الشِّرك، في الثمن الأول من سورة «البقرة» قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: ٢١] هذا أول أمر في القرآن، أمرَ بالتوحيد، ثم قال بعده: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البَقَرَة: ٢٢] هذا أول نهي في القرآن، نهى عن الشِّرك؛ لأن الله تعالى ذكر في أول سورة «البقرة» الأصناف الثلاثة، المؤمنون ظاهرًا وباطنًا وذكرهم في أربع آيات، والكفار ظاهرًا وباطنًا وذكرهم في آيتين، والمنافقون الذين هم مؤمنون في الظاهر كفار في الباطن وذكرهم في ثلاثة عشرة آية، ثم جاء بعدها الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فأمرَ بتوحيد العبادة، ثم جاء بالدليل، قال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٢]، وهذه كلها توحيد الربوبية وهم مُقِرُّون به، فاحتجَّ عليهم بهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الذي فعل هذه الأشياء فهو المستحقُّ للعبادة، ثم قال بعده: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ يعني: أمثالًا ونظراء ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾، وهذا هو الشِّرك.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«والمَلِكُ: هو الآمر النَّاهِي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدىً مُعطَّلِين لا يُؤمرون ولا يُنهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون؛ فإن المَلِك هو الآمر الناهي، المُعطِي المانع، الضار النافع، المُثِيب المُعَاقِب».

الشَّرْح

○ قوله: «**المَلِكُ**» من أسماء الله تعالى كما في سورة «الفاتحة» ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهي قراءة غير حفص[1]، وقرأ حفص ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحَشر: ٢٣]، وكما في سورة «الناس» ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النَّاس: ٢].

إذًا «مَلِكُ» و«مَالِكُ» مِن أسماء الله، لكن «مَلِكُ» أبلغ؛ لأن كلَّ مَلِكٍ مَالِكٌ، وليس كلَّ مَالِكٍ مَلِكٌ، فكلُّ مَلِكٍ لا بُدَّ أن يملك شيئًا، ونادرًا ما يكون هناك مَلِكٌ ولا يملك شيئًا، وأما المَالِكُ فقد يملك الإنسان شيئًا ولا يكون مَلِكًا.

والإيمان باسم «المَلِك» فيه إثبات للربوبية وللألوهية، فإذا آمنتَ بأن الله هو المَلِكُ فمعناه أنك وَحَّدتَ الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته؛ لأنه من أسماء الله، ووَحَّدتَ الله في ألوهيته؛ لأن الله هو الآمر الناهي، فلا يمكن أن يكون مَلِكًا إلا الآمر الناهي.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ١٣٩، ١٤٠).

○ قوله: «**والمَلِكُ: هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدىً مُعطَّلِين لا يُؤمرون ولا يُنهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون**» وقد أنكر الله على من ظنَّ ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي: مُهْمَلِينَ كما خُلِقَتِ البهائم لا ثواب لها وعقاب عليها، ومثل: قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] يريد كالبهائم مُهْمَلًا لغير فائدة(١).

فالله تعالى من أسمائه «المَلِك»، والمَلِكُ هو الآمر الناهي، والآمر الناهي لا يترك خلقه عبثًا مُهْمَلِينَ، لا يُؤمرون ولا يُنهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون، بل يأمرهم سبحانه بتوحيده، وأداء حقِّه، والقيام بأمره، وينهاهم عن الشِّرك به ومعصيته، ثم يُجازيهم في الآخرة، يُجازي المحسِن بإحسانه والمسِيء بإساءته، ولا يمكن أن يكون مَلِكًا هكذا بالاسم فقط، بل لا بُدَّ لهذا الاسم أن يحمل هذا المعنى ـ والله تعالى له المُلك التام ـ وكما تقدَّم الأسماء قسمان: قسم مشترك وقسم خاص به، ومن الأسماء المشتركة: «المَلِك»، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، لكنَّ الله تعالى له المُلك التام، والمخلوق له المُلك الناقص، وهو سبحانه الذي يُعطي المُلك من يشاء من عباده وينزعه ممن يشاء لحكمة بالغة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالمُلك التام مُلكُ الله ﷻ، ولهذا يوم القيامة يقول الله تعالى بعد إفناء الخلائق: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ ثم يُجيب نفسه ﷻ ويقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٢/١٥٦).

ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]

وقال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] أي: يوم الجزاء والحساب، وهو مالك الدنيا والآخرة، لكن في يوم الدين تنتهي الأملاك، فليس هناك مالك إلا الله، ولهذا خَصَّه بالجزاء.

○ قوله: «**فإن المَلِكَ هو الآمر الناهي، المُعطِي المانع، الضار النافع، المُثِيب المُعَاقِب**» فكلٌّ هذه أوصافه ﷻ، الآمر الناهي، المُعطِي المانع، الضار النافع، المُثِيب المُعَاقِب.

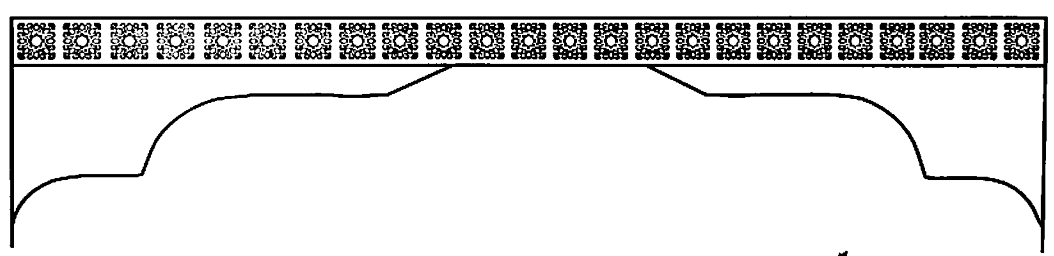
وهذه من الأسماء المزدوجة التي لا يُفصل أحدها عن الآخر، «المُعطِي المانع» ما تقول: «اسم الله المانع» وتسكت، لا بُدَّ أن تقرِنَها بـ«المُعطِي»، ولا تقول: «اسم الله الضار» وتسكت، بل «الضار النافع»، «القابض الباسط»، وهكذا فهي من الأسماء المزدوجة، **قال الإمام ابن القيم** رحمه الله: «أن أسماءه تعالى منها ما يُطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره وهو غالب الأسماء، فالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعَى به مُفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول: «يا عزيز يا حليم، يا غفور يا رحيم»، وأن يُفرَد كلُّ اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع، **ومنها**: ما لا يُطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يُفرَد هذا عن مقابله؛ فإنه مقرون بالمُعطِي والنافع والعفو، فهو «المُعطِي المانع»، «الضار النافع»، «المنتقم العفو»، «المُعِزُّ المُذِلُّ»؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يُقابله؛ لأنه يُراد به أنه المُنْفرِد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاءً ومنعًا ونفعًا وضرًا وعفوًا وانتقامًا، وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ؛ فهذه الأسماء

المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مُفرَدة، ولم تُطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه، فلو قلت: «يا مُذلُّ»، «يا ضار»، «يا مانع»، وأخبرت بذلك لم تكن مُثنِيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها»[1].



---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧٧).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة «الناس» وسورة «الفلق» بالأسماء الحسنى الثلاثة الرَّبِّ والمَلِك والإلَهِ، فإنه لما قال: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١] كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم.

فبَقِي أن يُقال: «لَمَّا خلقهم هل كلَّفهم وأمرهم ونهاهم؟»، قيل: «نعم»، فجاء ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس: ٢] فأثبت الخلق والأمر.

فلَمَّا قيل ذلك قيل: «فإذا كان ربًّا مُوجِدًا ومَلِكًا مُكلِّفًا فهل يُحَبُّ ويُرْغَبُ إليه، ويكون التَّوجه إليه غاية الخلق والأمر؟»، قيل: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ٣] أي: مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجَّه العبد المخلوق المكلَّف العابد إلا له، فجاءت الإلهية خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها».

الشَّرْح

هذا كلام عظيم، نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا بَيَّنَ أن المَلِك هو الآمر الناهي، قال: «ولذلك جاءت الاستعاذة في سورة «الناس» وسورة «الفلق» بالأسماء الحسنى الثلاثة الرَّبِّ والمَلِك والإلَهِ» في سورة «الفلق» قال سبحانه:

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٧١، ٤٧٢).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١-٥]، وفي سورة «الناس» قال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣]، استعاذةٌ بالرَّبِّ والمَلِكِ والإلَهِ.

و«الـرَّبُّ» و«الـمَـلِـكُ» و«الإلَـهُ» أسـمـاء لله، و«الـرَّبُّ» إذا عُـرِّفَ بالألف واللام لا يُطلق إلا على الله، فيُقال: «عبد الرَّبِّ»، أما إذا حُذِفت الألف واللام يكون مشتركًا؛ «ربُّ» عام، تقول: «رب الدار» و«رب الإبل» كما **قال عبدالمطلب**: «إني أنا ربُّ إبلي، وإن للبيت ربًّا سيمنعه»(١)، وكذلك «الإله»، «إله» اسم جنس كـ«الدابة» و«الفرس» يُطلق على كل معبود بحقٍّ أو بباطل، فإذا قيل: «الإله» فهو خاصٌّ بالله، لا يُطلق إلا عليه.

وفي سورة «الناس» جاءت الاستعاذة بالأسماء الحسنى الثلاثة الرَّبِّ والمَلِكِ والإلَهِ قال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾، وهذه الربوبية والألوهية اجتمعا فيها، «ربُّ» و«إله»، فإذا أُطلِق أحدهما أدخل فيه الآخر، وإذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معنى.

«الرَّبُّ» و«الإلَه» و«الربوبية» و«الألوهية» إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، ومثلها: «الإيمان» و«الإسلام»، و«البِرُّ» و«التقوى»، و«الفقير» و«المسكين» إذا أُطلِق واحد منهما دخل فيه الآخر، وإذا اجتمعا صار لكل واحد منهما معنى، «الإسلام» إذا أُطلِق يشمل

---

(١) «أخبار مكة» للأزرقي (١/ ١٤٤).

الأعمال الظاهرة والباطنة، و«الإيمان» إذا أُطلِق يشمل الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا كما في حديث جبريل[١] صار «الإسلام» الأعمال الظاهرة، و«الإيمان» الأعمال الباطنة، فإن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام فَسَّرَهُ بالأعمال الخمسة الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، ولما سأله عن الإيمان فَسَّرَهُ بالأعمال الباطنة، قال: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**»، ومثله: «البِرُّ» و«التقوى»، «البِرُّ» إذا أُطلِق يشمل أداء الفرائض وترك المُحَرَّمات، و«التقوى» كذلك، وإذا اجتمعا فُسِّرَ «البِرُّ» بأداء الواجبات، و«التقوى» بترك المُحَرَّمات، وكذلك «الرَّبُّ» إذا أُطلِق يشمل الربوبية والألوهية، وكذلك «الإله»، وإذا اجتمعا فُسِّرَ «الرَّبُّ» بتوحيد الربوبية، و«الإله» بتوحيد الألوهية كما اجتمعا في هذه السورة.

○ قوله: «**فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾** [الناس: ١] **كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم**» فالرَّبُّ هو الخالق، المُرَبِّي القائم بتربيتهم ومصالحهم.

○ قوله: «**فَبَقِيَ أن يُقال: «لَمَّا خلقهم هل كلَّفهم وأمرهم ونهاهم؟»، قيل: «نعم»، فجاء ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾** [الناس: ٢] **فأثبت الخلق والأمر**» أثبت الخلق في قوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، وأثبت الأمر في قوله ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، وأثبت أنه تعالى يستحق العبادة في قوله: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

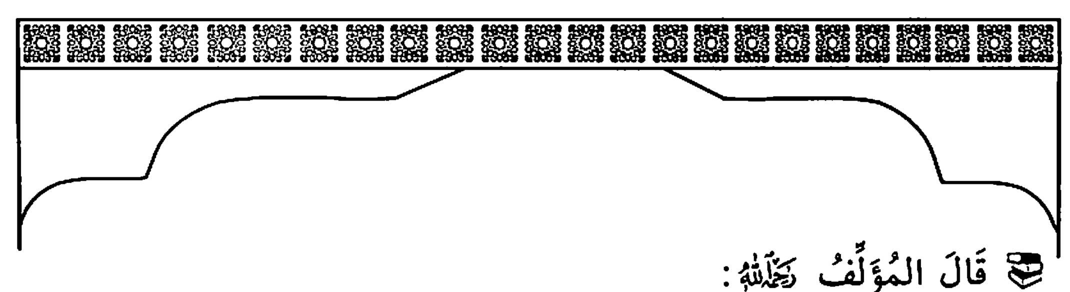
○ قوله: «**فلَمَّا قيل ذلك قيل: «فإذا كان ربًّا مُوجِدًا**» هذا من

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس: ١] «**ومَلِكًا مُكلِّفًا**» من قوله ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النَّاس: ٢] «**فهل يُحَبُّ ويُرْغَبُ إليه، ويكون التَّوجه إليه غاية الخلق والأمر؟**»؛ إذ الغاية من خلقهم وأمرهم التَّوجه إلى الله بالمحبة والتعظيم والرغبة إليه «**قيل**: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: ٣] **أي: مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجَّه العبد المخلوق المكلَّف العابد إلا له**» «إله» بمعنى مألوه، على وزن فعال بمعنى مفعول «**فجاءت الإلهية خاتمة وغاية**» للأسماء الثلاثة «**وما قبلها كالتوطئة لها**» أي: كالتمهيد، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ يعني: خالقهم وفاطرهم ومُوجِدهم ورازقهم ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ الذي يأمرهم وينهاهم، ثم جاءت الغاية ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ المستحقُّ للعبادة، فهو الذي يعبدونه ويألهونه.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهاتان السورتان أعظم عَوذَة في القرآن، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك، وهو حين سُحِرَ النبي ﷺ وخُيِّلَ إليه أنه يفعل الشيء ﷺ وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يومًا كما في «الصحيح»، وكانت عُقَدُ السِّحْرِ إحدى عشرة عقدة فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية فانحلَّت بكلِّ آيةٍ عُقدة».

الشَّرْح

تقدم أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بَيَّنَ أن الاستعاذة جاءت في سورة «الفلق» و«الناس» بالأسماء الحسنى الثلاثة الرَّبِّ والمَالِكِ والمَلِكِ والإلَهِ، لما قال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس: ١] هذا فيه إثبات الخالق، أي: خالقِ الناس وفاطرهم، ثم لَمَّا ثبت عند المخاطَبين أن الله خلقهم وفطرهم فتشوفت النفوس هل هذا الذي خلقهم وفطرهم كلَّفهم وأمرهم ونهاهم؟، فقال تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النَّاس: ٢] والمَلِك هو الآمر والناهي كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعرَاف: ٥٤]، فلَمَّا قيل ذلك تشوفت النفوس إلى أن هذا الرَّبَّ المُوجِد المَلِك المكلِّف هل يُحَبُّ ويُرْغَبُ إليه ويكون التَّوجه إليه غاية الخلق والأمر؟، فقال تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: ٣] أي: مألوههم ومحبوبهم الذي لا يتوجه العبد المخلوق المُكلَّف العابد إلا له، فجاءت الإلهية ـ كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ـ خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها.

○ قوله: «وهاتان السورتان أعظم عَوذَة في القرآن» يعني: أعظم رقية، وأعظم رقية يُرْقَى أو يُتعوذ بها هاتان السورتان، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»[١].

والفاتحة رقية عظيمة، في«الصحيحين»[٢] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: «إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيْبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟»، فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: «أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟»، قَالَ: «لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ»، قُلْنَا: لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ أَوْ نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**»، فالقرآن كله يُرقَى به، فيُرقى بفاتحة الكتاب، ويُرقى بأية الكرسيٍ، ويُرقى بآخر بآيتين من سورة «البقرة»، ويُرقى بالمعوذتين.

ويُرقى أيضًا بالتعويذات الشرعية التي جاءت في السنة النبوية، في «الصحيحين»[٣] عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: «**بِسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا**»، وفي

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الطب، باب «ما جاء في الرقية بالمعوذتين»، رقم (٢٠٥٨)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب «الاستعاذة من عين الجان»، (٨/ ٢٧١)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب «من استرقى من العين»، رقم (٣٥١١).

قال الترمذي: «وهذا حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب «فضل فاتحة الكتاب»، رقم (٥٠٠٧)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «رقية النبي ﷺ»، رقم (٥٧٤٥)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٩٤).

«صحيح البخاري»[1] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»»، وفي «صحيح مسلم»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟»، فَقَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**»، وكذلك ما ثبت في «سنن أبي داود»[3] عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا أَوْ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا؛ أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ» فَيَبْرَأُ**»، فيرقيه بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ، فما ورد بالآيات القرآنية يرقيه بها، وكذا بالأحاديث النبوية، بل يجوز أيضًا أن يرقيه بالتعوذات ولو لم ترد إذا لم يكن فيها محذور، ولكن الوارد أفضل.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب «قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]»، رقم (٣٣٧١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «كيف الرقى»، رقم (٣٨٩٢).

قال الحاكم: «قد احتج الشيخان بجميع رواة هذا الحديث، غير **زيادة بن محمد**، وهو شيخ من أهل مصر قليل الحديث». «المستدرك» (١/ ٤٩٤).

قال البخاري: «**زياد بن محمد** عن محمد بن كعب القرظي، روى عنه: الليث بن سعد، منكر الحديث». «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ١٩٧).

ويُشترط في الرُّقية شروطًا لصحتها:

الأول: أن تكون بكتاب الله أو بسنة رسول الله ﷺ، أو بتعوذات لا محذور فيها ولو لم ترِد.

الثاني: أن تكون باللغة العربية، فإن كان بغير لسان عربي أو بتمتمة فلا يجوز؛ خشية أن تكون التعوذات بأسماء الجنِّ أو الشياطين.

الثالث: أن يعتقد أنها سبب والشفاء بيد الله.

لكن أعظم رقية كما قال المؤلف رحمه الله بهاتين السورتين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس: ١].

○ قوله: «**وجاءت الاستعاذة بهما**» أي: بهاتين السورتين «الفلق» و«الناس» «**وقت الحاجة إلى ذلك**» أي: أنهما أُنْزِلَتا وقت الحاجة.

○ قوله: «**وهو حين سُحِرَ النبي ﷺ وخُيِّلَ إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، وأقام على ذلك أربعين يومًا كما في «الصحيح»**» سحره ﷺ ثابت في «الصحيحين»[1] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ»**.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ووقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي «**فأقام أربعين ليلة**»، وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد[2] «ستة أشهر».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب «هل يُعفى عن الذمي إذا سَحر؟»، رقم (٣١٧٥)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٦٣) ولكن من طريق معمر عن هشام بن عروة.

وأما رواية وهيب ـ وهو ابن خالد ـ عن هشام به أخرجها أحمد (٦/ ٩٦) فهي كرواية الجماعة، وليس فيها تحديد المدة.

ويمكن الجمع: بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يومًا من استحكامه، **وقال السهيلي**: «لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السِّحر حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري أنه لبث ستة أشهر» كذا قال، وقد وجدناه موصولًا بإسناد الصحيح، فهو المعتمد»[١].

وقد يُقال: إن رواية أبي ضمرة أن المدة أربعين يومًا شاذة، **والأقرب**: أنها مدة يسيرة؛ لأنه لو كانت المدة أربعين يومًا أو ستة أشهر لنُقِلَ واشتُهِرَ ولنقله عدد من الصحابة، ولكنه لم يشتهر وانفردت عائشة ﵂ بالرواية عنه، فهي مدة يسيرة، والله أعلم بمقدارها.

○ قوله: **«وكانت عُقَدُ السِّحْرِ إحدى عشرة عقدة فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية فانحلَّت بكلِّ آيةٍ عُقدة»** أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»[٢] بسند ضعيف عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ في آخر قصة السِّحر الذي سُحِرَ به النبي ﷺ، وفيه: **«فَإِذَا فِيهَا وَتَرٌ فِيهِ إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَاتَانِ السُّورَتَانِ، فَجَعَلَ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً**

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٦).
(٢) «دلائل النبوة» (٦/ ٢٤٨).
قال ابن حجر: «وقد وقع في حديث ابن عباس فيما أخرجه البيهقي في «الدلائل» بسند ضعيف في آخر قصة السحر الذي سُحِرَ به النبي أنهم وجدوا وترًا فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس، وجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، وأخرجه ابن سعد بسند آخر منقطع عن ابن عباس أن عليًّا وعمارًا لما بعثهما النبي لاستخراج السحر وجدا طلعة فيها إحدى عشرة عقدة فذكر نحوه». «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٥)، وانظر: «التلخيص الحبير» (٤/ ٤٠).

انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]».

وقد أنكر **كثير من المتكلمين** سحر النبي ﷺ، **وقالوا**: إن عصمته وتبليغه الرسالة يُنافي ذلك[1]؛ كيف يُسحر النبي ﷺ وهو معصوم والله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؟!

وقالوا أيضًا في شبهتهم: إن القول بسحر النبي ﷺ يُوافق قول المشركين ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء: ٤٧] وقد أنكر الله ذلك وردَّ عليهم، فلو كان النبي ﷺ سُحِرَ لوافق قولهم، وكيف يُنكِر الله ويردُّ عليهم هذه الشبهة وتقولون إن النبي ﷺ سُحِرَ؟!.

ويُجاب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أن سحر النبي ﷺ ثابت في «الصحيحين»، والصحيحان تلقتهم الأمة بالقبول، فهما يفيدان العلم.

الثاني: أن سحر النبي ﷺ إنما هو في أمور الدنيا خاصة، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ**»، وليس في أمور الدين، فهو معصوم أن يُؤثِّر السحر على قلبه وعلى تبليغه الرسالة، ولهذا يُقال أيضًا: إن السِّحر الذي أصابه من جنس الأمراض التي يبتلى بها الأنبياء؛ ابتلاءً وامتحانًا، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟»، قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ**

---

(١) حكاه عن بعض المبتدعة المازريُّ في «المعلم بفوائد مسلم» (٣/ ١٥٩)، وعنه نقل النووي في شرحه على «صحيح مسلم» (١٤/ ١٧٤)، وابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٦).

فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(١)، فهذا السحر الذي حصل في أمور الدنيا خاصة من جنس مرض من الأمراض، وليس له تأثير على عقله ولا على تبليغه الرسالة، وإنما فيما يتعلق بأمور الدنيا فيُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، والله تعالى أثبت عصمته فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٣-٤٦].

الثالث: أن النبي ﷺ معصوم في عقله فلا يمكن أن يُؤثِّر السِّحر على عقله، وقد أكذب الله المشركين في قولهم عن النبي ﷺ لَمَّا قالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان: ١٤] وفي قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ [الدخان: ١٣]، فالأنبياء معصومون بأن يُؤثِّر شيء على عقولهم أو تبليغهم الرسالة.

الرابع: أن السحر أنواع، منه: نوع يُصيب العقل بالخبل، ونوع يُصيب القلب، ونوع خاص بأمور الدنيا.

الخامس: أن المشركين قالوا عن النبي ﷺ ساحر على وجه السخرية والاستهزاء، وهم يعلمون أن الأنبياء من أعقل الناس وأصحهم عقولًا.

السادس: أن هذا السِّحر الذي أصاب النبي ﷺ مرض من

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب «ما جاء في الصبر على البلاء»، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «الصبر على البلاء»، رقم (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢).

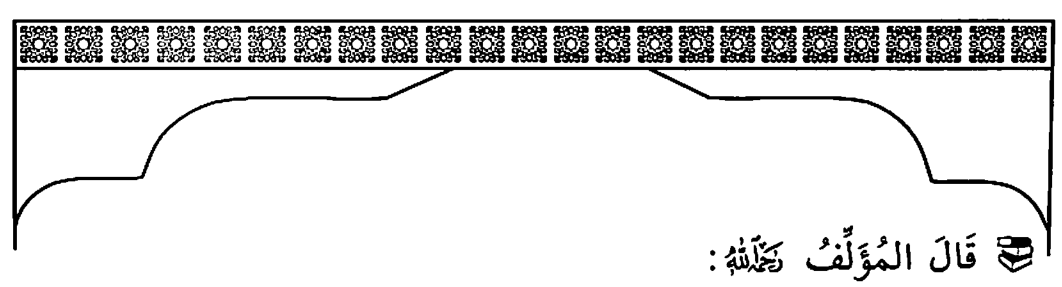
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

الأمراض، ثم هو مدة يسيرة ثم شُفِي، والذي يُصيبه مدة يسيرة ثم يُشفَى لا يُقال عنه بعد الشفاء أنه مسحور، بل هو سليم معافى.

وفي هذا: بيان أن إنكار الكثير من **المتكلمين** لسحر النبي ﷺ لا وجه له[1]، وأن السِّحر الذي أصابه من جنس الأمراض، ولم يُؤثِّر على عقله ولا على تبليغه الرسالة، وإنما هو ابتلاء وامتحان؛ ليرفع الله درجته.



(١) **قال ابن القيم**: «وقد اتفق أصحاب «الصحيحين» على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلَّم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين». «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٤٩).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وتعلَّقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا المرغُوب إليه في أن يُعِيذ عبده الذي يُناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه، ثم استُحِبَ التعلُّقُ باسم الإله في جميع المواطن الذي يُقال فيها «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»؛ لأن اسم «الله» تعالى هو الغاية للأسماء، ولهذا كان كلُّ اسم بعده لا يتعرَّف إلَّا به، فتقول: «الله هو السَّلام، المؤمن، المهيمن»، فالجلالة تُعرِّفُ غيرها، وغيرها لا يُعرِّفها».

الشَّرْح

○ قوله: «وتعلَّقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه» أي: في الإله.

و«الله» أصله «الإله» كما تقدَّم، والألف واللام زائدة، أُسقِطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى التي هي عين الاسم فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مُشدَّدة[1]، و«الله» هو الإله والمألوه، فِعال بمعني مفعول،فهو الإله المألوه الذي تألهه القلوب محبة وخوفًا ورجاءً وتوكلًا ورغبة ورهبة.

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٥).

○ قوله: «**ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا المرغُوب إليه**» فالعبد يُناجي هذا الإله الكامل الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فالإله متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، وهذا خاص باسمه الإله.

ولَمَّا كان له سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العلا اجتمعت فيه صفات الكمال فلهذا شُرِعَ للعبد مناجاة هذا الإله الكامل ﷻ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ لأن اسم «الله» معناه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، ولهذا يُوصف بالأسماء الحسنى، وتأتي بعده أوصاف له كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤].

○ قوله: «**في أن يُعِيذ عبده الذي يُناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه**» يعني: شُرِعَ للعبد إذا قرأ القرآن أن يستعيذ بالله، يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فأنت تُناجي ربك ﷻ باسم الإله، وترغب إليه في أن يُعيذك من الشيطان الذي يحول بينك وبين مناجاة ربك، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، وكما في سورة «فصلت» استعاذة من شياطين الإنس وشياطين الجنِّ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦]، وفي أوائل كل سورة يستعيذ العبد باسم الله، «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨] وهذا هو السِّرُ في تعلُّق **«الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا المرغُوب إليه في أن يُعِيذ عبده الذي يُناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه»**.

○ قوله: **«ثم استُحِبَ التعلُّقُ باسم الإله في جميع المواطن الذي يُقال فيها «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»»**، ومن المواطن: عند دخول الخلاء، في «الصحيحين»[(١)] عَنْ عَبْدِالْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رضي الله عنه يَقُولُ: **«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ»**.

وعند دخول المسجد؛ عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: **«أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب «ما يقول عند الخلاء»، رقم (١٤٢)، ومسلم، كتاب الحيض، رقم (٣٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب «فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد»، رقم (٤٦٦).
قال النووي: «حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد». «خلاصة الأحكام» (١/ ٣١٤).

وعند الخروج منه؛ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلْ: «اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»**»(١).

وعند الغضب؛ في «الصحيحين»(٢) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ**»، فَقَالُوا لَهُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ**»، فَقَالَ: «وَهَلْ بِي جُنُونٌ؟!».

وإذا وقع العبد في معصية بسبب نزغ الشيطان له؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، فكان التعلق بالاستعاذة في أوائل القرآن عند قراءته، ثم انسحب التعلُّق باسم الإله في جميع المواطن التي شُرِعَ فيها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

○ قوله: «**لأن اسم «الله» تعالى هو الغاية للأسماء**» لاشتماله؛ ولكونه يجمع صفات الكمال ونعوت الجلال.

○ قوله: «**ولهذا كان كلُّ اسم بعده لا يتعرَّف إلَّا به**» كما في

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب «الدعاء عند دخول المسجد»، رقم (٧٧٣).
قال البوصيري رحمه الله: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (١/ ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب «صفة إبليس وجنوده»، رقم (٣٢٨٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٦١٠).

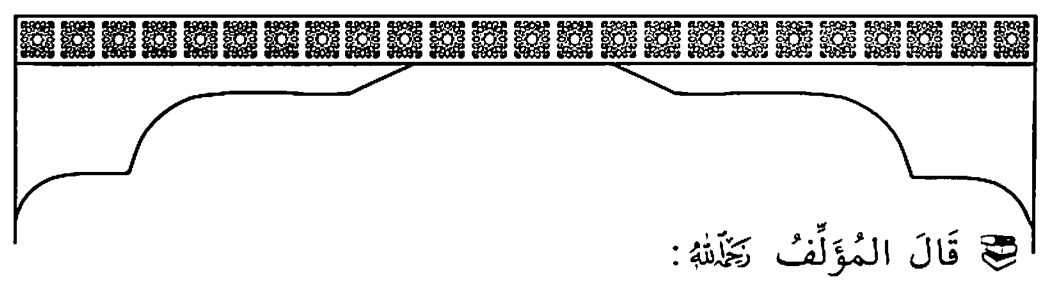
آخر سورة «الحشر»، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ جاء اسم «الله» الذي بعده لا يتعرَّف إلا به، قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤]

○ قوله: «**فتقول: «الله هو السَّلام، المؤمن، المهيمن»، فالجلالة تُعرِّفُ غيرها**» الجلالة اسم «الله» تُعرِّف غيرها الذي بعدها، فتقول: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، «**وغيرها لا يُعرِّفها**» فإذا قلت عن شيء «أنه كريم» و«أنه جواد» و«أنه محسن» فلا يمكن أن يُعرِّف اللهَ، لكن «الله» هو الذي يُعرِّف هذه الأسماء، فنقول: «الله جواد كريم، غفور رحيم».

وفي هذا: بيان عظم اسم «الله»، وأنه اسم عظيم، وأنه أعرف المعارف، وأنه الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال، المشتمل على صفات الألوهية، ومعنى «الله»: المألوه كما **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: «الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»[1]، فالله هو المألوه الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وتوكلًا وتعلُّقًا، وليس هذا لغير لفظ الجلالة.



(١) أخرجه الطبري في «التفسير»(١/ ٥٤).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والذين أشركوا به تعالى في الربوبية منهم من أثبت معه خالقًا آخر وإن لم يقولوا إنه إله مكافئ له، وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدريَّة، وربوبيته سبحانه للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة تُبطِل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال».

الشَّرْح

○ قوله: «**والذين أشركوا به تعالى في الربوبية منهم من أثبت معه خالقًا آخر**» ومنهم من لم يُثبت، والذين أثبتوا خالقًا آخر «**وإن لم يقولوا إنه إله مكافئ له**»، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم ولا نُقِلَ عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا: «إن هذا العالم له خالقان متماثلان» حتى **المجوس** القائلين بالأصلين النورِ والظلمة متفقون على أن النور خير يستحقُّ أن يُعبد ويُحمد، وأن الظلمة شريرة تستحقُّ أن تُذم وتُلعن، واختلفوا هل الظلمة مُحدَثة أو قديمة؟، على قولين، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه»[(١)].

○ قوله: «**وهم المشركون**» وكذلك **النصارى** الذين يقولون بالتثليث، ويقولون بأن الآلهة ثلاثة الله وعيسى ومريم ـ تعالى الله عن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٥).

قولهم علوًّا كبيرًا ـ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومع كونهم يقولون بالتثليث لا يقولون بتساوي هذه الثلاثة، فيقولون: «الأب والابن وروح القدس»، ويقولون: «باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد»[(١)]، فهم متناقضون ومختلفون، وأحيانًا يقولون ثلاثة بالأقانيم وواحد بالأشخاص، يعني: ثلاثة ممتزجة، ومع ذلك لا يقولون بتساويها، بل يقولون: إن الأب هو الإله الأكبر، وهو خالق السماوات والأرض، فلم يقولوا بتساويها، فإن قالوا بالتعدد والإشراك بالربوبية إلَّا أنهم لم يقولوا بالتساوي.

○ قوله: «**ومن ضاهاهم**» أي: ماثلهم «**من القدريَّة**» فالقدرية المجوسية هم الذين يجعلون لله شركاء في خلقه كما جعل الأولون لله شركاء في عبادته، فيقولون: خالق الخير غير خالق الشر[(٢)]، فأثبتوا خالقين مع الله لكنهم لم يقولوا إنهما مساويان لله، ولهذا سُمُّوا «مجوس هذه الأمة».

والمعتزلة وافقوا **القدَرِيَّة**، فهم معتزلة في الصفات قدرِية في الأفعال، **يقولون**: إن العبد هو الذي يخلق الخير والشر والطاعات والمعاصي[(٣)]، وذلك لشبهة حصلت لهم، **قالوا**: لو قلنا إن الله خلق الطاعات والمعاصي لزم من ذلك أن يخلق المعصية ويُعذِّب عليها فيكون ظالمًا، ففرارًا من ذلك **قالوا**: إن العبد هو الذي يخلق المعصية ويخلق الطاعة، ولهذا يستحق الثواب على الله كما يستحق

(١) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٢٠، ٢٢١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٥٨).
(٣) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٤٦، ٤٧).

الأجير أجره على الطاعة، والمعصية يجب على الله أن ينفذ فيه وعيده وليس له أن يعفو عنه، وهذا يُسمُّونه «إنفاذ الوعيد»، وهو أصل من أصول **المعتزلة**.

والمعتزلة لهم أصول خمسة استبدلوها بأصول الدين عند **أهل السنة**، فأصول الدين عند **أهل السنة** خمسة، الإيمان بالله ـ ويدخل في ذلك: الإيمان بالقدر ـ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

والمعتزلة جاؤوا بدلها بأصول أخرى هي: التوحيد والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والتوحيد ستروا تحته: نفي الصفات، والقول بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الآخرة.

والعدل ستروا تحته: التكذيب بالقدر والقول بأن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه.

والمنزلة بين المنزلتين وذلك بقولهم أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، فيكون بمزلة بين المنزلتين، فلا مؤمن ولا كافر.

وإنفاذ الوعيد ستروا تحته: القول بأنه يجب على الله بأن يعذب العاصي وليس له أن يعفو عنه، فعندهم أن فُسَّاق المِلَّةِ مخلدون في النار لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك، كما تقوله **الخوارج**.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ستروا تحته: لخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف[١].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

فالمجوس القائلين بالأصلين النورِ والظلمة **والمُثلَّثة من النصارى** وكذلك **القدرِيَّة** هؤلاء أشركوا في الربوبية، لكنهم لم يقولوا أن هذه الآلهة المتعددة وهؤلاء الأرباب متساوون في الصفات والأفعال، بل يُفضلون بعضها على بعض، وكذلك **ملاحدة الفلاسفة الدَّهرية** الذين يزعمون أن المُؤثِّر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية(١) لم يقولوا إنها مكافئة، وإنما يقولون إن لها نوع من التَّصرُّف.

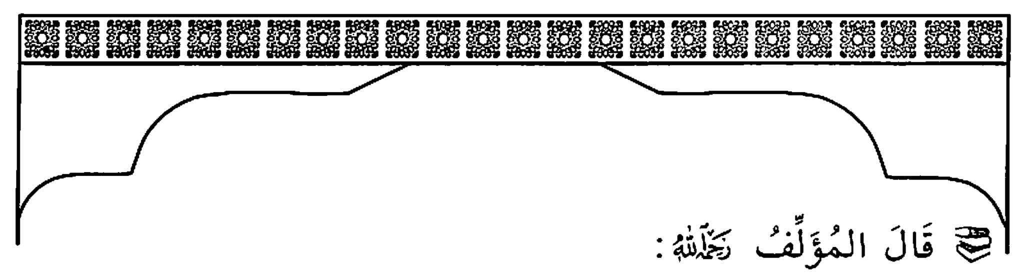
○ قوله: «**وربوبيته سبحانه للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة تُبطِل أقوالهم**» أي: تُبطِل أقوال الذين أشركوا بالله في الربوبية، فتُبطِل أقوال **المجوس** القائلين بالأصلين، **والمُثلَّثة من النصارى، والقدرِيَّة، وملاحدة الفلاسفة الدَّهرية**؛ لأن ربوبية الله كاملة مطلقة شاملة.

○ قوله: «**لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات**» كذات الإنسان، وذوات الحيوانات، وذوات الجنِّ، وذوات السماوات، وذوات الأراضين، وذوات النبات فربوبية الله شاملة لهم «**والصفات**» كصفات الإنسان، وصفات الحيوانات من الحرارة والبرودة، والرطوبة والملوحة واليبوسة، فربوبية الله تشملها، «**والحركات**» حركات الإنس، وحركات الجنِّ، وحركات الجمادات، كلها داخلة في الربوبية، «**والأفعال**» أفعال الإنس، وأفعال الجنِّ، وأفعال الحيوانات، فربوبيته سبحانه للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة، وتُبطِل أقوال من أشرك في ربوبيته سبحانه.



---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٦٧، ١٦٨).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وحقيقة قول القدرِيَّة المجوسية: أنه تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان، ولا تتناولها ربوبيته؛ إذ كيف يتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟!».

الشَّرْح

القدريَّة سُمُّوا بذلك لإنكارهم القدر، والقدر مبني على أصول أربعة، من لم يُؤمن بها لم يُؤمن بالقدر، وهي:

الأصل الأول: الإيمان بعلم الله الشامل.

الأصل الثاني: الإيمان بكتابة الله للأشياء في اللوح المحفوظ.

الأصل الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وإرادته.

الأصل الرابع: الإيمان بخلقه للأشياء.

أصول الإيمان به أربع، **الأول**: **العلم**، **الثاني**: **الكتابة**، **الثالث**: **المشيئة والإرادة**، **الرابع**: **الخلق والإيجاد**، وجُمِعَت اختصارًا في بيت واحد، وهو قوله:

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

الأصل الأول: **العلم**، والمراد: الإيمان بعلم الله الأزلي، وأن الله عَلِمَ ما كان في الماضي والأزل، والأزل: الذي لا بداية لأوله، والله هو الأول بذاته وصفاته، فهو الأول الذي ليس لِأَوَّلِيَّتِهِ بداية، وهو الآخر الذي ليس لِآخِرِيَّتِهِ نهاية، والله يعلم ما كان في الماضي والأزل، ويعلم ما يكون في الحاضر والمستقبل، ويعلم ما لم يكن

لو كان كيف يكون، فعلم الله يتناول هذه الأمور، ولا بُدَّ من الإيمان بذلك كله.

والدليل على كونه سبحانه يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون: أن الكفار حين يوقفون بين يدي الله يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: ٣٧]، فهذا من علمه سبحانه بما لم يكن لو كان كيف يكون، ولو رُدُّوا ماذا يحصل منهم؟، كما قال الله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال الله أيضًا عن المشركين: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣] فهو يعلم أنه لو أسمعهم وأفهمهم لتولَّوا عن ذلك قصدًا وعِنادًا بعد فهمهم ذلك، وقال تعالى عن المنافقين الذين تخلَّفوا عن المؤمنين غزوة تبوك: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧] فذكر الحكمة في ذلك أنهم كانوا حريصين على خذلانهم، وإلقاء الشَّرِّ بينهم، وتثبيطهم عن أعدائهم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم، فما ظنك بالشَّرِّ الحاصل من خروجهم مع المؤمنين؟، فثبطهم الله ومنعهم من الخروج مع عبادة المؤمنين رحمة بهم.

الأصل الثاني: الكتابة، والمراد: الإيمان بأن الله كتب كل

شيء في اللوح المحفوظ، كتب الذوات والصفات والأفعال والحركات والسكنات والسعادة والشقاوة والفقر والغنى والعِزّ والذُلّ حتى العجز والكسل، فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ.

ومن الأدلة على هاتين المرتبتين ـ العلم والكتابة ـ: قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٠] وهو اللوح المحفوظ، وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ إثبات العلم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ إثبات الكتابة، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] وهو اللوح المحفوظ، وفيه ذكر المرتبتين، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢] وهو اللوح المحفوظ، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢] وهو اللوح المحفوظ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وفي «صحيح البخاري»[1] عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيم، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى[2] يا بَنِي تَمِيم»، قَالُوا: «قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ»، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ**»، قَالُوا: «قَدْ قَبِلْنَا يَا

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب «ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الرُّوم: ٢٧]»، رقم (٣١٩١).

(٢) أي: أقبلوا مني ما يقتضي أن تُبشَّروا إذا أخذتم به بالجنة كالفقه في الدين والعمل به. «فتح الباري» (٦/ ٢٨٨).

رَسُولَ اللهِ»، قَالُوا: «جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ[(١)]»، قَالَ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**»، وقوله «**وَكَتَبَ**» أي: قَدَّرَ«**فِي الذِّكْرِ**» أي: في محل الذِّكْرِ، أي: في اللوح المحفوظ «**كُلَّ شَيْءٍ**» أي: من الكائنات، وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»، قَالَ: «**وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»، وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»، قَالَ: «رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟»، قَالَ: «اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»»[(٣)]، وفي لفظ: «**فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[(٤)].

الأصل الثالث: **المشيئة والإرادة**، والإرادة نوعان:

١- **إرادة شرعية دينية** تتضمن محبته ورضاه.

٢- **إرادة كونية قدرية** تتضمن خلقه وتقديره، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ

---

(١) أي: الحاضر الموجود. «فتح الباري» (٦/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب القدر، رقم (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي، كتاب القدر، باب «ما جاء في الرضا بالقضاء»، رقم (٢١٥٥).
قال الترمذي: «وهذا حديث غريب من هذا الوجه».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧).

﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الأصل الرابع: **الخلق والإيجاد**، وهو الإيمان بأن خلق كل شيء في هذا الكون الخير والشَّرَّ والطاعاتِ والمعاصي والإيمان والكفر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصَّافات: ٩٦]، فالله تعالى خالق العباد وخالق أعمالهم.

هذه الأصول الأربع للإيمان بالقدر، ومن لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر، وقد آمن بها **أهل السنة والجماعة** أهل الحقِّ وَفَّقهم الله، فآمنوا بهذه الأصول الأربع، فآمنوا **بعلم الله** الأزلي والحاضر والمستقبل وما لم يكن لو كان كيف يكون، وآمنوا **بكتابة الله للأشياء** في اللوح المحفوظ، وآمنوا **بإرادة الله ومشيئته** بكل شيء وقع في هذا الكون، وآمنوا **بخلق الله** لجميع الأشياء.

والقدريَّة طائفتان:

الطائفة الأولى: الغلاة الذين أنكروا المرتبتين الأوليين العلم والكتاب، فأنكروا علم الله بالأشياء قبل كونها، **قالوا**: «إن الله لا يعلم بالشيء حتى يقع، فإذا وقع عَلِمَه» فنسبوا الجهل إلى الله، وكذلك أنكروا أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ[1]، وهذا كفر وضلال، وقد كَفَّرَهم **العلماء**.

والقدريَّة الأُوَل ظهروا في أواخر عصر الصحابة، وكانوا يطلبون العلم في البصرة فأنكر قولهم أهل العلم، وسألوا الصحابة، ومن ذلك: ما رواه مسلم في «صحيحه»[2] عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ:

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٢٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨).

كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ «مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ»، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: «لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: «أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ[1]»، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ «وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ[2]»، قَالَ: «**فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ**»، وهذا الذى قاله ابن عمر رضي الله عنهما ظاهر في تكفيره **القدريَّة**[3]؛ **فالذي لا تُقبل أعماله الكافر كما قال تعالى:** ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،

---

(١) هو بتقديم القاف على الفاء، ومعناه: يطلبونه ويتتبعونه، هذا هو المشهور، **وقيل**: معناه: يجمعونه، ورواه بعض شيوخ المغاربة من طريق ابن ماهان «**يتفقرون**» بتقديم الفاء وهو صحيح أيضًا، معناه: يبحثون عن غامضه ويستخرجون خفيه. شرح النووي على «صحيح مسلم» (١/ ١٥٥).

(٢) هو بضم الهمزة والنون، أي: مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه، وهذا القول قول غلاتهم وليس قول جميع القدرية، وكذب قائله وضل وافترى، عافانا الله وسائر المسلمين. شرح النووي على «صحيح مسلم» (١/ ١٥٦).

(٣) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١/ ١٥٦).

حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: «صَدَقْتَ»، **قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ**، قَالَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ»، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: «صَدَقْتَ»،...، قَالَ: **ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»**، قُلْتُ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»، ولهذا حكم **العلماء بكفر القدريَّة الأُوَلِ**، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ناظِروا القدريَّة بالعلم، فإن أقرُّوا به خصموا، وإن أنكروا كفرا»[١].

وهؤلاء القدريَّة الأُوَلِ قد انقرضوا، وهم كفار، وقد أخرج **العلماء القدريَّةَ الأُوَل** من الثنتين والسبعين فرقة الذين ذكرهم النبي ﷺ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[٢]، **فأخرجوهم؛**

---

(١) شرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٣٠٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب «افتراق الأمم»، رقم (٣٩٩٣)، وأحمد (٣/ ١٢٠).

قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي على شرط الصحيح». «البداية والنهاية» (١٩/ ٣٧).

ولَمَّا سُئِلَ **شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحديث قال**: «الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم». «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٥).

لكفرهم وضلالهم مثل الجهمية والرافضة.

الطائفة الثانية: المقتصدون أو **عامة القدريَّة**، أثبتوا علم الله فآمنوا بالعلم وبكتابة الله في اللوح المحفوظ وآمنوا أيضًا بالإرادة والمشيئة وبالخلق والإيجاد، إلَّا أنهم أنكروا عموم المشيئة والخلق[١]، فيُنكِرون عموم المرتبتين الأخريين، زعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر، فردوا إلى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعَذَّبَه عليه، ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه؛ فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى، وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه بل هو مخالف للدليل[٢]، لهذه الشبهة التي حصلت لهم لم يُكفِّرهم **العلماء**، بل قالوا: إنهم مبتدعة، ولهذا ثبت عن **كثير من السلف** وصف **القدرية** المُنكِرين لخلق أفعال العباد بأنهم «مجوس هذه الأمة»[٣]؛ حيث زعموا مع الله خالقين وهم العباد الذين يخلقون أفعالهم.

والقدريَّة محجوجون حتى من الكفرة، ولتسمع هذه القصة، روي أنه اصطحب مجوسيٌّ وقدريٌّ، فقال القدريُّ للمجوسيِّ: «ما لك لا تُسلِم؟»، قال: «إذا شاء الله ذلك أسلمتُ»، قال له القدريُّ: «قد شاء الله أن تُسلِمَ، ولكن الشيطان لا يدعك»، فقال المجوسيُّ: «فأنا مع أقواهما»، فرجع القدريُّ عن مقالته[٤]، فهم محجوجون

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٨٥).
(٢) شرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٢٧٧).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧١).
(٤) «الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» لأبي الحسين العمراني (٢/ ٥٢٤).

حتى من أعدائهم.

والله تعالى لحكمة وأسرار خلق المعصية، ولا يُنسب الشَّرُّ ولا المعصية إليه سبحانه، ولا تُسمَّى شر بالنسبة إلى الله، بل بالنسبة إلى العبد؛ لأنه هو الذي باشرها وعَمِلَها فضرَّتُه وعُذِّبَ بها، والذي يُنسب إلى الله هو الخلق، والخلق مبني على الحكمة، وهذا هو معنى قوله كما في «صحيح مسلم»[1] عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كان يقول في افتتاح الصلاة: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»، فالشَّرُّ المحض الذي لا حكمة في إيجاده لا يُنسب إلى الله.

ومن الحِكم في خلق الله المعاصي والكفر:

١- ظهور قدرة الله ﷻ على إيجاد المتقابلات، فهذا الكفر في مقابل الإيمان كما أن الليل في مقابل النهار والشَّرَّ في مقابل الخير، وهكذا.

٢- ما يترتب على خلق المعاصي والكفر من الحِكم والأسرار والعبوديات المتنوعة التي يُحبها الله ويرضاها، فلولا خلق الله للمعاصي والكفر لفاتت عبوديات عظيمة محبوبة لله، فالله تعالى أراد وجود المعاصي والكفر لا لذاتها بل لما يترتب عليها من الحِكم والعبوديات المتنوعة التي يحبها الله، ولله المثل الأعلى: تجد المريض إذا جاء للطبيب ثم صرف له دواءً مُرًّا علقمًا فإنه يُقدِم عليه ويشربه؛ لأنه يعلم أن فيه شفاءه، فهو مراد لا لذاته بل لغيره، وهكذا المطر الذي يُنبِت الله به الزرع وتحيى به البلاد والعباد وتمتلئ الآبار وترعى الدوابُ النباتَ ويحصل فيه خير عظيم، لكن قد

(١) تقدم تخريجه.

يحصل فيه شرٌّ لبعض الناس، فقد تتهدم بعض المنازل وقد يغرق بعض الناس في الوادي ويموت، فالله تعالى أراد وجود هذه المعاصي وخلقها لما يترتب عليها من الِحكم لا لذاتها؛ لما يترتب عليها من الحِكم والعبوديات المتنوعة، فالذي يُضاف إلى الله هو الخلق، وهو مبني على الحكمة، فلا يكون شرًّا بل يكون خيرًا، ولكنها شرٌّ بالنسبة للعبد الذي باشرها وفعلها وكسبها فضرَّتْهُ وساءته، ولكنها خير بالنسبة لخلقها.

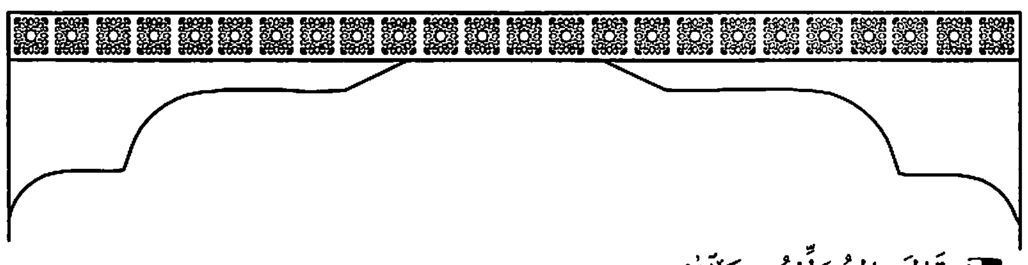
○ قوله: «**وحقيقة قول القدريَّة المجوسية...**» سُمُّوا «مجوسية» نسبة إلى **المجوس**، **والمجوس** يقولون بخالقين، خالق الخير النور، وخالق الشر الظلمة[1] والقدريَّة يقولون كل واحد يخلق فعل نفسه[2]، فنُسِبُوا إلى **المجوس** لاتفاقهم معهم في القول بتعدُّدِ الخالق، **قال العلماء**: وقول **القدريَّة** أردأ من قول **المجوس**؛ من جهة أن **المجوس** ما أثبتوا إلا خالقين، والقدريَّة جعلوا مع الله شركاء كثيرًا؛ فالخلق عندهم خالقون لأفعالهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن **المجوس** كفار **والقدريَّة** مبتدِعة.

○ قوله: «**أنه تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان**» يعني: الثقلين الجنِّ والإنس «**ولا تتناولها ربوبيته**» لأنه لم يخلقها؛ «**إذ كيف يتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟!**» لأن **القدريَّة** يقولون أن الرَّب لم يشأ أفعال العباد ولا خلقها ولا قَدَّرها، والذي يخلقها العبد مستقلًا، وتقدَّم ذكر شبهتهم.



---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص ٤٢).
(٢) «مجموع الفتاوى»(٨/ ٤٠٦، ٤٠٧).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وشرك الأمم كلُّهُ نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية.

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عُبَّاد الأصنام، وعُبَّاد الملائكة، وعُبَّاد الجنِّ، وعُبَّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات، الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، ويشفعوا لنا عند الله، وينالُنا بسبب قربِهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة كما هو المعهود في الدنيا من أصول الكرامة والزُّلفَى لِمَنْ يخدم أعوان المَلِكِ وأقاربه وخاصته.

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تُبطِل هذا المذهب وتردُّهُ، وتُقبِّحُ أهله، وتَنصُّ على أنهم أعداء الله تعالى، وجميع الرُّسُل صلوات الله عليهم مُتَّفِقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك الله تعالى مَنْ أهلك مِنَ الأمم إلَّا بسبب هذا الشِّرك ومِنْ أجله».

الشَّرْح

○ قوله: «وشرك الأمم كلُّهُ نوعان» الشِّرك في اللغة: النصيب[1]، ومنه: حديث «الصحيحين»[2] عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ شِرْكًا لَهُ فِي مَمْلُوكٍ» أي: نصيبًا، ومنه:

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة»(١٠/ ١٣)، و«لسان العرب»(١٠/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب «الشركة في الرقيق»، رقم (٢٥٠٣)، ومسلم، كتاب العتق، رقم (١٥٠١).

قول ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ الْهَدْيِ: «**فِيهَا جَزُورٌ أَوْ بَقَرَةٌ أَوْ شَاةٌ أَوْ شِرْكٌ فِي دَمٍ**»(١).

وفي الشرع: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، وهذا يشمل الشِّرك في الربوبية، والشِّرك في الألوهية، والشِّرك في الأسماء، والشِّرك في الصفات، والشِّرك في الأفعال.

والشِّرك الأصغر: ما ورد تسميته من الذنوب شركًا ولم يصل إلى حدِّ الشِّرك الأكبر، يعني: لم يكن شركًا في العبادة ولا نقيضةً من نواقض الإسلام كالحلف بغير الله، **وقيل**: الشِّرك الأصغر ما كان وسيلة إلى الشِّرك الأكبر، ويمكن الجمع بينهما بأن يُقال: الشِّرك الأصغر ما ورد تسميته شركًا من الذنوب أو كان وسيلة إلى الشِّرك الأكبر.

والكفر في اللغة: الستر، وكل من ستر شيئًا فقد كَفَرَهُ، والكافر: الزارع؛ لستره البذر(٢).

وفي الشرع: جحد حقِّ الله وهو التَّوحيد، أو جحد أمر معلوم من الدين بالضرورة.

واختلف **العلماء** هل الشِّرك والكفر شيء واحد أو شيئان؟، **فقيل**: هما شيء واحد، فالكافر مشرك والمشرك كافر، فالمشرك مشرك؛ لأنه عَبَدَ غير الله معه، وهو كافر؛ لأنه جحد توحيد الله وجحد الحقَّ، ومن جحد حقَّ الله فهو كافر، وهو مشرك؛ لأنه عَبَدَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب «﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦]»، رقم (١٦٨٨).

(٢) «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده (٧/ ٤).

الهوى وعَبَدَ الشيطان، فالكافر مشرك، والمشرك كافر، والشرك كفر، والكفر شرك، **وقيل**: بينهما فرق، **قالوا**: لأن الله فَرَّقَ بينهما وعطف إحداهما على الآخر في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: ١] فعطف المشركين على الذين كفروا، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة: ٦].

والكفر هو الجحود، والكافر: هو الذي لا دين له، أو جحد أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة وجوبه كأن يجحد وجوب الصلاة أو الزكاة أو الحج أو الصوم، أو يجحد أمرًا معلومًا من الدين من الضرورة تحريمه كأن يجحد تحريم الزنا أو الربا أو الخمر، أو يكون مُعرِضًا عن الدين.

والمشرك سَوَّى غير الله بالله، دعا غير الله، دعا الصنم، أو عَبَدَ الله وعَبَدَ الصنم فهو عابد لله بخلاف الكافر؛ فهو لا دين له، فالشرك أخفُّ من الكفر على هذا، لكن كل مشرك كافر مُخلَّد في النار، فالشرك الأكبر عبادة غير الله معه أو صرف شيء من العبادة لغير الله، بخلاف الكافر الجاحد الذي لا دين له أشد، وكل منهما مُخلَّد في النار على هذا القول.

○ قوله: «**وشرك الأمم كلُّهُ نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية**» أدخل المؤلف رحمه الله الشرك في الربوبية وفي الأسماء والصفات وجعلهما نوعًا واحدًا؛ لأن توحيد الربوبية والأسماء والصفات واحد عند المتقدِّمين **كشيخ الإسلام ابن تيمية**[1] **وابن القيم**[2] **رحمهما الله**،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/١٠٧).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/٤٤٩).

وهو إثبات الحقيقة لذات الرَّبِّ وأسمائه وصفاته وأفعاله.

والشِّرك في الأسماء والصفات، مثل: اشتقاق المشركين اسم الأصنام من أسماء الله، كاشتقاقهم اسم «مناة» من المنان و«العزى» من العزيز و«اللات» من الإله، فالشِّرك يكون في الربوبية وفي الأسماء والصفات، فجعلها واحدًا، والثاني: شرك في الإلهية، فكان نوعان، وعلى القول بأن أقسام التَّوحيد ثلاثة يصير الشرك ثلاثة أنواع: شرك في الألوهية، وفي الربوبية، وفي الأسماء والصفات.

ثم تكلَّم **المؤلف** رحمه الله عن الشِّرك في الإلهية، وسيتكلم عن الشِّرك في الربوبية فيما بعد.

○ قوله: «**فالشِّرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك**» الإلهية هي العبادة، والشِّرك في العبادة هو الغالب على أهل الإشراك؛ لأن الغالب عليهم أنهم لا يُشركون في الربوبية ولا في الأسماء والصفات؛ لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فطريٌّ كما تقدَّم، لكن هناك من أشرك في الربوبية **كالفلاسفة والاتحادية وبعض عُبَّاد النجوم وبعض المشركين وغيرهم**، لكن هذا قليل، فالغالب الشِّرك في العبادة والألوهية، وأما في الربوبية فهو قليل؛ لأن الله فطر الخلق على توحيده في ربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولهذا بُعِثَ الرُّسُل بتوحيد العبادة والإلهية، ولم يُبعثوا بتوحيد الربوبية.

○ قوله: «**وهو شرك عُبَّادِ الأصنام**» وعُبَّادُ الأصنام لا يعتقدون أن الأصنام تخلق أو ترزق أو تحيي أو تُمِيت أو تضرُّ أو تنفع، بل عبدوها يرجون شفاعتها وبركتها، ولأنها تقربهم إلى الله، فأشركوا في عبادة الله فعبدوا الأصنام وصرفوا لها من أنواع العبادة كالدعاء

والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة، فإذًا شرك **عُبَّادِ الأصنام** في الإلهية.

○ قوله: «**وعُبَّادِ الملائكة**» كذلك شرك في الإلهية؛ لأنهم لا يعتقدون أن الملائكة تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت أو تضرُّ أو تنفع، إنما عبدوها لتُقرِّبهم إلى الله، كذلك «**وعُبَّادِ الجنِّ**» فالذين عبدوا الجنَّ أشركوا في العبادة، ويعتقدون أن الجنَّ لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت ولا تضرُّ ولا تنفع، لكن يزعمون أنها تُقرِّبهم إلى الله، وكذلك «**وعُبَّادِ المشايخ**» شيوخ الصوفية الذين يعبدونهم، وكذلك «**والصالحين الأحياءِ والأمواتِ**» الذين يعبدون الصالحين أحياءً وأمواتًا «**الذين قالوا**» يعني: حينما عبدوهم: «﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]»، يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الزُّمَر: ٣] يتولونهم ويعبدونهم من دون الله يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ قربة ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا[1] «ويشفعوا لنا عند الله» يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونس: ١٨]، وهذا كله شرك في العبادة.

الذين عبدوا الأصنامَ والملائكةَ والجنَّ والذين عبدوا مشايخَهم والصالحين من الأحياء والأموات كلهم أشركوا في توحيد الإلهية؛ لأنهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده.

○ قوله: «**وينالُنا بسبب قربِهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة**» فقالوا: «هؤلاء الصالحون لهم كرامة وبركة سينالنا من كرامتهم

---

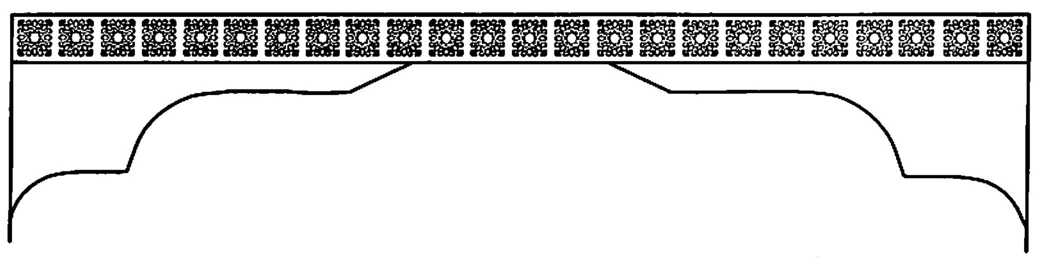
(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٩١).

وبركتهم» «كما هو المعهود في الدنيا من أصول الكرامة والزُّلفَى لِمَنْ يخدم أعوان المَلِكِ وأقاربه وخاصته» فمن يكون قريبًا من الملوك من أعوانهم وأقاربهم وخاصتهم يستفيد منهم،فيشفعوا له ويحصل له الخير فشبَّهوا الله بخلقه، وجعلوا الله مثل الملوك.

ثم بين المؤلف رحمه الله: «أن الكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تُبطِل هذا المذهب وتردُّهُ، وتُقبِّحُ أهله، وتَنصُّ على أنهم أعداء الله تعالى، وأن جميع الرسل صلوات الله عليهم مُتفِقون على ذلك من أولهم إلى آخرهم، وأنه ما أهلك الله تعالى مَنْ أهلك مِنَ الأمم إلَّا بسبب هذا الشرك ومِنْ أجله».







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وأصله: الشِّرك في محبة الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]، فأخبر تَعَالَى أنه من أحبَّ مع الله شيئًا غيره كما يحبه فقد اتَّخذه نِدًّا من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعَام: ١]، والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في الحبِّ والعبادة، وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨]، ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم؛ فإنهم كانوا - كما أخبر الله عنهم - مُقرِّين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم، وأنه تَعَالَى هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يُجِير ولا يُجَار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة، فمن أحبَّ غير الله تعالى وخافه ورجاه وذلَّ له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه فهذا هو الشِّرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير الله آثر عنده منه وأحب إليه وأخوف عنده وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله؟!، فإذا كان المسوِّي بين الله وبين غيره في ذلك مُشرِكًا فما الظَّنُّ بهذا؟!.

فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التَّوحيد والإسلام كانسلاخ الحيَّة من قشرها وهو يظن أنه مسلم مُوحِّد، فهذا أحد أنواع الشِّرك».

الشَّرْح

○ قوله: «**وأصله: الشِّرك في محبة الله**» بَيَّنَ المؤلف رحمه الله أن أصل الشِّرك في العبادة: الشِّرك في محبة الله، «**قال تعالى**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]» ويعني: أمثالًا ونظراء، يعني: يُساوونهم بالله في المحبة والتعظيم والإجلال، «**فأخبر** ﷻ» في هذه الآية «**أنه من أحبَّ مع الله شيئًا غيره كما يحبه فقد اتَّخذه نِدًّا من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله**» وقد تقدم الكلام على معنى الآية وذكر القولين في معناها، وكلام المؤلف في المراد بالآية منقول من **ابن القيم** رحمه الله(١)، وهو ترجيح **شيخ الإسلام ابن تيمية** فيما نقله عنه تلميذه **ابن القيم** رحمهما الله ويقول: إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له(٢)، يرجحه أيضا أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

○ قوله: «**وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى**: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعَام: ١]» وفي قوله تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٠]، يعني: يجعلون لله عدلًا ومثيلًا ونظيرًا

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» (٢٢٩)، و«جلاء الأفهام» (١٨٦)، و«طريق الهجرتين» (٢٩٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٢١).

ومساويًا في المحبة والتعظيم والإجلال، «**والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في الحبِّ والعبادة**» وهذا أيضا منقول من ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ولفظه: «وأصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة»[١]، وقال أيضا: «وأصح القولين أن المعنى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيجعلون له عدلا يحبونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه»[٢].

○ قوله: «**وكذلك**» هذا هو الشِّرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين بربِّ العالمين كما أخبر الله عنه «**قول المشركين في النار لأصنامهم**: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨]» هكذا يلعن بعضهم بعضًا كما قال الله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العَنكبوت: ٢٥]، فهم في النار.

اجتمع العابدون والمعبودين ـ نعوذ بالله ـ يتحسَّرون، فيقول العابدون للمعبودين: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ فاعترفوا بأنهم في ضلال وبُعدٍ عن الحقِّ والصواب؛ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾، فكيف نُسوِّيكم ونجعلكم مساويين لربِّ العالمين في المحبة والتعظيم والإجلال؟!، ثم قال: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٩-١٠١]، ليس لهم إلا النار ـ نعوذ بالله ـ، من مات على الشِّرك فلا حيلة في إخراجه من النار، ولا حيلة في دفع النار عنه حتى لو اجتمع أهل الأرض على

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٢٠).

أن يُنقِذوه ما استطاعوا، ولو كان عنده ملء الأرض ذهبًا ليفدي به نفسه من عذاب الله ما استطاع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٦-٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١]، فمن مات على الشِّرك لا حيلة فيه، ومحكوم عليه بالنار، والجنة عليه حرام، وهو مُخلَّد في النار أبد الآباد، ولا يستطيع أحد أن يُنقِذه من عذاب الله.

ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين، حتى ولو كان الشافع من أوجه الناس، فإبراهيم عليه السلام أفضل الناس بعد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام مات أبوه آزر على الشِّرك، وقد دعاه إلى التَّوحيد والإسلام في الدنيا، لكن لم يُقَدِّرِ الله له الهداية لِحِكمة بالغة، وقد تلطَّف إبراهيم عليه السلام في خطابه له، وبَيَّنَ له بطلان عبادة الأصنام والأوثان، وأنها لا تنفع ولا تضر ولا تبصر ولا تسمع، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٥]، أعظم نصيحة وجهها له، وتلطَّف في الخطاب، فقال له آزر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦]، فقال إبراهيم عليه السلام له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧]

هذا وعد، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وفي «صحيح البخاري»[(١)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟»، فَيَقُولُ أَبُوهُ: «فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ»، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: «يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ[(٢)]؟!»، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»، ثُمَّ يُقَالُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ»، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ[(٣)] فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»، فمن مات على الشِّرك فلا حيلة فيه.

اجتمع العابدون والمعبودين ـ نعوذ بالله ـ يتحسرون، فيقول العابدون للمعبودين: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: ٩٦-١٠١]، ثم تمنوا رجعة للدار

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب «قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ [التوبة: ١١٤]»، رقم (٣٣٥٠).

(٢) وصف نفسه بالأبعد على طريق الفرض إذا لم تقبل شفاعته في أبيه، **وقيل**: الأبعد صفة أبيه، أي: أنه شديد البُعد من رحمة الله؛ لأن الفاسق بعيد منها فالكافر أبعد، **وقيل**: الأبعد بمعنى: البعيد، والمراد: الهالك. «فتح الباري» (٨/ ٥٠٠).

(٣) **قال ابن حجر**: ««الذيخ» بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة: ذكر الضِّبَاع، **وقيل**: لا يُقال له «ذيخ» إلا إذا كان كثير الشعر.

وقوله «متلطخ» **قال بعض الشراح**: أي: في رجيع أو دم أو طين، وقد عينت الرواية الأخرى المراد، وأنه الاحتمال الأول حيث قال: «**فيتمرغ في نتنه**»». «فتح الباري» (٨/ ٥٠٠).

الدنيا، قال تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾ [الشعراء: ١٠٢]، لو أن لنا رجوعًا للدنيا لنعمل صالحًا فنكون من المؤمنين، وقد بَيَّنَ الله سبحانه أنه لا يمكن أن يُردُّوا.

○ قوله: «**ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربهم وخالقهم**» فالتسوية في قول الله تعالى عنهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، تسوية في المحبة والتعظيم، وليست تسوية في الربوبية، فهم ما جعلوهم مثل الله يخلقون ويَرزقون، وما قالوا أنهم أرباب مع الله، ولكنهم ساووهم بالله في المحبة والتعظيم.

○ قوله: «**فإنهم**» أي: الدليل على أنها ليست تسوية في الربوبية والخلق أنهم «**كانوا كما أخبر الله عنهم**» والضمير يعود إلى المشركين «**مُقرِّين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم، وأنه ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يُجِير ولا يُجَار عليه**» يشير **المؤلف** رحمه الله إلى الآيات في سورة «المؤمنون»، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، إذًا فهم مُقِرُّون بتوحيد الربوبية.

○ قوله: «**فمن أحبَّ غير الله تعالى**» يعني: محبة العبادة والطاعة والتعظيم، أما من أحبَّ غيره محبة طبيعية فلا محذور فيها، كما يُحب الإنسان المال والصديق، وكما يحب ولده وأباه، وكما

يحب الطعام والشراب، وكالمحبة التي بين المتآلفين وما أشبه ذلك فهذه محبة طبيعية، لكن الضرر هنا محبة العبادة التي تقتضي الذل والخضوع وامتثال الأوامر واجتناب النواهي «**وخافه ورجاه وذلَّ له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه فهذا هو الشِّرك الذي لا يغفره الله**» كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨] «**فكيف بمن كان غير الله آثر عنده منه**» يعني: يُؤثِره على الله «**وأحب إليه وأخوف عنده وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله؟!**» إذا كان الذي يُحب غير الله كمحبة الله ويخافه كخوف الله ويرجوه كرجاء الله مشرك فالذي يُحب غير الله أكثر من محبة الله أشدُّ وأعظم شركًا.

○ قوله: «**فإذا كان المسوِّي بين الله وبين غيره في ذلك مُشرِكًا فما الظَّنُّ بهذا؟!**» اسم الإشارة يعود إلى الذي آثر غير الله وأحب إليه وأخوف عنده وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله، فإذا كان المسوِّي بين الله وبين غيره في المحبة والتعظيم والخوف والرجاء مُشرِكًا فما الظَّنُّ بهذا الذي آثر غير الله على الله في المحبة والخوف والرجاء؟!.

○ قوله: «**فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التَّوحيد والإسلام كانسلاخ الحيَّة من قشرها**» نسأل الله السلامة والعافية، فالذي يُحب غير الله محبة عبادة وتعظيم وطاعة ويذل له ويخضع هذا انسلخ من التَّوحيد والإسلام، فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التَّوحيد والإسلام فيجعل لله نِدًّا فيحبه ويخافه ويرجوه كما يحب الله، فهذا قد انسلخ من التَّوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها «**وهو يظنُّ أنه مسلم موحِّد**» فبعض الناس هكذا، يجعل لله نِدًّا في العبادة يدعوه

من دون الله، ويذبح له، وينذر له، يُناديه: «يا فلان»، «يا عيدروس»، «يا ابن علوان»، «يا حسين»، «يا زينب»، «يا بدوي»، «يا رسول الله»، «يا شمس»، «يا قمر»، أو ينادي المَلَكَ أو النجوم فيُسوِّيهم بالله محبة وتعظيمًا وعبادة وطاعة فينسلخ من التَّوحيد والإسلام وهو يظنُّ أنه مسلم مُوحِّد!!.

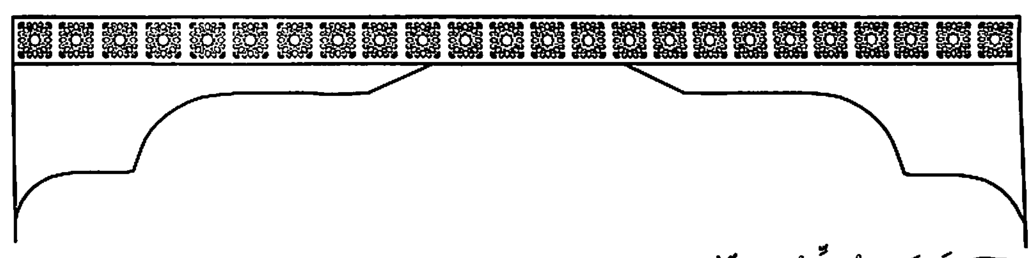
تجد الآن بعض عُبَّادِ القبور إذا نهيته عن الشِّرك ودعاء غير الله والذبح والنذر لغيره، وقلت: «يا فلان هذا شرك؛ فقد جعلت لله نِدًّا في العبادة»، قال: «لا، أنت لا تحب الصالحين، هذا محبة الصالحين وتشفُّع بهم، وأنا أعلم أنه لا ينفع ولا يضرُّ، لكن أجعلهم واسطة بيني وبين الله، فلهم وجاهة عند الله، هذا ليس بشرك بل محبة للصالحين، وهذا حقُّهم، وأنت تبغض الصالحين، ولا تُعطيهم حقَّهم» فهو منسلخ من التَّوحيد والإسلام وهو يظنُّ أنه مسلم مُوحِّد.

وعندهم أدلة يستدلون بها على غير وجهها، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] فقابلوا الرُّسُل وفرحوا بما عندهم من العلم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود: ٨]، وهكذا كثير من المشركين الآن يظنُّ أنه على حقٍّ؛ بسبب الجهل أو تلبيس أهل الشِّرك وتضليلهم لهم، وتجد بعض علماء الشِّرك يأتي إلى صاحب القبر ويلقي خطبة عصماء يحثهم على الشِّرك ويشجعهم عليها، ويقول: «إنكم على حقٍّ، وتحبون الصالحين، وأن هؤلاء الصالحين عندهم منزلة عند الله، وسيشفعون لكم»، يشجعهم على الشِّرك، ويغريهم بذلك، ويستمرون في شركهم، ويدفعون النذور، ويذبحون القرابين، ويضعون النقود عند القبر بسخاء، فيأخذ منها الذين يشجعونهم على الشِّرك فيكون

لهم نصيب من هذا المال، ويُؤثِرون الدنيا على الآخرة ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ قوله: «**فهذا أحد أنواع الشِّرك**» وهو الشِّرك في العبادة والألوهية، وهو الشِّرك في المحبة والتعظيم بأن جعلوا لله نِدًّا من دون الله، **والنوع الأول**: الإشرك في الربوبية.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«والأدلة الدَّالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه تُبطِل هذا الشِّرك، وتدحض حجج أهله، وهي أكثر من أن يُحيط بها إلَّا الله، بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمر به، فخلقه وأمره وما فطر عليه عباده ورَكَّبَه فيهم من العقول شاهِد بأنه الله الذي لا إله إلَّا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحقُّ المبين، تقدَّس وتعالى.

وواعجبًا كيف يُعصَى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكةٍ	وتسكينةٍ أبدًا شاهد
وفي كل شيءٍ له آيةٌ	تدل على أنه واحد

الشَّرْح

○ قوله: «والأدلة الدَّالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه تُبطِل هذا الشِّرك، وتدحض حجج أهله، وهي أكثر من أن يُحيط بها إلَّا الله» فالأدلة الدالة على أن الله وحده هو المعبود الحقُّ وهو المألوه كثيرة لا حصر لها، وهي تُبطِل هذا الشِّرك، وتدحض حجج أهله.

ويكفي في ذلك: لفظ الجلالة «الله»، «الله» هو المألوه الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا، اسم الشريف «الله» يُبطِل هذا الشِّرك؛ لأن «الله» معناه المألوه، إله فِعال على وزن مفعول، قال

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤] الله هو المألوه المعبود الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا.

وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تُبطِل هذا الشِّرك، وتدحض حجج أهله؛ لأن معناها لا معبود حق إلا الله؛ لأن الله تعالى أخبر بأنه لا إله إلا هو، فقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٢٢]، فكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تُبطِل هذا الشِّرك وتدحض حجج أهله؛ فأخبر ﷻ أنه لا إله إلا هو، أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله، وفيها نفي وإثبات، فالنفي في قولك «لا إله»، والإثبات في قولك «إلا الله»، فالنفي في نفي جميع أنواع العبادة لغير الله، والإثبات إثبات جميع أنواع العبادة لله، إذًا توحيد العبادة مبني على أصلين: النفي والاثبات.

ومن الأدلة التي تُبطِل هذا الشِّرك وتدحضه: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: نعبدك ولا نعبد سواك، ﴿إِيَّاكَ﴾ تقديم المعمول يُفيد حصر العبادة لله، قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو معنى «لا إله إلا الله»، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: نعبدك ولا نعبد غيرك، وهذا مأخوذ من تقديم المعمول وهو الظرف ﴿إِيَّاكَ﴾، لكن لو قيل «نعبدك» بدون التقديم يُفيد الإثبات فقط ولا يُفيد النفي.

ومنها: قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:

٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكذا كل الآيات التي فيها الأمر بالتَّوحيد، وبعبادة الله، والنهي عن الشِّرك، وبيان فضل التَّوحيد، والتحذير من الشِّرك، والقرآن كله من أوله لآخره فيه الأمر بالتَّوحيد، وبيان حسنه وفضله، والدعوة إليه، والأمر بالإتيان بحقوقهِ، والنهي عن الشِّرك، وبيان قبحه، والتحذير منه ومن أعمال أهل الشِّرك، فالقرآن كله في التَّوحيد وحقوقِهِ، وبيان فضله، وبيان أهله، وجزائهم، وعاقبتهم الحميدة، وفي شأن الشِّرك، والتحذير منه، والنهي عنه، وتقبيحه، والتحذير من فعله، وبيان جزاء أهله، وعقوبتهم، وعاقبتهم السيئة، فلا حصر للأدلة؛ فهي كثيرة كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ «وهي أكثر من أن يُحيط بها إلَّا الله».

○ قوله: «**بل كل ما خلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده**» فالسماوات شاهدة بتوحيد الله، والأراضين شاهدة بتوحيده، والبحار شاهدة بتوحيده، والأشجار والحيوانات والطيور شاهد بتوحيده، كل ما خلقه الله وكل ما في هذا الوجود من تحريكة وتسكينة شاهدة وناطقة بتوحيد الله.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحد

○ قوله: «**وكذلك كل ما أمر به**» كل الأوامر شاهدة بتوحيد الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: ٤٣]، وكذلك النواهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فكل الأوامر والنواهي شاهدة بتوحيد الله؛ لأن الأوامر والنواهي والعبادات كلها من حقوق التوحيد ومكملاته.

○ قوله: «**فخلقه**» أي: مخلوقاته «**وأمره وما فطر عليه عباده**

ورَكَّبَه فيهم من العقول شاهِد بأنه الله الذي لا إله إلَّا هو» وأنه المستحق للعبادة، فأوامر الله شاهدة بأنه المعبود الحقُّ، وما فطر الله عليه عباده شاهدة أن الله هو المعبود الحقُّ، والعقول التي رَكَّبَها الله في الناس شاهدة بأن الله هو المعبود الحقُّ.

○ قوله: **«وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحقُّ المبين، تقدَّس وتعالى»** كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

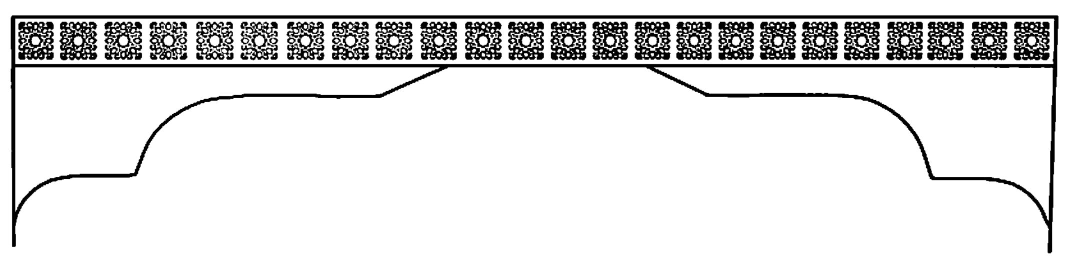
«وواعجبًا كيف يُعصَى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبدًا شاهد
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحد

فهذا من العجب؟!

هذه الأبيات يقول المحقِّقُ: «أنها لابن خلكان»، يقول: البيت الأخير ذكره في «الوفيات»(١) ونسبه لأبي النواس، وعلى كل حال سواء له أو لغيره فهي أبيات معناها صحيح.



(١) «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان (٧/ ١٣٨).
ونسبها لأبي العتاهية أبو إسحاق الحُصري في «زهر الآداب وثمر الألباب» (١/ ٣٠٨)، والبيهقي مسندًا في «شعب الإيمان» (١/ ١٣١).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والنوع الثاني من الشِّرك: الشِّرك به تعالى في الربوبية، كشرك من جعل معه خالقًا آخر، كالمجوس وغيرهم الذين يقولون: بأن للعالم ربَّين، أحدهما: خالق الخير، يقولون له بلسان الفارسية «يزدان»، والآخر: خالق الشَّرِّ، ويقولون له بلسانهم: «أهرمن»، وكالفلاسفة ومن تَبِعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدر عنه إلَّا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعَّال فهو ربُّ كل ما تحته ومُدبِّره، وهذا شرٌّ من شرك عُبَّادِ الأصنام والمجوس والنَّصارى، وهو أخبث شرك في العالم؛ إذ يتضمن من التَّعطيل وجحد إلهيته سبحانه وربوبيته وإسناد الخلق إلى غيره ﷻ ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم.

وشرك القدريَّة مختصر من هذا، وباب يدخل منه إليه، ولهذا شبَّههم الصَّحابة رضي الله عنهم بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعًا «أنهم مجوس هذه الأمة»».

الشَّرْح

○ قوله: «والنوع الثاني من الشِّرك: الشِّرك به تعالى في الربوبية»، أما **النوع الأول من الشِّرك**: الشِّرك به تعالى في الإلهية، وهناك **نوع ثالث من الشِّرك**: الشِّرك به تعالى في الأسماء والصفات،

لكن من جعل التَّوحيد نوعين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فجعل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات نوعًا واحدًا، فيكون الشِّرك نوعين: شرك في الإلهية وشرك الربوبية.

والشِّرك في الربوبية له أمثلة، والربوبية تعني: الاعتقاد بأن الله الخالق الرازق المُدبِّر، وأنه خالق العالم ومربيهم بنعمه، وهو ﷻ القائم بتربيتهم وإصلاحهم وحده دون ما سواه، هو الرَّبُّ وغيره مربوب، وهو الخالق وغيره مخلوق، وهو المربي لعباده، فمن اعتقد أن هناك خالقًا مع الله أو ربًّا أو مُدبِّرًا معه فقد أشرك في الربوبية، فالله وحده هو الخالق ولا خالق غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، فالله وحده هو الرَّبُّ، وهو المربي لعباده المُتكفِّل بإيجادهم وإصلاحهم وتربيتهم، فمن اعتقد أن هناك ربٌّ مع الله يُدبِّر أمر الكون أو خالق فقد أشرك في الربوبية.

والذين أشركوا في الربوبية طوائف، ومثَّل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطوائف، فقال: «**كشرك من جعل معه خالقًا آخر كالمجوس وغيرهم الذين يقولون: بأن للعالم ربَّين**» فهؤلاء أشركوا في الربوبية، وشذُّوا عن البشر؛ فالبشر كلهم فُطِرُوا على أن الرَّبَّ واحد وهو الله، وأن الخالق هو الله، **فالمجوس** قالوا: هذا العالم له خالقان[١]: «**أحدهما: خالق الخير، يقولون له بلسان الفارسية «يزدان»، والآخر: خالق الشَّرِّ، ويقولون له بلسانهم: «أهرمن»**» لأنهم مجوس، والمجوس فرس، ولغتهم فارسية، والفرس دينهم المجوس عُبَّاد النار، ولكن أصل المجوس يقولون: هذا العالم له خالقان وربان، الرب والخالق الأول: خالق الخير، يقولون له بلسانهم

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص ٤٢).

«يزدان»، فترجمة خالق الخير باللغة الفارسية «يزدان»، وهو النور، والخالق الثاني: خالق الشَّرِّ، يقولون له بلسانهم «أهرمن»، فترجمة خالق الشَّرِّ باللغة الفارسية «أهرمن»، وهو الظلمة، وهم في هذا يُقدِّمُون خالق الخير وهو النور، ويُسمُّونه «الإله المحمود»، فلم يقولوا بتكافؤهما، وأما الظلمة فهي مذمومة، وتنازعوا في قِدَمِها.

○ قوله: «**وكالفلاسفة**» والفلاسفة جمع فيلسوف، ومعنى الفلسفة: محبة الحكمة، والفيلسوف أصله: فيلاسوفا، أي: محبة الحكمة، فـ«فيلا» هي المحب، و«سوفا» هي الحكمة[(١)].

وكلٌّ أمة لها فلاسفة، وهم علماؤهم يسمونهم «فلاسفة»، اليونان لهم فلاسفة، والرومان لهم فلاسفة، والفرس والبربر لهم فلاسفة، ولكن اشتهرت فلاسفة اليونان، واشتهر المتأخرون الذين يتزعمهم **أرسطو**، ويُقال «أرسطو طاليس»، ويُسمُّونه «المُعلِّم الأول»؛ فقد خالف الفلاسفة الذين سبقوه، فإن الفلاسفة السابقين في الجملة يُعظِّمُون هذه الإلهيات، ويقولون بحدوث العالم، ويثبتون الربَّ، حتى جاء **أرسطو** فخالف من سبقه، وابتدع القول بقِدَمِ العالم، وقال: إن العالم قديم[(٢)]، ومعنى قديم أي: انكار وجود الله، وكان مشركًا يُعبد الأوثان، ثم جاء بعده **أبو نصر الفارابي**، ويُسمُّونه «المُعلِّم الثاني»، **وأرسطو** أول من ابتدع علم المنطق، ثم جاء بعده **الفارابي** المُعلِّم الثاني وجعل له صوتًا، ثم

---

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/٢٥٦).

(٢) **قال ابن تيمية**: «والمشهور عن القائلين بقِدم العالم: أنه لا صانع له، فيُنكرون الصانع جلَّ جلاله، وقد ذكر **أهل المقالات**: أن أول من قال من الفلاسفة بقِدم العالم: **أرسطو** صاحب التعاليم الفلسفية المنطقي والطبيعي والإلهي». «مجموع الفتاوى» (٥/٥٣٩)

جاء بعده **أبو علي ابن سينا**، ويُسمُّونه «المُعلِّم الثالث»، وحاول أن يُقرِّب الفلسفة من دين الإسلام، وهو في محاولته الشديدة لم يصل إلى ما وصلت إليه الجهمية الغالية في التجهم، فأثبت وجودين الخالق والمخلوق في اللفظ فقط، قال: الموجود نوعان واجب وممكن[(١)]، الواجب وجود الله، والممكن وجود المخلوق في الاسم واللفظ فقط، لكنه لم يُثبت للخالق صفات مثل العلم والقدرة والسمع والبصر، ولم يُثبت أيَّ صفة من الصفات، وقال: إن العالم لازم له لا يستطيع الفكاك عنه، وليس مخلوقًا له بقدرته ومشيئته، بل هو لازم له كلزوم النور للسراج، فاشتهر هؤلاء الفلاسفة، وإذا قيل: «فلاسفة» فالمراد بهم فلاسفة اليونان، ويُسمُّون «الفلاسفة المشائين»[(٢)]؛ لأنهم يدرسون عقائدهم وهم يمشون.

وأرسطو ويقال **أرسطوطاليس** تتلمذ على الفيلسوف **أفلاطون**، وجاء بعده **أبو نصر الفارابي**، ثم **أبو علي ابن سينا**، والفلاسفة الذين جاءوا بعده يُسمَّون «الفلاسفة المشائين»، وانتشرت فلسفتهم، وصارت هي المعروفة والدائرة بين الناس.

وكان **أرسطو** مُشرِكًا يعبد الأصنام، وهو أول من ابتدع القول بقِدم العالم، والقول بأنه قديم إنكار لوجود الله، يعني: يقول إن العالم قديم ليس له أول ولا بداية، وهذا إنكار لوجود الله، وهو أول من اخترع علم وحروف المنطق، ثم جاء بعده **أبو نصر الفارابي** فأخرج حروف المنطق إلى الصوت، وتوسَّع في الفلسفة، ثم جاء

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٢/ ١٣٢)، و«الصفدية» لابن تيمية (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: «الصفدية» (٢/ ١٦٧)، و«درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٦/ ٢٤٢).

بعده **أبو علي ابن سينا**.

وأبو علي ابن سينا هو الذي حاول بجهده أن يُقرِّب الفلسفة إلى الإسلام، ولكنه في محاولته الشديدة لم يصل إلى ما وصلت إليه **الجهمية** الغالية، **فالجهمية** الغالية في التجهم أحسن وأصح وأسد مذهبًا من مذهب **أبو علي ابن سينا**[١] **فأبو علي ابن سينا** أثبت وجودًا لله لكن في الذهن.

وسلب عنه جميع الأسماء والصفات، **قال**: ليس له علم، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا سمع، ولا يعلم عدد النجوم ولا الكواكب، وإنما يعلم الكليات دون الجزئيات، فلم يُثبت صفة لله، بل أثبت وجود لله ووجود للمخلوق في الذهن والكلام.

وكذلك أيضًا لم يُثبت وجودًا للملائكة، ولم يقل أن الملائكة أشخاص محسوسة تذهب وتُرى وتجيء وتُخاطب الرسول، وإنما هي أشكال وأشباح نورانية يتصورها ويتخيلها النبي - بزعمهم -، هذا هو مذهبهم، وإذا تقربوا إلى أهل الإسلام قالوا: إن الملائكة عبارة عن أمور معنوية تبعث على الخير والرحمة والألفة، والشياطين أمور معنوية تبعث على الشَّرِّ والظلم والإيذاء والطغيان والعدوان، هذا إذا أرادوا التَّقرُّب إلى أهل الإسلام، وإلَّا فإنهم يقولون إن الملائكة أشكال وأشباح نورانية.

وقالوا: الرسول رجل عبقري، والرسالة والنبوة ليست هبة من الله، ولكنها صنعة من الصناعات وحرفة من الِحرف وسياسة من السياسات، كل واحد يمكن أن يصل إليها بالبرهان والتجارب وطول الخبرة، ولها صفات، فمن وجد عنده قوة الإدراك يحصل بقوة

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦١).

التخيل حتى يتخيَّل الملائكة بصورة أشباح نورانية، وقوة التخييل حتى يُخيِّلها على الناس، فمن وجد هذه الصفات فهو نبي.

وبعضهم لا يرضى بالنبوة، ويقول: إنها مرتبة وضيعة، وهناك أعلى منها وهي الفلسفة، ويقولون: النبوة هذه فلسفة عامة، والفلسفة نبوة خاصة، فيكون كفر هؤلاء فوق كفر الذين ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ويُنكر **ابن سينا** البعث، ويقول ليس هناك بعث، ولا جزاء، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا أمر، ولا نهي، وإنما الرُّسُل أتوا بذلك لأجل إصلاح الناس، وأن الرسول أخبر الناس بأن هناك بعث وجزاء وحساب وجنة وثواب وأمر ونهي حتى يصلح حالهم، ومن باب السياسة ليسوسهم لمصلحته، فهو كذب لهم، ولكن لم يكذب عليهم، فهناك فرق بين من كذب لك ومن كذب عليك، من كذب لله كذب لأجل مصلحة الناس، وإلا فليس هناك جنَّة ولا حساب ولا نار، ولكنه أخبر بهذا ليتعايش الناس بسلام، وحتى لا يعتدي أحد على أحد، وحتى تسير أمور الناس من باب السياسة(١).

هذا مذهب **ابن سينا** الذي أقرَّ به بعض الناس وبعض الصحفيين والمذيعين، وسُمِّيَ باسمه المدارس، كيف يُسمَّى باسمه مدارس ومؤسسات علمية وهو مُلحد؟!، ويقول عن نفسه: «أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم»(٢) والحاكم ابن عبيد رافضي خبيث لا يؤمن بالله ولا

---

(١) انظر: «الرد على المنطقيين» لابن تيمية (ص ١٤١، ١٤٢)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠٣)، و«الصفدية» (١/ ٢).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٦).

ملائكته ولا كتبه ولا رُسله ولا اليوم الآخر ولا القدر خير وشره.

هؤلاء الفلاسفة المشاؤون الذي يتزعمهم **أرسطو**، ثم **أبو نصر الفارابي**، ثم **أبو علي ابن سينا**، هؤلاء ملاحِدة، يُسمون «الفلاسفة المشّاءون».

وأفلاطون الفيلسوف الذي تتلمذ عليه **أرسطو** كان أحسن حالًا من تلميذه **أرسطو**؛ كان **أفلاطون** في الجملة كغيره من الفلاسفة السابقين يُعظِّمون الإلهيات والشرائع، ويقولون: إن العالم حادث بعد أن لم يكن، ويُعظِّمون الرُّسُل في الجملة، ويقول: إن الإلهيات والشرائع من خصائص الرُّسُل، لكن لما جاء **أرسطو** خالف شيخه فهو تلميذ عاق، وابتدع القول بأن العالم قديم، وكان مشركًا يعبد الأوثان.

○ قوله: **«ومن تَبِعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدر عنه إلَّا واحد بسيط»** فالفلاسفة ومن تَبِعهم يقولون: لم يصدر عنه إلا واحد[1]، وهذا من جهلهم وضلالهم، ليس هناك شيء يصدر عنه شيء إلا الله، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وما عدا ذلك فليس هناك شيء في الوجود إلا له زوج، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩] سالب وموجب، النار لها سالب وموجب، كذلك أيضًا الثمار والزروع والحيوانات، كل شيء منه اثنان، لا يوجد شيء واحد إلا مشيئة الله، إذا أراد الله شيئًا يقول له: «كن فيكون»، وما عدا ذلك ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لا تكون من

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٣٣٩)، و«منهاج السنة النبوية» (١/ ٤٠٣).

شيء واحد.

○ قوله: «**وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس**» وهم الملائكة «**وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعَّال فهو ربُّ كل ما تحته ومُدبِّره**» فهم يقولون بقدم العالم وأبديته، فالعالم قديم ولم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، فهو قديم لا أول له، وهذه المخلوقات ليست معدومة ثم وُجِدَت.

ويقولون: إن الحوادث مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، ويُسمُّونها «العقول والنفوس»، وهي الملائكة[(١)]، والمخلوقات كلها صادرة عنها، إلا أن المصدر الأول الذي فوقها هو العقل الفعَّال، وتارة يُفسِّرُونه بجبريل، وهذا العقل الفعَّال ربُّ كل ما تحته ومُدبِّره، وهو ربُّ الكائنات ومبدع السماوات والأرض، إلا أنه لازم لله واجب لنفسه ومعلول له لا ينفك عنه، فجعلوا الرَّبَّ علة لوجوده وهو معلول له فالله علة له[(٢)].

وعلى هذا فقد أشركوا في الربوبية؛ فلم يقولوا بأن هذا العالم مخلوق لله، بل قالوا: إنه لازم لله أزلًا وأبدًا، فهذا العالم قديم، فقالوا بقِدَم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، ويقولون أن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس وهي الملائكة، ومصدر هذا العالم عن العقل الفعَّال، فيقولون أن العالم كله مفعول للعقل الفعَّال، ويجعلونه ربَّ الكائنات ومبدع السموات والأرض، إلَّا أنه لازم لله واجب لنفسه ومعلول له لا ينفك عنه، فهو معلول، فجعلوا الرَّبَّ علة لوجوده، فأشركوا في

---

(١) انظر: «الصفدية» (١/ ١٩٩)، و«بغية المرتاد» لابن تيمية (ص ٢١٥، ٢١٦).
(٢) انظر: «الصفدية» (١/ ٢٤٠).

الربوبية فجعلوا مع الله مُدبِّرًا وخالقًا، فالفلاسفة طائفة ثانية أشركوا في ربوبية الله، فأشركوا مع الله وجعلوا معه خالقًا ومُدبِّرًا، فهم من جنس **المجوس**.

○ قوله: «**وهذا شرٌّ من شرك عُبَّادِ الأصنام**» وعُبَّاد الأصنام أشركوا في الربوبية، فمن يعتقد من عُبَّاد الأصنام أنها تضرُّ وتنفع فقد أشرك في الربوبية، وإن كان لا يعتقد أنها تضرُّ وتنفع وإنما يعبدها للشفاعة وتُقرِّبه إلى الله زُلفَى فلم يُشرك.

○ قوله: «**والمجوس والنَّصارى**» النصارى يقولون بالتَّثليث، يقولون: الآلة ثلاثة: الله وعيسى ومريم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾ [المائدة: ٧٣]، ويقولون: «باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد».

فتبَيَّن بهذا: أن المؤلف ﷺ تعالى مَثَّلَ للذين أشركوا في الربوبية بشرك **المجوس**، **والفلاسفة**، وبعض المشركين **عُبَّاد الأصنام** الذين يعتقدون في آلهتهم النفع والضرَّ، **والنصارى**.

○ قوله: «**وهو أخبث شرك في العالم**» فشرُّ هؤلاء المشركين وأخبثهم في شرك الربوبية: شرك **الفلاسفة**، فهو شرٌّ من شرك **المجوس وعُبَّاد الأصنام وعُبَّاد النصارى**، بل هو أخبث شرك في العالم؛ «**إذ يتضمن من التَّعطيل وجحد إلهيته سبحانه وربوبيته وإسناد الخلق إلى غيره ﷻ ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم**» فهو يتضمن تعطيل الرَّبِّ أكثر من تعطيل **النصارى والمجوس**، فيتضمن تعطيل الرَّبِّ، ويتضمن جحد إلهية الرَّبِّ، فيتضمن جحد الربوبية؛ لأن **الفلاسفة** جعلوا العقول تتصرف في هذا الكون، وجعلوا العقل الفعَّال يتصرف فيه، فهم عَطَّلُوا الرَّبَّ، وجحدوا إلهيته وربوبيته،

وجعلوا الخلق يستند إلى غير الله سبحانه ما لا يتضمنه شرك أمة من الأمم، فلهذا كان شرك **الفلاسفة** أخبث من شرك **عُبَّاد الأصنام والمجوس**، نسأل الله السلامة والعافية.

○ قوله: «**وشرك القدريَّة مختصر من هذا، وباب يدخل منه إليه**» بالشِّرك في الربوبية؛ لأن **القدريَّة** يُشابهون **المجوس** في القول بتعدد الخالق، **فالمجوس** يقولون إن الخالق متعدِّد، خالق للخير وخالق للشر[١] والقدريَّة قالوا: كل شخص يخلق فعل نفسه[٢]، فقالوا بتعدد الخالق فشابهوهم، فصار شرك مختصر من شرك **المجوس**، والجامع بينهما: هو القول بتعدِّد الخالق، فهو مختصر منه، وباب يدخل منه إليه، فمن قال بتعدِّد الخالق دخل من هذا الباب ويصل إلى من وصل إليه من قال بتعدِّد الخالق.

والمراد **بالقدريَّة** هنا: **قدريَّة المجوس** الذين نفوا تقدير الله لأفعال العباد، **وقالوا**: أن العباد خالقون لأفعالهم.

والقدرية ثلاث طوائف كما بَيَّنَ **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ[٣]، فأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: **مجوسية، ومشركية، وإبليسية.**

الفرقة الأولى: المجوسية، وهم الذين كَذَّبوا بقدر الله، وآمنوا بأمره ونهيه، فكَذَّبوا بقدر الله، فقالوا: إن العباد خالقون لأفعالهم، وأن أفعالهم لم يُقدِّرها الله ولم يُرِدها ولا شاءها ولا خلقها، فالعباد هم الذين أرادوها وخلقوها، فكَذَّبوا بقدر الله، وآمنوا بالأوامر

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٤٢).
(٢) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٤٦، ٤٧).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١١١).

والنواهي.

وسُمُّوا «مجوسية» نسبة إلى المجوس الذين قالوا بتعدُّد الخالق، وهم قالوا: إن العباد خالقون لأفعالهم، وهم طائفتان:

الطائفة الأولى: الغلاة الذين أنكروا العلم والكتاب، فأنكروا علم الله بالأشياء قبل كونها وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وهم الذين كَفَّرَهم **السلف**، وهم الذين خرجوا في آخر عهد الصحابة وانقرضوا، وهم الذين قال فيهم **الإمام الشافعي** رحمه الله: «ناظِروا القدريَّة بالعلم، فإن أقرُّوا به خصموا، وإن أنكروا كفروا»[١].

الطائفة الثانية: المقتصدون الذين أثبتوا العلم والكتاب، وأنكروا عموم مشيئة الله وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم **المعتزلة ومن وافقهم**، وهم معتزلة في الصفات قدرية في الأفعال، وآمنوا بمراتب القدر الأربعة كلها، فآمنوا بالعلم والكتابة والإرادة والخلق، إلَّا أنهم لم يقولوا بعموم الإرادة ولا بعموم الخلق، بل أخرجوا من عموم إرادة وخلق الله أفعالَ العباد، **فقالوا**: الله ما أراد أفعال العباد ولا خلقها، بل العباد هم الذين أرادوها وشاءوها وخلقوها استقلالًا، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر، فردوا إلى هذا؛ لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعَذَّبَه عليه، لذلك قالوا: أن العباد خلقوها، وهؤلاء هم **المعتزلة ومن وافقهم**.

الفرقة الثانية: **المشركية**، وهم الذين أقرُّوا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، عكس **المجوسية**، **فالمجوسية** أقرُّوا بالأمر والنهي وكَذَّبوا بالقدر، **والمشركية** أقرُّوا بالقضاء والقدر وكَذَّبوا

(١) شرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٣٠٢).

بالأمر والنهي، فهم الذين يحتجون على المعاصي بالقدر، وتَبِعُوا المشركين في قولهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فسُمُّوا «**مشركية**» لأنهم شابهوا المشركين في الاحتجاج بالقدر.

والطائفتان متقابلتان، **فالمجوسية** آمنوا بالأمر والنهي وكَذَّبوا بالقدر، **والمشركية** آمنوا بالقضاء والقدر وكَذَّبوا بالأمر والنهي، **والمشركية** أشدُّ؛ لأن **المجوسية** وإن كَذَّبُوا بالقدر لكنهم عَظَّموا الأمر والنهي، فالأوامر والنواهي يعملون بها وبالشريعة، لكن **المشركية** كَذَّبُوا بالأمر والنهي فلم يؤمنوا بهما، وإنما يتبعون القدر بزعمهم، فيقول أحدهم: «لو عصيتُ أمره الدين الشرعي فقد وافقت أمره الكون القدري»، ويحتج على المعاصي بالقدر، وعلى ذلك فهؤلاء أبطلوا الشريعة والأوامر والنواهي، وعليه فتكون الأوامر والنواهي والشريعة والرُّسُل عبثًا عندهم، فإذا سرق أحدهم احتجَّ بالقدر، وإذا زنى احتجَّ به، وإذا أشرك احتجَّ به؛ لأن الأوامر والنواهي والكتب والرُّسُل أبطلوها، وكلها عندهم عبث.

والقدر من شؤون الله وخصائصه، وهو سرُّ الله في خلقه، ولا تعلم نفس ما قَدَّرَه الله، والعبد مأمور بعبادة الله وتوحيده، وأعطاه الله السمع والبصر والقدرة، ولهذا لا يُكلِّف الله فاقد العقل ولا العاجز، والواجب على الإنسان أن يدفع القدر بقدر، فإذا وقع في معصية أو فسق يبادر بالتوبة إلى الله، فلم يعاقب العبد إلا على فعله الذي هو قادر ومستطيع عليه، ونفى الله تعالى عن نفسه الظلم، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ [غافر: ١٧]، وحَرَّمَ الظلم على نفسه، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو أن يحرم أحدًا ثوابه وحسناته، أو يُعذِّبه، أو يحمله أوزار غيره،

هذا هو الظلم، أما إذا فعل العبد الوزر والمعصية فبنفسه وباختياره، فيُعذِّبه الله على ما فعل.

والمجوسية يُعظِّمُون الأوامر والنواهي، ويعملون بها، لكن بدعتهم في التكذيب في عموم القدر، فأنكروا عموم خلق وإرادة الله، فقالوا: إن الله أراد كل شيء في الوجود إلا أفعال العباد، فالطاعة والمعصية ما أرادها، **فالمجوسية** أخف من **المشركية**، **فالمشركية** أبطلوا الشرائع والكُتُب، **وهؤلاء** عَظَّموا الشرائع والكتب وإن كَذَّبوا بالقدر.

الفرقة الثالثة: الإبليسية، نسبة إلى شيخهم إبليس، وهؤلاء أقَرُّوا بالأمرين جميعًا، بالقدر وبالأمر والنهي، لكن جعلوا هذا متناقضًا من الرَّبِّ ﷻ، وطعنوا في حكمته وعدله، **قالوا**: هذا تناقض من الرَّبِّ؛ كيف يأمر بشيء ويُقدِّر ما يُنافِيه؟!، فجعلوا الأمر يُبطِل القدر، والقدر يُبطِل الأمر، **قالوا**: «الرَّبُّ متناقض» ـ تعالى الله عما يقولون ـ.

وشيخهم ومُقدَّمُهم إبليس الذي عارض أمر الله لَمَّا قال الله تعالى للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٤]، فعارض الأمر بقياس فاسد، قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعرَاف: ١٢]، فهؤلاء **الإبليسية** يُقِرُّون بالقدر وبالأمر والنهي، لكن جعلوا هذا متناقضًا من الرَّبِّ سبحانه، وطعنوا في حكمته وعدله كما صنع شيخهم ومُقدَّمُهم إبليس.

بل إن **بعضهم** تجاوز إبليس ـ والعياذ بالله ـ وصار يُدافع عن إبليس، ويتهمون الله تعالى بالظلم، ويقولون: «ظلم الرَّبُّ إبليسَ» ـ نعوذ بالله ـ، يقولون: إبليس مسكين؛ أراد أن يُنزِّه جبهته فلا يسجد لغيره فطُرِدَ

ولُعِنَ، فما ذنبه؟!، وهو الذي **قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيُدْعَى خُصُومُ اللهِ يَوْمَ معَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طَرًّا مَعْشَرَ الْقَدَرِيَّةِ[(١)]

وهذا يقول قائلهم يعني نفسَهُ:

وكنتُ فتًى مِنْ جُنْدِ إبْليسَ فارْتَقَى بِيَ الحالُ حتى صار إبْليسُ من جُنْدِي

كان في الأول من جند إبليس ثم تطور فصار إبليس من جنده!!، **هؤلاء** ـ والعياذ بالله ـ يُدافعون عن إبليس، ويقولون إبليس مظلوم، ونسبوا الظلم إلى الله، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَزَّه نفسه عن الظلم، وحَرَّمَهُ على نفسه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وفي «صحيح مسلم»[(٢)] عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «**إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي فَلَا تَظَالَمُوا**»، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، كأن يحمل أحدًا أوزار غيره أو يمنعهم من ثواب الحسنات، هذا هو الظلم الذي تنزَّه الله عنه وحَرَّمَهُ على نفسه، لكن هؤلاء **الإبليسية**ـ والعياذ بالله ـ طعنوا في حكمة الرَّبِّ، وجعلوا الرَّبَّ متناقض، واتهموا ربهم ودافعوا عن إبليس وأمثاله، نسأل الله السلامة والعافية.

○ قوله: «**ولهذا شبَّههم الصَّحابة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ **بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧٧).

(٣) أخرجه الفريابي في «القدر» (١٧٢)، وابن بطة في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (١٥١٧)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١١٦٢)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٤١٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال البيهقي: «هذا إسناد صحيح، إلا أنه موقوف». =

○ قوله: «**وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعًا «أنهم مجوس هذه الأمة»**» والأحاديث المرفوعة الواردة في **القدرية** ضعيفة عند أهل العلم، لا يصح منها شيء[1]، وذكر **الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث «**لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر**»، ثم **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا المعنى قد رُوي عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر، وحذيفة، وابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمرو بن العاص، ورافع بن خديج»، ثم تكلَّم على أسانيدها، وأنه لا تخلو من مقال[2] فالصحيح أنها موقوفة على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فذم **القدرية** عن الصحابة ثابت، وأما المرفوع إلى النبي ﷺ فضعيف، بخلاف **الخوارج**؛ فالأحاديث في الخوارج كلها صحيحة في «الصحيحين» وغيرهما، ما يقارب عشرة أحاديث كلها في ذمهم.



= وأخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٢٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

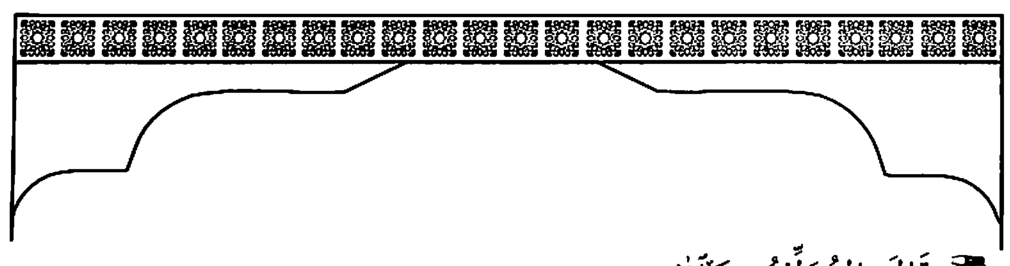
(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٦٩١)، وأحمد (٢/ ٨٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٦٩٢)، وأحمد (٥/ ٤٠٦) من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب «في القدر»، رقم (٩٢) من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الشاطبي: «وهذا الحديث غير صحيح عند أهل النقل، قال صاحب «المغني»: «لم يصح في ذلك شيء»». «الاعتصام» (٢/ ٢٢٧).

(٢) «حاشية ابن القيم على سنن أبي داود»(١٢/ ٢٩٧، ٢٩٨).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وكثيرًا ما يجتمع الشِّركان في العبد وينفرِد أحدهما عن الآخر، والقرآن الكريم، بل الكُتُب المُنَزَّلة من عند الله تعالى كلها مُصرِّحة بالردِّ على أهل هذا الإشراك كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فإنه ينفِي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]؛ فإنه ينفِي شرك الخلق والربوبية.

فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لربِّ العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات، فالشرك به في الأفعال كالسجود لغيره ﷻ، والطواف بغير بيته المُحرَّم، وحلق الرأس عبوديَّةً وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه تعالى في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها، وقد لعن النبي ﷺ من اتَّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يُصلَّى لله فيها فكيف من اتخذ القبور أوثانًا تُعبد من دون الله؟!، فهذا لم يعلم قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وفيه عنه أيضًا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»، وفيه أيضًا عنه ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»، وفي «مسند

الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان» عنه ﷺ: «لعن الله زوَّارات القبور، والمتَّخذين عليها المساجد والسُّرُج»، وقال ﷺ: «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «وقال ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»».

الشَّرْح

○ قوله: «**وكثيرًا ما يجتمع الشِّركان في العبد**» يعني: كثيرًا ما يجتمع الشِّركان شركُ الربوبية وشرك الألوهية في العبد، فيُشرِك في الربوبية بأن يعتقد أن هناك خالق مع الله أو مُدبِّر معه، ويعبد غيره فيدعوه ويذبح وينذر له فيجتمع فيه الشِّركان، «**و**» قد «**ينفرِد أحدهما عن الآخر**» فيُشرك العبد في الربوبية فيعتقد أن هناك مُدبِّر لهذا الكون لكنه لا يُعبد إلهاً آخر مع الله، أو يكون مُشرِكًا في العبادة فيدعو غير الله ولكنه لا يُشرِك في الربوبية، فالناس أقسام:

قسم: يُشرك في الربوبية، **كالمجوس والنصارى وبعض عُبَّاد الأصنام** الذين يعتقدون أنها تضرُّ وتنفع، **وكالفلاسفة**.

وقسم: يشرك في العبادة والألوهية فقط، مثل: **عُبَّاد القبور** الذين يدعونها ويذبحون وينذرون لها.

وقسم: يجتمع فيه الشِّركان شركُ الربوبية والألوهية، فهو يعتقد أن هناك مُدبِّر مع الله أو يجعل لله صاحبة أو ولدًا، وهو مع ذلك يدعو غير الله ويذبح وينذر لغيره.

○ قوله: «**والقرآن الكريم، بل الكُتُب المُنَزَّلة من عند الله تعالى كلها مُصرِّحة بالردِّ على أهل هذا الإشراك**» وهو الإشراك في الإلهية، والإشراك في الربوبية من باب أولى؛ لأن توحيد الربوبية فطري.

○ قوله: «**كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** [الفَاتِحَة: ٥]» هذا أول دليل، وجه الردِّ على أهل الشِّرك في العبادة من هذه الآية: أن الله تعالى قَدَّمَ الظرف فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فأفاد الحصر، فصار معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: نعبدك يا الله ولا نعبد سواك، «**فإنه ينفِي شرك المحبة والإلهية**» وبهذا تكون الآية قد أبطلت الشِّرك في العبادة والألوهية، ولو قال: «نعبدك ونستعين بك» ما أفاد الحصر؛ فأثبت العبادة والاستعانة لله وما نفاها عن غيره، فلَمَّا قَدَّمَ سبحانه الظرف فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أفاد أمران: إثبات العبادة لله، ونفيها عمن سواه، وهذا مفهوم من تقديم الظرف؛ إذ تقديمه يُفيد الحصر، فصار معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو معنى «لا إله إلا الله»، فصار معناها: النفي والإثبات.

○ قوله: «**وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** [الفَاتِحَة: ٥]؛ **فإنه ينفِي شرك الخلق والربوبية**» فالآية اشتملت على نوعي التوحيد، وهما: توحيد الإلهية في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتوحيد الربوبية في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، فهو سبحانه يُعبد بألوهيته ويُستعان بربوبيته[١].

○ قوله: «**فتضمنت هذه الآية تجريد التَّوحيد لربِّ العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات، فالشِّرك به في الأفعال كالسجود لغيره ﷻ**» إذا سجد لشيء قاصدًا السجود له فهذا فيه تفصيل:

إن قصد التَّقرُّب إليه بالسجود فهذا شرك، وصاحبه مُشرك، وإن قصد التحية كما لو ركع أو سجد له تحية فلا يكون شركًا، بل مُحَرَّم

---

(١) انظر: «الصلاة وحكم تاركها» (١٤٤).

وصاحبه آثم ومرتكب لكبيرة، لكنه لا يصل إلى الشِّرك؛ لأنه ما قصد التَّقرُّب إليه، والسجود لا يكون تحية في شرعنا، كان في شرع يوسف عليه السلام جائزًا، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يُوسُف: ١٠٠]، لكنه نُسِخَ في شرعنا، فلا يجوز للإنسان أن يسجد لأحد بنية التحية، فإذا فعل ارتكب مُحَرَّمًا، لكنه لا يكون مشركًا إلا إذا نوى التَّقرُّب إليه.

○ قوله: «**والطواف بغير بيته المُحرَّم**» **عُبَّاد القبور** يقولون: «إنا لا نعتقد في طوافنا حول القبر أنه ينفع أو يضرُّ، وإنما نريده وسيلة أو واسطة»، فنقول لهم: هذه حجة المشركين، المشركين الذين كَفَّرَهم الله حجتهم الوسيلة والشفاعة، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: ١٨]، وحكى الله تعالى قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، فكفار قريش كأبي جهل وأبي لهب يعبدون الأصنام والأوثان للشفاعة، ويقولون: نعلم أنهم لا يضرون ولا ينفعون، ولكن نعبدهم للشفاعة فكَفَّرَهم الله.

ولو اعتقدوا أنهم يضرون أو ينفعون لصار هذا شركًا في الربوبية، فإذا عبدوهم واعتقدوا أنهم يضرون أو ينفعون وقعوا في شركين شرك الربوبية وشرك الألوهية، وإذا اعتقدوا أنهم لا يضرون ولا ينفعون لكن يعتقدون شفاعتهم وقعوا في شرك الألوهية، فهم بين الشِّركين أو شرك واحد.

○ قوله: «**وحلق الرأس عبوديَّةً وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه تعالى في الأرض، وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها**» والمسلمون الذين تصدر منهم

أفعال شركية كدعاء الأموات وعبادة القبور واعتقاد تعطيل الصفات وغيرها لا يُعذرون بالجهل، فمَنْ بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا يُعذر؛ قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فمن بلغه القرآن فعلم فقد قامت عليه الحجة، أما من لم يبلغه القرآن أو السنة فهذا له حكم آخر.

○ قوله: «**وقد لعن النبي ﷺ من اتَّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد**[١]» واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وإذا لعن النبي ﷺ شيئًا دلَّ على أنه كبيرة، فدلَّ على أن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد كبيرة من كبائر الذنوب، ومن وسائل الشِّرك؛ لأن الشيطان يتدرج بالعبد، يُصلِّي أولًا لله عند القبر، ثم يأمره الشيطان فيُصلِّي لصاحب القبر فيقع في الشِّرك[٢].

وقد منع النبي ﷺ من اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يُصلَّى لله فيها؛ لأنها وسيلة للشِّرك، فمن اتخذ القبور مساجد وصَلَّى عندها فهذا من وسائل الشِّرك والبدع المُحرَّمة؛ لأن الشيطان يتدرج بالعبد شيئًا بعد شيء، فأولًا يُصلِّي لله، ثم إذا طال عليه الأمد صلَّى لصاحب القبر، ولهذا فإن الصلاة في المقبرة وعند القبور من وسائل الشِّرك، وكذلك الدعاء عند القبور، وكذلك قراءة القرآن، كل هذا من وسائل الشِّرك والبدع المُحرَّمة.

فمن أراد أن يُصلِّي في المقبرة نقول له: «**لا تصلِّ في المقبرة**»؛ روى مسلم في «صحيحه»[٣] عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه

(١) يأتي تخريجه.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٦٣ - ١٦٥).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٧٢).

قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»**، فصلِّ في المسجد أو البيت، وكذلك إذا أراد أن يدعوا، نقول: «لا تدعُ عند القبور، ادعُ في البيت»، وكذلك من أراد أن يقرأ القرآن؛ فكل هذا من البدع ووسائل الشِّرك.

ومثل: جعل القباب على القبور، والبناء والكتابة عليها، ووضع الرياحين والزهور، وكذلك إنارتها وإسراجها، كل هذا من وسائل الشِّرك المُحرَّم، فيجب أن تكون القبور ضاحية كما كانت على عهد النبي محمد ﷺ، ليس فيها أنوار، ولا كتابة على القبور، ولا أرقام، ولا زهور، ولا رياحين، ولا تُجصَّص، ولا تُرفع القبور أكثر من شبر، ولا يُبنى عليها، ولا يُقرأ القرآن عندها، ولا يُصلَّى فيها، ولا يُدعَى الله عندها؛ لأن كل هذا من وسائل الشِّرك.

○ قوله: **«وقد لعن النبي ﷺ من اتَّخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يُصلّى لله فيها فكيف من اتخذ القبور أوثانًا تُعبد من دون الله؟!»** فالذي اتخذ أوثانًا تُعبد من دون الله وقع في الشِّرك الأكبر والذنب الذي لا يُغفر **«فهذا لم يعلم قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾** [الفَاتِحَة: ٥]» أي: الذي اتخذ القبور أوثانًا تُعبد ما عَلِمَ معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ لأن معناها تخصيص الله بالعبادة، معناها: نعبدك ولا نعبد سواك، وهذا عَبَدَ الأوثان، فالذي اتخذ القبور أوثانًا ما عَلِمَ معنى قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

○ قوله: **«وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وذلك في «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا اللعن يدلُّ على أنه كبيرة،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب «الصلاة في البيعة»، رقم (٤٣٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٣٠).

والرسول لعنهم ـ وهم مضوا ـ تحذيرًا لنا أن نفعل كفعلهم فيصيبنا ما أصابهم كما قال **بعض العلماء**: لعن الرسول اليهود والنصارى على اتخاذهم القبور مساجد تحذيرًا لهذه الأمة أن تفعل مثل فعلهم فيصيبهم ما أصابهم، فالمعنى: لا تتخذوا القبور مساجد.

○ قوله: «وفيه» أي: في «الصحيح» «**عنه أيضًا**: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**»(١) فجعل شرار الناس صنفان:

الصنف الأول: من تدركهم الساعة وهم أحياء، وهم الكفرة؛ لأن الساعة لا تقوم إلا على الكفرة، وذلك بعد خروج أشراط الساعة الكبار، في «صحيح مسلم»(٢) عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو ﭫ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ، لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥).

قال ابن تيمية وابن القيم: «إسناده جيد». «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٣٠)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٦)

وأخرجه البخاري، في كتاب الفتن، باب «ظهور الفتن» معلقًا بعد رقم (٧٠٦٧) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﭬ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ**».

وأخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٤٩) عَنْ عَبْدِاللهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ**».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٤٠).

إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ، فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: «أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟»، فَيَقُولُونَ: «فَمَا تَأْمُرُنَا؟»، فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»، فيأمر الله إسرافيل فينفخ في الصور نفخة الفزع والصعق، أوله فزع، وآخره صعق وموت، وهي نفخة طويلة يُطوِّلُهَا فيموت الناس، ويخرب هذا الكون، ترتج الأرض وتتزلزل، فتتكدر النجوم، وتنشق السماء، وتسجر البحار، وتسير الجبال، يخرب هذا العالم بخلوه من التوحيد والإيمان، وتقوم القيامة، ولا يمكن أن يخرب هذا العالم إذا كان فيه من يقول «لا إله إلا الله»، كما في «صحيح مسلم»(١) عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ «اللهُ، اللهُ»»**، إذًا صلاح هذا العالم بالتوحيد، وخرابه بخلوه منه، فإذا خلا العالم من التوحيد خرب وقامت القيامة، والذين تقوم عليهم الساعة هم الكفرة، وهم شرار الناس.

الصنف الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد؛ لأن اتخاذ القبور مساجد وسيلة إلى الشِّرك، تُتَّخذ القبور مساجد ويُصلِّي عندها، ثم يُصلِّي لصاحب القبر.

○ قوله: «وفيه» أي: في «الصحيح» **«أيضًا عنه ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»»** أخرجه مسلم في «صحيحه»(٢) عن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٤٨).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٣٢).

جُنْدَبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»، فحذَّرَ النبي ﷺ من اتخاذ القبور مساجد تحذيرًا بالغًا من وجوه:

الأول: أنه ﷺ حذَّر من اتخاذ القبور مساجد، فقال: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ**».

الثاني: أنه ﷺ قال: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**» «لا» أداة نهي، فهذا نهي.

الثالثة: قال ﷺ: «**إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**» فأتى بفعل.

واتخاذ القبور مساجد من وسائل الشِّرك المُحَرَّمة، حيث لعن النبي ﷺ فاعله وجعله من شرار الناس.

وعلى ذلك: الصلاة في المسجد الذي فيه قبر مُحرَّمَة؛ لأن النبي ﷺ نهى عنها قال: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»، أما الصلاة في المسجد الذي بجنبه قبر خارج سور المسجد فلا بأس بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن بناء المساجد على القبور ليس من دين المسلمين، بل هو منهي عنه بالنصوص الثابتة عن النبي ﷺ واتفاق أئمة الدين، بل لا يجوز اتخاذ القبور مساجد سواء كان ذلك ببناء المسجد عليها أو بقصد الصلاة عندها، بل أئمة الدين متفقون على النهى عن ذلك، وأنه ليس لأحد أن يقصد الصلاة

عند قبر أحد لا نبي ولا غير نبي، وكل من قال إن قصد الصلاة عند قبر أحد أو عند مسجد بُنِيَ على قبر أو مشهد أو غير ذلك أمر مشروع بحيث يستحب ذلك ويكون أفضل من الصلاة في المسجد الذى لا قبر فيه فقد مرق من الدين، وخالف إجماع المسلمين، والواجب أن يُستتاب قائل هذا ومعتقده، فإن تاب وإلا قُتِلَ، بل ليس لأحد أن يصلي في المساجد التي بُنِيت على القبور ولو لم يقصد الصلاة عندها، فلا يُقبل ذلك لا اتفاقًا ولا ابتغاء؛ لما في ذلك من التَّشبه بالمشركين والذريعة إلى الشِّرك ووجوب التنبيه عليه وعلى غيره، كما قد نص على ذلك أئمة الإسلام من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، **منهم**: من صَرَّحَ بالتحريم، **ومنهم**: من أطلق الكراهة، وليست هذه المسألة عندهم مسألة الصلاة في المقبرة العامة؛ فإن تلك منهم من يُعلِّل النهي عنها بنجاسة التراب، ومنهم: من يُعلِّله بالتَّشبه بالمشركين، وأما المساجد المبنية على القبور فقد نهوا عنه مُعلِّلِين بخوف الفتنة بتعظيم المخلوق كما ذكر ذلك **الشافعي**[(١)] **وغيره** من سائر أئمة المسلمين»[(٢)].

فالصواب: أن الصلاة في المسجد الذي فيه قبر لا تصح؛ فالنهي يقتضي الفساد، فإذا صلى في المساجد التي فيها قبر فلا تصح صلاته، وعليه إعادتها.

وقد يقول قائل: قبر النبي ﷺ داخلًا في المسجد، فما حكم الصلاة فيه؟.

نقول: النبي ﷺ دُفِنَ في بيته، وكان البيت خارج المسجد، ثم

(١) انظر: «النبوات» (٢/ ٧١٥) و«البداية والنهاية» (١/ ٢٣٢).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٨٨، ٤٨٩).

أدخله **الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك** في آخر القرن الأول الهجري، ادخل البيت كاملًا، وهذا غلط منه، وقد نصحه **العلماء** في زمانه، ولكنه احتج بالتوسعة، فقالوا له: «عليك أن تُوسِّعَ المسجد من الجهة الأخرى لا من الجهة التي فيها بيوت أزواج النبي ﷺ».

والمحذور أن يُدفن الميت في المسجد أو يبنى المسجد على القبر، وهذا لم يحصل لقبر النبي ﷺ، فالنبي ﷺ لم يُدفن في المسجد، ومسجده ما بُنِيَ على قبره، وإذا بُنِيَ المسجد على القبر فيجب هدم المسجد ويبنى في مكان آخر، وإذا وجد مسجد ثم دفن فيه ميت فيُنبش هذا القبر، وهذا غير حاصل في مسجد النبي ﷺ فإنه عليه الصلاة والسلام ما دفن في المسجد ومسجده ما بُنِيَ على قبره، بل النبي ﷺ دُفِنَ في بيته خارج المسجد.

○ قوله: **«وفي «مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان»**[1] **عنه**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧/ ٤٥٢ ح ٣١٧٩) من طريق أبي صالح عن ابن عباس ﵄.
وأخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب «في زيارة النساء القبور»، رقم (٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب «ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا»، رقم (٣٢٠)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب «التغليظ في اتخاذ السرج على القبور»، (٤/ ٩٤) كلهم من رواية أبي صالح عن ابن عباس ﵄.
قال الترمذي: «حديث ابن عباس حديث حسن، وأبو صالح هذا هو مولى أم هانئ بنت أبي طالب، واسمه باذان، ويقال: باذام أيضًا».
قال ابن رجب: «واختُلِفَ في أبي صالح هذا من هو؟، **فقيل**: إنه السمان، قاله **الطبراني**، وفيه بعدٌ، **وقيل**: إنه ميزان البصري، وهو ثقة، قاله **ابن حبان**، **وقيل**: إنه باذان مولى أم هانئ، قاله **الإمام أحمد والجمهور**.
وقد اختُلِفَ في أمره، فوثقه **العجلي**، **وقال ابن معين**: «ليس به بأس»، **وقال أبو حاتم**: «يُكتب حديثه ولا يُحتجُّ به»، **وقال النسائي**: «ليس بثقة»، وضعَّفه **الإمام أحمد**، **وقال**: «لم يصح عندي حديثه هذا»، **وقال مسلم** في كتاب =

ﷺ: «لعن الله زوَّارات القبور، والمتَّخذين عليها المساجد والسُّرُج»»، واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، و«زوَّارات» صيغة مبالغة، أي: كثيرات الزيارة، واتخاذ السُّرُج: بأن يُنير القبور فيجعل عليها أنوارًا.

لعن النبي ﷺ صنفان:

الصنف الأول: النساء زائرات القبور.

واختلف **العلماء** في زيارة النساء للقبور على ثلاثة أقوال:

الأول: الكراهة، وإليه ذهب **أكثر الشافعية**[١].

الثاني: مباحة لهن غير مكروهة إن أُمِنت الفتنة، وهذا قول **الجمهور.**

الثالث: التحريم، وهو قول المحقِّقين من أهل العلم **كشيخ الإسلام ابن تيمية**[٢] **وابن القيم**[٣] **رحمهما الله**، وهو **الصواب.**

الصنف الثاني: المتَّخذين على القبور مساجد وسُرُج.

فإذا اتخذ عليها مسجدًا صار وسيلة للشِّرك؛ لأنه يتخذها مساجد ويُصلِّي عندها، ثم يعبدها من دون الله، واتخاذ السُّرُج فيه تعظيم لها، وكذلك وضع القباب والزهور عليها والكتابة عليها، فكل هذا من وسائل الشِّرك.

= «التفصيل»: «هذا الحديث ليس بثابت، وأبو صالح باذام قد اتَّقى الناس حديثه، ولا يثبت له سماع من ابن عباس»». «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(١) «روضة الطالبين» (٢/ ١٣٩)، و«المجموع» (٥/ ٢٧٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٤٤ - ٣٤٩).

(٣) انظر: «حاشية ابن القيم على سنن أبي داود» (٩/ ٤٢ - ٤٥).

○ قوله: **وقال ﷺ: «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** أخرجه مالك في «الموطإ»، وابن سعد في «الطبقات»، وعبدالرزاق في «المصنف»[(١)].

وفيه: إثبات صفة الغضب لله ﷻ.

وفيه: تحذير من اتخاذ القبور مساجد، وأنه من الكبائر؛ حيث أن الله يغضب على من اتخذ القبور مساجد؛ لأنه وسيلة للشِّرك.

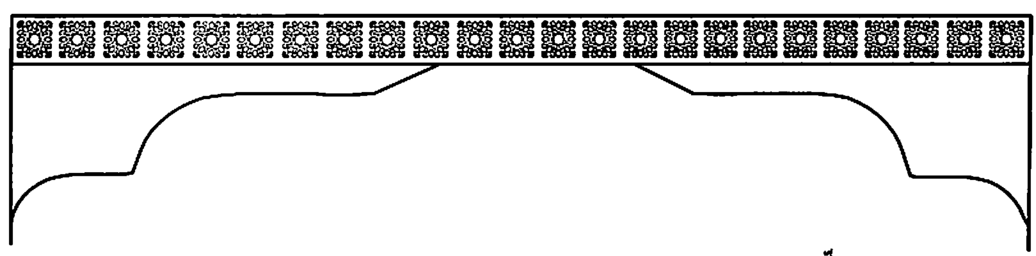
○ قوله: «**وقال ﷺ: «إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»» أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»**[(٢)] من حديث عائشة ﵂، وبَيَّنَ الرسول ﷺ فيه أن الذين يتخذون القبور مساجد من شرار الخلق عند الله؛ لأن ذلك وسيلة للشِّرك الأكبر.



---

(١) أخرجه مالك في «الموطإ» (١/ ١٧٢) رقم (٤١٤)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٤٠، ٢٤١) عَنْ زَيْدِ بن أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بن يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اللهم لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».
وأخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١/ ٤٠٦) رقم (١٥٨٧) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللهم لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثنا يُصَلَّى إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».
قال ابنُ عبدالبر: «لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث على ما رواه يحيى سواء». «التمهيد» (٥/ ٤١).
وقال ابن حجر: «مرسلًا». «هداية الرواة» (١/ ٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «بناء المسجد على القبر»، رقم (١٣٤١)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢٨).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«والنَّاس في هذا الباب ـ أعني: زيارة القبور ـ على ثلاثة أقسام:

قوم يزورون الموتى فيدعون لهم، وهذه هي الزِّيارة الشرعيَّة، وقوم يزورونهم يدعون بهم وهؤلاء هم المشركون، وجهلة العوامِّ والطَّغَام من غُلاتِهم، وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسَهم، وقد قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»، وهؤلاء هم المشركون في الربوبية».

الشَّرْح

○ قوله: **«والنَّاس في هذا الباب ـ أعني: زيارة القبور ـ على ثلاثة أقسام: قوم يزورون الموتى فيدعون لهم»** أي: للموتى **«وهذه هي الزِّيارة الشرعيَّة»**.

هذه **الزِّيارة الأولى، الزِّيارة الشرعيَّة**، وهي أن تزور الميت من غير سفر، بأن يكون في مكان إقامتك فلا تشد الرِّحال له، فتزوره وتُسلِّم عليه وتدعو الله له بالمغفرة والرحمة.

والزِّيارة المشروعة فيها ثلاث فوائد: فائدتان للحي وهو الزائر بأن يرِّق قلبه، ويتذكَّر الآخرة، ويحصل على الأجر والثواب بفعل السنة والطاعة، وفائدة للميت وهي الإحسان إليه بالدعاء له والتَّرحم عليه.

الزِّيارة الثانية: «وقوم يزورونهم يدعون بهم» يعني: بواسطتهم، فيسألون الميت أن يدعو لهم، فيزور الميت ويقول له: «ادعو الله

لي»، هو لا يدعوه ولا يقول له: «اغفر لي» أو «ارحمني» فلو قال ذلك صار شركًا؛ لأنه دعاه مباشرة، لكنهم يدعون بهم يعني: يسألون الميت أن يدعو لهم؛ لأنه يعتقد أن الميت حيٌّ في قبره وأن الله يرد عليه روحه، فيدعو الميت فيقول: «يا فلان، ادعو الله لي أن يرحمني»، «ادعو الله أن يُشفِّع فيَّ نبيه»، فهذا لم يدعُ الميت نفسَهُ، لكنه طلب منه أن يدعو له.

أما أن يطلب من حيٍّ حاضر أن يدعو له وهو يُؤمِّن فهذا لا بأس به، وهو من التوسل بدعائه، كما توسل الأعمى بدعاء ﷺ فردَّ الله عليه بصره، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَنِي»، فَقَالَ: **«إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ لِآخِرَتِكَ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ»**، قَالَ: «لَا، بَلْ ادْعُ اللهَ لِي»، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، وَأَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، وَأَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ **«اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِي، وَتُشَفِّعُنِي فِيهِ وَتُشَفِّعُهُ فِيَّ»، قَالَ: فَكَانَ يَقُولُ هَذَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ بَعْدُ: «أَحْسِبُ أَنَّ فِيهَا «أَنْ تُشَفِّعَنِي فِيهِ»»، قَالَ: فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَبَرَأَ**[1].

○ قوله: **«وهؤلاء هم المشركون، وجهلة العوامِّ والطَّغَام**[2] **من**

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «في دعاء الضيف»، رقم (٣٥٧٨)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب «ما جاء في صلاة الحاجة»، رقم (١٣٨٥)، وأحمد (٤/ ١٣٨) ـ واللفظ له ـ.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/ ٤٥٨).

(٢) الطَّغَام والطَّغَامة: أرذال الطَّير والسِّباع، وهما أيضًا أرذال الناس، الواحد والجميع في ذلك سواء. «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده (٥/ ٤٥٨).

غُلاتِهم» وهذا شرك كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه داخل في دعاء غير الله، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

القول الثاني: ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **وجماعة إلى** أنه مُحرَّم وبدعة وليس بشرك، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: فيمن يأتي إلى قبر نبي أو صالح أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح «إن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته، فهذا هو القسم الثاني، وهو: أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه، ولكن تطلب أن يدعو لك، كما تقول للحي: «ادعُ لي» وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبي ﷺ الدعاء فهذا مشروع في الحي كما تقدَّم، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول «ادع لنا» ولا «اسأل لنا ربك»، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا ورد فيه حديث، بل الذى ثبت في «الصحيح»[1] أنهم لما أجدبوا زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استسقى بالعباس، وقال: «**اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا**» فيُسقون، ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: «يا رسول الله، ادعُ الله لنا، واستسق لنا، ونحن نشكوا إليك مما أصابنا» ونحو ذلك، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، بل كانوا إذا جاءوا عند قبر النبي ﷺ يُسلِّمون عليه، فإذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر الشريف، بل ينحرفون ويستقبلون القبلة ويدعون الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا»، رقم (١٠١٠).

وحده لا شريك له كما يدعونه في سائر البقاع»[١].

والصواب القول الأول بأنه شرك، وهو قول **الجمهور**.

الزِّيارة الثالثة: «**وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسَهم**» يُنادِي الميت فيقول: «يا فلان اغفر لي»، «يا فلان ارحمني»، «فرج كربتي»، «نجني من النار»، فهذا شرك **بإجماع المسلمين**، وتحريمه معلوم بالضرورة بدين الإسلام، والنصوص من الكتاب والسنة متواترة في تحريم هذه الزِّيارة، وهذه الزِّيارة إحياء لملَّة **عمرو بن لحي الْخُزَاعِيِّ** الذي جلب الأوثان إلى بلاد العرب.

○ قوله: «**وقد قال النبي ﷺ**: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**» وتقدَّم[٢]، «**وهؤلاء هم المشركون في الربوبية**».

ومن دعا غير الله فقد جعله وثنًا، وقد أجاب الله دعاء نبيه، ولا يستطيع أحد أن يُباشره بالشِّرك، بل أُحِيط بجدران ثلاث، ووراء الجدران الثلاث الآن حواجز كثيرة كما **قال الإمام ابن القيم** ﷺ:

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثنًا من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان[٣]

وهناك **زيارة رابعة** لم يذكرها المؤلف ﷺ، وهي أنهم يزورونهم ويدعون الله عند قبورهم، ويعتقدون أن الدعاء عند القبر مستجاب، وهذا من البدع ووسائل الشِّرك المُحَرَّمَة، ومن كبائر الذنوب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «نونية ابن القيم» (ص ٢٥٢).

❁ **فالزِّيارة أربعة أقسام:**

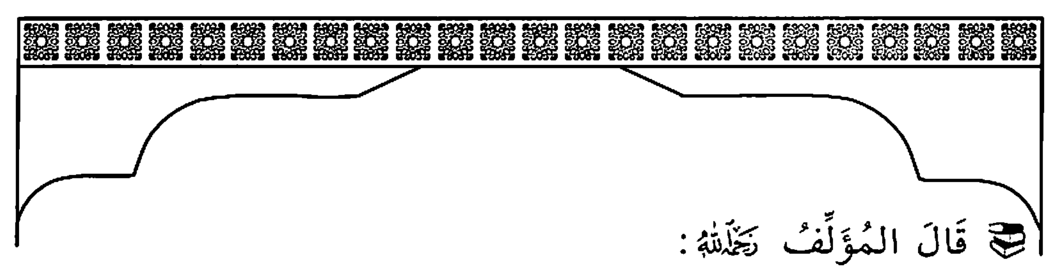
الأول: قوم يزورون الموتى فيدعون الله لهم، وهذه زيارة شرعية.

الثاني: قوم يزورون الموتى ليدعون بهم، وهذا شرك، **وقيل:** بدعة ومُحَرَّم وكبيرة.

الثالث: قوم يزورون الموتى فيدعونهم أنفسَهم، وهذا شرك **بالإجماع.**

الرابع: قوم يزورونهم ويدعون الله عند قبورهم، وهذا من وسائل الشِّرك والبدع المُحَرَّمة.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقد حمى النبي ﷺ جانب التَّوحيد أعظم حماية؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، حتى نهى عن الصلاة في هذين الوقتين؛ لكونه ذريعةً إلى التَّشبُّهِ بعُبَّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح؛ لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

وأما السجود لغير الله فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلَّا لله»، و«لا ينبغي» في كلام الله ورسوله ﷺ إنما يُستعمل للذي هو في غاية الامتناع كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مَريَم: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٠-٢١١]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفُرقان: ١٨]».

الشَّرْح

○ قوله: «**وقد حمى النبي ﷺ جانب التَّوحيد أعظم حماية**» فالنبي ﷺ حَمَى جانب وحِمَى التَّوحيد، فنهى عن البدع، ونهى عن كل وسيلة وذريعة تُوصِل إلى الشِّرك الأصغر أو الأكبر أو تقدح في كمال التَّوحيد، فنهى عن الحلف بغير الله[1]، وعن قول «ما شاء الله

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب «لا تحلفوا بآبائكم»، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم، كتاب الأيمان، رقم (١٦٤٦) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

وشئت»[١]، وعن الصلاة إلى القبور[٢] والبناء عليها[٣]، ونهى عن الرقى والتمائم والتِّوَلة[٤]، ونهى عن كل شيء يُؤدي إلى الشِّرك، فحمى ﷺ طريق التَّوحيد وسدَّ كل طريق يُؤدِّي إلى الشِّرك من الذرائع والوسائل والبدع والمُحدَثات في الدين؛ «**تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾** [الفاتحة: ٥]» وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فيها أفراد الله بالعبادة، معناها: نعبدك يا الله ولا نعبد سواك، تحقيقًا للعبودية الخالصة لله ﷻ.

○ قوله: «**حتى نهى عن الصلاة في هذين الوقتين**» يعني: عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ «**لكونه ذريعةً إلى التَّشبُّهِ بعُبَّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين**» في «صحيح مسلم»[٥] عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه قَالَ: «**يَا نَبِيَّ اللهِ، أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الكفارات، باب «النهي أن يُقال «ما شاء الله وشئت»»، رقم (٢١١٧)، وأحمد (١/ ٢١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قال البوصيري: «هذا إسناد فيه الأجلح بن عبدالله، مختلف فيه، ضَعَّفَه أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن مسعد، ووثَّقه ابن معين والعجلي ويعقوب ابن سفيان، وباقي رجال الإسناد ثقات». «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٣٦).
(٢) تقدَّم تخريجه من حديث أبي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في تعليق التمائم»، رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب «تعليق التمائم»، رقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٢٤١).
و«**التمائم**» جمع تميمة، وهي خرز أو قلادة تعلق في الرأس كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات.
و«**التِّوَلة**» ـ بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففًا ـ شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشِّرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله. «فتح الباري» (١٠/ ١٩٦).
(٥) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٨٣٢).

اللهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ»، قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ؛ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»، فنهى النبي ﷺ عن الصلاة في هذين الوقتين لكونها ذريعة إلى التَّشبُّهِ بعُبَّاد الشمس ولو كان يُصلي لله لأنه يشابه المشركين الذين يسجدون للشمس فنَهَى عن ذلك **«وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح؛ لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس»** فمنع الصلاة بعد العصر والصبح ولو كانت الشمس بعيدةً طلوعها أو غروبها، أحيانًا يكون وقت الغروب بعد صلاة العصر بثلاث ساعات ومع ذلك نهى عن الصلاة بعده، وكذلك الفجر أحيانًا يكون وقت طلوع الشمس بعد صلاة الفجر بساعة ومع ذلك نهى عن الصلاة بعده؛ سدًّا للذريعة.

وقد قرَّر **الإمام ابن القيم** رحمه الله ذلك، **فقال:** «ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لكون هذين الوقتين وقت سجود الكفار للشمس، ففي الصلاة نوع تشبه بهم في الظاهر، وذلك ذريعة إلى الموافقة والمشابهة في الباطن، وكذلك النهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الفجر وإن لم يحضر وقت سجود الكفار للشمس؛ مبالغة في هذا المقصود، وحماية لجانب التوحيد، وسدًّا لذريعة الشرك بكل ممكن»[1].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٦٢).

والصلاة في هذين الوقتين بعد صلاة الفجر وصلاة العصر ممنوع مطلقًا عند **الجمهور**[١] **قالوا**: أحاديث النهي صحيحة فلا يُصلَّى في هذا الوقت مطلقًا ولا الصلوات ذوات الأسباب[٢]، وذهب **الشافعي**[٣] **وجمع من المُحَقِّقين كشيخ الإسلام ابن تيمية**[٤] **وابن القيم**[٥] **رحمهما الله** إلى جواز الصلاة ذوات السبب كقضاء الفوائت، وصلاة الكسوف أو الخسوف، وتحية المسجد، وسنة الوضوء، وصلاة الاستخارة، وركعتي القدوم من السفر، وذهب بعض الأئمة[٦] إلى جواز الصلاة بعد العصر إلى غروب الشمس وبعد الفجر إلى طلوع الشمس، والصواب أن النهي عن الصلاة المطلقة لا ذوات الأسباب.

○ قوله: «**وأما السجود لغير الله فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلَّا لله»**» أخرجه الترمذي وابن حبان والبيهقي[٧] من حديث أبي هريرة ﷺ بسند فيه **محمد بن عمرو**[٨]،

---

(١) انظر: «نيل الأوطار» (٣/ ١٠٧).

(٢) المراد بذات السبب: التي لها سبب مُتقدِّم عليها. «المجموع» (٤/ ١٥٣).

(٣) «اختلاف الحديث» للشافعي (ص ٥٠٤، ٥٠٥)، و«الأم» (١/ ١٤٩، ١٥٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٦٤)، (٢٣/ ١٩١).

(٥) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦١)، و«روضة المحبين» (ص ٩٥).

(٦) صَرَّحَ بذلك **ابن حزم**، **قال**: «الصلاة المنهي عنها في هذه الأوقات إنما هي التطوع المتعمد ابتداؤه قصدًا إليه، وكذلك كل صلاة فرض مقضية تعمد تركها إلى ذلك الوقت وهو يذكرها فقط، لا كل صلاة مأمور بها أو مندوب إليها، وبالله تعالى التوفيق». «المحلى» (٥/ ١١٥).

(٧) أخرجه الترمذي، كتاب الرضاع، باب «ما جاء في حق الزوج على المرأة»، رقم (١١٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٩/ ٤٧٠ ح ٤١٦٢) ـ واللفظ له ـ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٩١).
ولفظه: «ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، ولو كان أحد ينبغي أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها؛ لما عظم الله عليها من حقه».
قال الترمذي: «حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه».

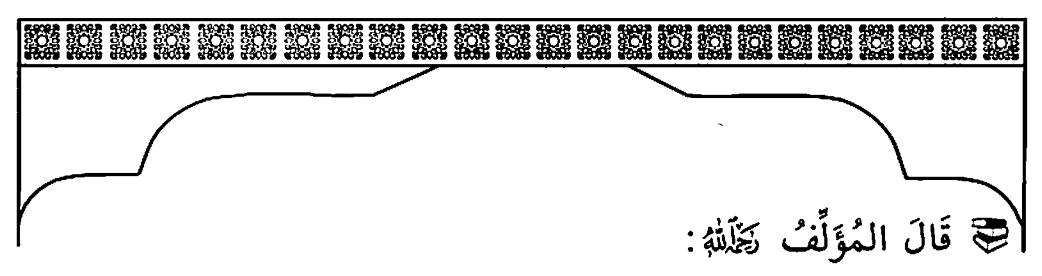
(٨) ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٦/ ٢١٢ ـ ٢١٨).

وهو حسن بشواهده، ومعناه صحيح.

○ قوله: «و«لا ينبغي» في كلام الله ورسوله إنما يُستعمل للذي هو في غاية الامتناع» وهذا قرَّره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، قال: «ويُستفاد التحريم من النهي والتصريح بالتحريم والحظر...، وقوله «لا ينبغي»؛ فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلًا وشرعًا،....»[1] «كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم: ٩٢]» يعني: ممتنع ومستحيل على الله أن يتخذ ولدًا، فمن نسب الولد لله فقد كفر، وهكذا الأمثلة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.



(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ٨١٠).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ومن الشِّرك بالله تعالى المُبَايِن لقوله تعال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]: الشِّرك به في اللفظ كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» صحَّحَه الحاكم وابن حبان.

قال ابن حبان: أخبرنا الحسن بن سفيان، ثنا عبد الله بن عمر الجعفي، ثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن الحسن بن عبد الله النخعي، عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر رضي الله عنهما فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ويحك، لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد أشرك»».

الشَّرْح

○ قوله: «ومن الشِّرك بالله تعالى المُبَايِن» يعني: المُفَارِق المُخَالِف «لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: الشِّرك به في اللفظ كالحلف بغيره»؛ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تحقيق التَّوحيد والعبادة، والحلف بغيره يُبايِن تحقيق التَّوحيد، فهذا من الشِّرك به في اللفظ «كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[1] صحَّحَه الحاكم وابن حبان».

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب «كراهية الحلف بالآباء»، رقم (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب النذور والأيمان، باب «ما جاء في كراهية الحلف بغير الله»، رقم (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ١٢٥). =

قال ابن حبان[(١)] : أخبرنا الحسن بن سفيان، ثنا عبدالله بن عمر الجعفي، ثنا عبدالرحيم بن سليمان، عن الحسن بن عبدالله النخعي، عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر رضي الله عنهما فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ويحك، لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد أشرك»»، فالحلف بغير الله يُبايِن تحقيق التَّوحيد، ومن الشِّرك به في اللفظ.

والحلف بغير الله تعالى شرك أصغر، ومن حلف بغير الله تعالى على وجه التعظيم له كتعظيم الله أو اعتقد تسويته بالله أو اعتقد أنه يستحق شيئًا من العبادة صار شركًا أكبر، فالحلف بغير الله شرك أصغر وقد يكون أكبر في حالات:

الأولى: إذا حلف له على وجه التعظيم كتعظيم الله.

الثانية: إذا اعتقد تسويته بالله.

الثالثة: إذا حلف به واعتقد أنه يستحق شيئًا من العبادة.

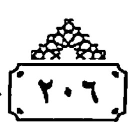


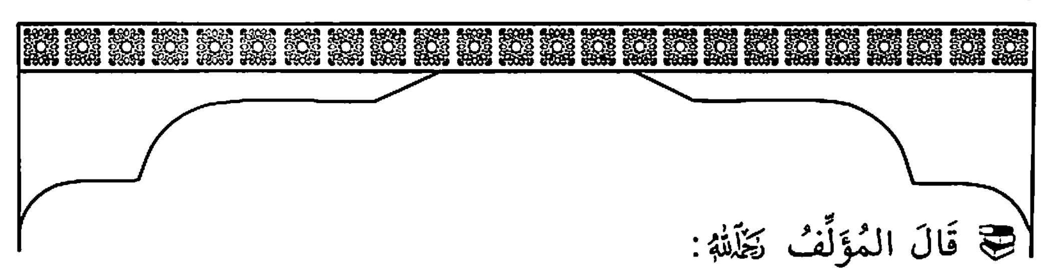
= **قال الترمذي**: «هذا حديث حسن».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين». «المستدرك» (١/ ٦٥).

وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٨).

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩ ح ٤٣٥٨).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن الإشراك: قول القائل لأحد من الناس: «ما شاء الله وشئت»؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: «ما شاء الله وشئت»، فقال: «أجعلتني لله نِدًّا؟!، قل: «ما شاء الله وحده»»، هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، فكيف بمن يقول: «أنا متوكل على الله وعليك»، و«أنا في حَسَبِ الله وحَسَبِكَ»، و«ما لي إلَّا الله وأنت»، و«هذا مِنَ الله ومِنْك»، و«هذا مِنْ بركات الله وبركاتك»، و«الله لي في السماء وأنت لي في الأرض»؟!، وأزن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى عنه ﷺ مِنْ «ما شاء الله وشئت»، ثم انظر أيها أفحش؟، يتبيَّن لك أن قائلها أولى بالبُعْدِ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وبالجواب من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ نِدًّا فهذا قد جعل من لا يُدانِيه لله ندًّا».

الشَّرْح

هذا الكلام نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من «الجواب الكافي»[1] لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

○ **قوله: «ومن الإشراك: قول القائل لأحد من الناس: «ما شاء الله وشئت»»** هذا من الإشراك باللفظ، وجه ذلك: أنه سوَّى بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق بالواو، والدليل: **«كما ثبت عن النبي**

(١) «الجواب الكافي» (ص ٩٣).

ﷺ **أنه قال له رجل: «ما شاء الله وشئت»، فقال: «أجعلتني لله نِدًّا؟!، قل: «ما شاء الله وحده»»**(١) إذًا قول «ما شاء الله وشئت» ممنوع، وهو من الشِّرك الأصغر.

والتنديد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تنديد أكبر، كمن جعل نِدًّا لله في المحبة والتعظيم والعبادة.

الثاني: تنديد أصغر، كمن عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق بالواو، كما ثبت عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البَقَرَة: ٢٢] **قال**: «الأنداد: هو الشِّرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: «والله، وحياتك يا فلانة»، «وحياتي»، ويقول: «لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص»، و«لولا البط في الدار لأتى اللصوص»، وقول الرجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئت»، وقول الرجل: «لولا الله وفلان»، «لا تجعل فيها فلان» فإن هذا كله به شرك»(٢)، فهذا من **التنديد الأصغر** الذي لا يُخرج من المِلَّةِ.

○ قوله: «**هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى**: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]» وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فعطفُ مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق بالواو ممنوع؛ لأن الواو تفيد التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، لكن لو جاء بـ«ثم» وقال: «ما شاء الله ثم شئت» جاز ذلك؛ لأن «ثم» تُفيد الترتيب والتراخي، فهي تُفيد بأن المعطوف جاء بعد المعطوف عليه بمهلة، بخلاف الواو التي

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٦٢).

تُفيد التشريك، والفاء تُفيد الترتيب ولا تُفيد التراخي، فقولك «ما شاء الله فشئت» تُفيد أن مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق مباشرة من دون تراخي، أما «ثم» تُفيد الترتيب والتراخي، **والأكمل** أن تقول «ما شاء الله وحده»، فالأحوال ثلاثة:

الأولى: حال كمال، كأن تقول: «ما شاء الله وحده».

الثانية: حال جواز، كأن تقول: «ما شاء الله ثم شئت».

الثالثة: حال منع، كأن تقول: «ما شاء الله وشئت».

○ قوله: «**فكيف بمن يقول: «أنا متوكل على الله وعليك»** إذا كان الذي قال «ما شاء الله وشئت» ممنوع فكيف بالذي يقول «أنا متوكل على الله وعليك»؟!، بل حتى إذا جاء بكلمة «ثم» قال: «توكلت على الله ثم عليك» كان ممنوعًا **على الصحيح**؛ لأن التوكل عمل قلبي فلا يُعطف بالمخلوق، وإن كان قد أجازه **بعضهم**، لكن **الصواب** المنع[1].

○ قوله: «**و«أنا في حَسَبِ الله وحَسَبِكَ»**، و«**ما لي إلَّا الله وأنت**»، و«**هذا مِنَ الله ومِنْك**»» كل هذا ممنوع؛ لأنه عطف بالواو وهذا باطل، بل يقول «هذا من الله ثم أنت».

○ قوله: «**و«هذا من بركات الله وبركاتك»**» ممنوع؛ لأنه عطف بركات المخلوق على بركات الخالق، ولو قال: «هذا من بركاتك» وسكت لكان جائزًا إذا كان الشخص مباركًا، كما في «الصحيحين»[2] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٣٢٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٥٢)، و«الروح» (ص ٢٦٣)، و«أصول الإيمان» للإمام المجدد (ص ٢٧)، و«مفيد المستفيد» ص ٢٩٥).

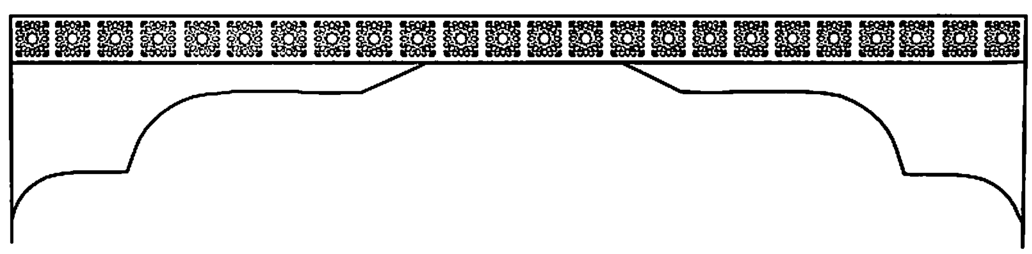
(٢) أخرجه البخاري، كتاب التيمم، باب «قول الله تعالى ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦]»، رقم (٣٣٤)، ومسلم، كتاب الحيض، رقم (٣٦٧).

بَعْضِ أَسْفَارِهِ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْتِمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا: «أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: «حَبَسْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي فَلَا يَمْنَعُنِي مِنْ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ: **«مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ»**، قَالَتْ: فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَأَصَبْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ، فيجوز أن يقول: «هذا من بركاتك»، لكن يعطف فيقول «هذا من بركات الله وبركاتك» ممنوع، «و» كذلك قول **«الله لي في السماء وأنت لي في الأرض»** كل هذا ممنوع.

○ قوله: **«وأزن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى عنه ﷺ من «ما شاء الله وشئت»، ثم انظر أيها أفحش؟»** يبين المؤلف رحمه الله أنه إذا كان الرسول ﷺ منع من قول «ما شاء الله وشئت» فكيف بهذه الألفاظ «ما لي إلا الله وأنت»، و«أنا متوكل على الله وعليك»؟!، فهذه العبارات أفحش.

○ قوله: **«يتبيَّن لك أن قائلها أولى بالبُعْدِ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** [الفَاتِحَة: ٥] **وبالجواب من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ نِدًّا فهذا قد جعل من لا يُدانِيه لله نِدًّا»** أي: فقد جعل من لا يُداني الرسول ﷺ نِدًّا لله، يعني: أبعد وأفحش.

❁ ❁ ❁



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وبالجملة: فالعبادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] هي السجود، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، والنذور، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبُّدًا، والدعاء، كل ذلك محض حقِّ الله تعالى، وفي «مسند الإمام أحمد» أن رجلًا أُتِيَ به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه قال: «اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد»، فقال ﷺ: «عرف الحق لأهله»، وأخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع، وقال: «حديث صحيح»».

الشَّرْح

○ قوله: «وبالجملة: فالعبادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]» شاملة لجميع أنواع العبادات، فقال: «هي السجود» فإذا سجد فقد عبد.

○ قوله: «والتوكل» فهو خاصٌّ بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائدة: ٢٣]، فلا يُتوكَّل إلا على الله، ومن يتوكَّل على غير الله كمن توكَّل على ميت أو غائب أو حيٍّ عاجز فهذا شرك أكبر، ومن توكَّل على حيٍّ فيما يقدر عليه فهذا شرك أصغر ممنوع؛ لأن التوكل عمل قلبي، والتوكل على الحيِّ في

الأسباب الظاهرة هذا شرك أصغر، كمن يتوكَّل على أمير أو سلطان فيما يقدر عليه فهذا شرك أصغر؛ لما فيه من اعتماد بالقلب عليه.

○ قوله: «**والإنابة**» وهي الرجوع لله ﷻ.

○ قوله: «**والتقوى**» وهي أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية.

○ قوله: «**والخشية**» وهي من أعمال القلوب، وأما الخشوع فهو من أعمال القلوب والأبدان، والإخبات هو الخشوع.

○ قوله: «**والتوبة**» إن كانت بنية العبادة ومغفرة الذنوب لغير الله فهي شرك، كالتوبة من المُرِيد لشيخه، والصوفي لشيخه، والنصراني للقسيس فيعطيهم صك الدخول للجنة ـ نسأل الله العافية ـ، وكذلك توبة بعض الشيعة لرؤسائهم ويعطيه صك الغفران، فهذا شرك.

أما التوبة للمخلوق بمعنى الرجوع فهذا جائز كما في «الصحيحين»[١] عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ﵂ أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، فَقُلْتُ: «**يَا رَسُولَ اللهِ أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، مَاذَا أَذْنَبْتُ؟!**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ**[٢]**؟!**»، قُلْتُ: «اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»**»، وَقَالَ: «**إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب «التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء»، رقم (٢١٠٥)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، رقم (٢١٠٧).

(٢) هي بضم النون والراء، **ويقال**: بكسرهما، **ويقال**: بضم النون وفتح الراء، ثلاث لغات، **ويقال**: نمرق بلا هاء، وهي: وسادة صغيرة، **وقيل**: هي مرفقة. شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٤/ ٩٠).

تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ»، فقول عائشة رضي الله عنها **«يَا رَسُولَ اللهِ أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ»** بمعنى: **الرجوع عن التقصير في ترك حقِّه.**

○ قوله: **«والنذور»** النذر: هو أن يُلزِم نفسه بطاعة لم يُوجبها الله عليه، كأن ينذر أن يُصلِّي في الليل أو يُصلِّي عشرين أو ثلاثين ركعة، ويجب عليه أن يفي بنذره، في «صحيح البخاري»[١] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»**، وقد يكون مُعلَّقًا كأن يقول: «إذا شفى الله مريضي أو نجح ولدي في الامتحان لأصلي لله عشرين ركعة، أو لأصوم عشرة أيام، أو لأتصدق بكذا وكذا، أو لأذبحن خروفًا وأوزعه على الجيران» فإذا تحقق الشرط وجب عليه أن يفي بنذره.

○ قوله: **«والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار»** كل هذا محض حق الله تعالى، فلا يجوز أن تصرف لغيره سبحانه.

○ قوله: **«وحلق الرأس خضوعًا وتعبُّدًا»** كما يفعل **الصوفية**، فيحلق رأسه عند شيخه تعبدًا وتوبة له وخضوعًا فهذا شرك، وإن حلق رأسه تشبهًا **بالخوارج** فهذا مُحَرَّم، أما إذا حلق رأسه للنظافة أو لأن به جروح فمباح.

○ قوله: **«والدعاء»** قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

○ قوله: **«كل ذلك محض حقِّ الله تعالى وفي «مسند الإمام أحمد»[٢] أن رجلًا أُتِيَ به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف**

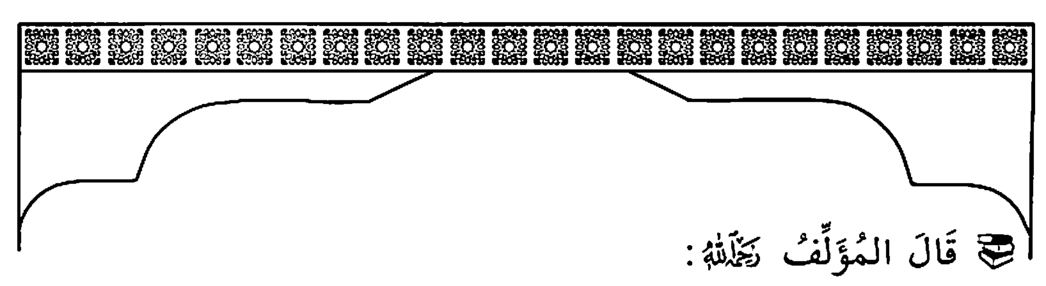
---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب «النذر في الطاعة»، رقم (٦٦٩٦).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥).

بين يديه قال: «اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد»، فقال ﷺ: «عرف الحق لأهله»، وأخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع، وقال: «حديث صحيح»[1]»، فالله تعالى هو أهل التوبة والتقوى والمغفرة، فالتوبة عبادة لله ولا تكون إلا له سبحانه، فلما قال: «اللهم إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ» أي: إني أعبدك ولا أعبد محمدًا، قال رسول الله ﷺ: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**».



(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٤).
وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأما الشِّرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقُم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]؛ فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفية ملَّة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، فاستمسك بهذا الأصل، ورُدَّ ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تتحقق معنى الكلمة الإلهية».

الشَّرْح

وهذا نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من «الجواب الكافي»[1] لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

○ قوله: **«وأما الشِّرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له»** يعني: كثير، والمعنى: أن الشِّرك في الإرادات والنيات كثير لا حدَّ له، ولذلك شَبَّهَهُ بالبحر الذي لا ساحل له.

والنيات جمع نية، وتُطلق النية على القصد وعزم القلب على أمر من الأمور، فإن كانت لغير الله فهذا شرك يُنافي الإخلاص الذي هو تجريد القصد وطاعة للمعبود بحقٍّ.

○ قوله: **«وقلَّ من ينجو منه»** يقصد شرك الإرادات والنيات،

(١) «الجواب الكافي» (ص ٩٤).

وذلك لحبِّ كثير من الناس الظهور، والتصنُّع للخلق، والتحلِّي بما ليس فيه، والتطلُّع إلى ثناء الناس عليه.

○ قوله: «**فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقُم بحقيقة قوله**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾»؛ لأن تحقيق العبادة يمنع من الرياء، كما أن حقيقة قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٥] يمنع من الإعجاب، والفرق بينهما: أن الرياء إشراك الخلق مع الله، والإعجاب إشراك النفس، فيُعجب العبد بعمله.

۞ والعمل لغير الله له أحوال(١):

الأولى: أن تكون أعماله رياء للمخلوقين كلها، فهذا شرك يصدر من منافق الذي دخل الإسلام رياء، فالمنافق دخل في الإسلام رياء ونفاقًا حتى يسلم ماله ودمه كعبدالله بن أُبِيٍّ ومن معه من المنافقين، وهذا هو الرياء الأكبر، وهو الذي يصدر من منافق، أما الرياء الأصغر فيصدر من المؤمن.

الثاني: أن يعمل لله ثم يَعرض له الرياء في أثناء العمل، فإن دفعه بأن استعاذ بالله فلا إشكال، وإن استرسل معه واستمر إلى آخر العبادة **فقال جماعة**: أن حكمه حكم النية في أثناء الصلاة إذا قطعها في أثناء الصلاة، فإذا كان لا يصح آخرها إلا بصحة أولها لزمه الإعادة، وإلَّا فلا، **وقال طائفة من أهل العلم**: يجازى بقدر نيته، هذا في العبادة الذي يرتبط آخرها بأولها، وأما العبادة التي لا يرتبط آخرها بأولها كالقراءة فإنه يُجازى على الإخلاص، وتنقطع النية الصالحة بوجود الرياء.

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٨١، ١٨٢).

الثالثة: أن تكون نيته لغير الله ثم يَعرض له الإخلاص والعمل لله.

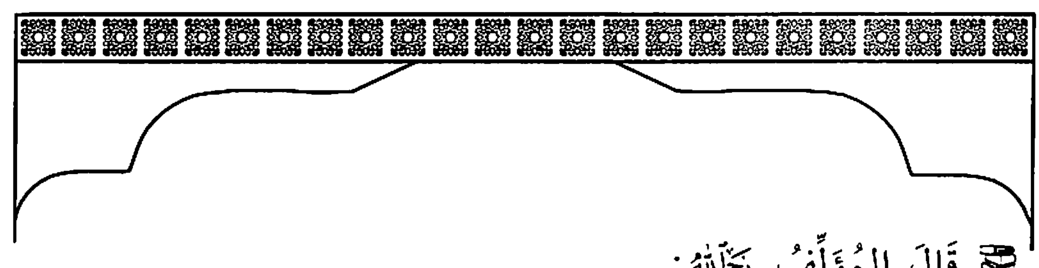
الرابعة: مشاركة الرياء من أصل العمل إلى نهايته فهذا العمل حابط؛ في «صحيح مسلم»[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»»**.

وقاعدة الرياء في العبادات مغايرة لقاعدة التشريك في العبادات، وبعض الناس يخلط بينهما.



---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٨٥).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فإن قيل: المُشرِك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلَّا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمُشرِك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وإنما أعبد هذه الوسائط لتُقرِّبني إليه، وتَدْخُلَ بي عليه، فهو الغاية وهذه وسائل، فَلِمَ كان هذا القدر مُوجِبًا لسخط الله تعالى وغضبه، ومُخلِّدًا في النار، ومُوجِبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟!.

وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التَّقرُّب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استُفِيد بالشرع فقط أم ذلك قبيح في الشرع، والعقل يمنع أن تأتي به شريعة من الشرائع؟.

وما السرُّ في كونه لا يُغْتَفَرُ من بين الذنوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]؟».

قلنا: «الشِّرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله، وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سُبْحَانَهُ لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.

وأما الشِّرك الثاني فهو الذي فرغنا من الكلام فيه، وأشرنا إليه الآن، وسنشُبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

أما الشِّرك الأول فهو نوعان:

أحدهما: شرك التَّعطِيل، وهو أقبح أنواع الشِّرك، كشرك فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

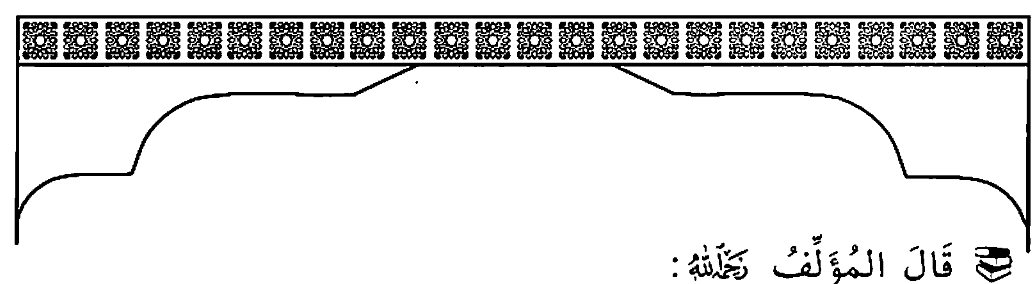
والشِّرك والتَّعطِيل متلازمان، فكل مُشرِك مُعطِّل، وكلُّ مُعطِّل مُشرِك، لكن الشِّرك لا يستلزم أصل التَّعطِيل، بل قد يكون المُشرِك مُقِرًّا بالخالق ﷻ وصفاته ولكنه مُعطِّل حقَّ التَّوحيد».



الشَّرْح

وبهذا تبيَّن أن الشِّرك والتعطيل متلازمان، فكلُّ مُشرِك مُعطِّل؛ لأنه عَطَّلَ حقَّ التَّوحيد، وكلُّ مُعطِّل لأسماء الله وصفاته فهو مُشرِك؛ لأنه شَبَّهَ الله بالمخلوقات الناقصة فنفى عنه صفات الكمال، لكن الشِّرك لا يستلزم أصل التَّعطِيل الذي هو جحد صفات الله وإنكار وجوده، بل قد يكون المشرك مُقِرًّا بالخالق ﷻ وصفاته، ولكنه مُعَطِّل حقَّ التوحيد.

❁ ❁ ❁



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وأصل الشِّرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التَّعطِيل، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

الثاني: تعطيل الصَّانع عن كماله الثابت له.

الثالث: تعطيل معاملته عمَّا يجب على العبد من حقيقة التَّوحيد.

ومن هذا: شرك أهل الوِحدة، ومنه: شرك الملاحدة القائلين بِقِدَمِ العالم وأبديته، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، ويسمُّونها «العقول والنفوس»، ومنه: شرك مُعطِّلة الأسماء والصفات كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة».

الشَّرْح

فأصل الشِّرك يرجع إلى التعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه، والمصنوع يعني: المخلوق كالسماوات والأرضين، فإذا أنكر وجود الله عَطَّلَ وجود المصنوع وصانعها، يعني: يُنكِر أن يكون لها صانع أو خالق، فإذا أنكر وجود الله فقد عَطَّلَ وجود المصنوع وصانعه.

الثاني: تعطيل الصَّانع وهو الله عن كماله الثابت له.

الثالث: تعطيل معاملته عمَّا يجب على العبد من حقِّ التوحيد.

وكلمة «الصانع» تُطلق على الله من باب الخبر، وليس اسمًا

لله، **وقال بعض العلماء**: أن باب الخبر أوسع من باب الأسماء، يُخبَر عن الله بأنه صانع وبأنه موجود، ولا يُقال بأن «موجود» من أسماء الله، لكن هذا من باب الخبر؛ لأن الأسماء والصفات توقيفية.

○ قوله: «ومن هذا» يعني من شرك التَّعطِيل «**شرك أهل الوِحدة**» وهم القائلون بأن الوجود واحد، يقولون: بأن الخالق عين المخلوق، والمخلوق عين الخالق، والرَّبُّ عين العبد، والعبد عين الرَّبِّ، ومن قولهم: «ليس في الوجود إلا الله»، و«أن عُبَّاد العجل مصيبون»، و«أن فرعون مصيب في دعواه الربوبية»(١)، نسأل الله العافية.

أهل الحلول والاتحاد يقولون: «كل شيء تراه هو الخالق»، يقولون: «الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو نفسه»، يقولون: «لا خالق إلا الله» يعني: لا موجود إلا الله، كل الموجودات هي الله، الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، والرَّبُّ هو العبد، والعبد هو الرَّبُّ كما **قال رئيسهم ابن عربي**:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف
هذا في البالغ والصغير ... غير مكلف وهو اليتيم(٢)

وقال:

الرب حق والعبد حق ... ياليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنى يكلف(٣)

وقال ابن سبعين: «رب مالك وعبد هالك وأنتم ذلك الله فقط

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥).
(٢) «الفتوحات المكية» لابن عربي (١/ ٦٧٠).
(٣) «الفتوحات المكية» لابن عربي (١/ ٣٥).

والكثرة وهم»[١] ـ والعياذ بالله ـ، هكذا **الاتحادية** ـ والعياذ بالله ـ عندهم الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق.

أعظم الناس كُفرًا الذين يُسمَّون «**الاتحادية**»، يقولون: الوجود واحد ـ نسأل الله السلامة ـ، يقولون: «لا موجود إلا الله»، وعلى هذا يقولون: كل من عبد شيئًا فقد عبد الله، من عبد الأصنام والأشجار والأحجار والنار كلهم مصيبون، والكفر بالتخصيص، من خصَّصَ شيئًا وقال: «لا أعبد إلا هذا الشيء» هو الكافر عندهم، ويقولون: «إن فرعون مصيب في دعواه للربوبية»؛ لأن الوجود واحد، ويقولون: «إنه من أكبر العارفين»، فهو زميلهم وخليلهم؛ لأنه يوافقهم، ويقولون: «لِمَ أنكر موسى على هارون إنكاره على بني إسرائيل عبادة العجل؟!!؛ فهم مصيبون» ـ نسأل الله العافية ـ.

○ قوله: «**ومنه: شرك الملاحدة القائلين بِقِدَمِ العالم وأبديته**» وهم **الفلاسفة**، **قالوا**: بأن العالم قديم وليس له بداية، ويقولون: «العالم مفعول للعقل الأول»[٢]، «**وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ويسمُّونها «العقول والنفوس»**» ويجعلونها الملائكة[٣].

○ قوله: «**ومنه: شرك مُعطِّلة الأسماء والصفات كالجهمية**» الذين أنكروا أسماء الله وصفاته[٤] «**والقرامطة**» وهم فرقة باطنية تُنسب إلى **حمدان**، لا يؤمنون بالبعث ولا المعادِ ولا بالجنة ولا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٨٧).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٨٦)، و«بدائع الفوائد» (٤/ ٩٦٢).
(٣) انظر: «الصفدية» (١/ ١٩٩)، و«بغية المرتاد» لابن تيمية (ص ٢١٥، ٢١٦).
(٤) انظر: «النبوات» لابن تيمية (ص ١٤٣).

بالنار[١]، وقد دخلوا مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة سبع عشر وثلاثمائة، وقتلوا المسلمين، وقطَّعوا رؤوسهم وألقوا بها في بئر زمزم حتى امتلأ البئر من الرؤوس، وقلعوا الحجر الأسود وذهبوا به إلى الإحساء، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة، حتى ردوه في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة[٢]، حتى أن **الفقهاء** في ذلك الوقت **أَلَّفُوا**، **وقالوا** : إذا وُجِدَ الحجر استحب استلامه[٣]، ولهم اعتقادات كفرية كثيرة.

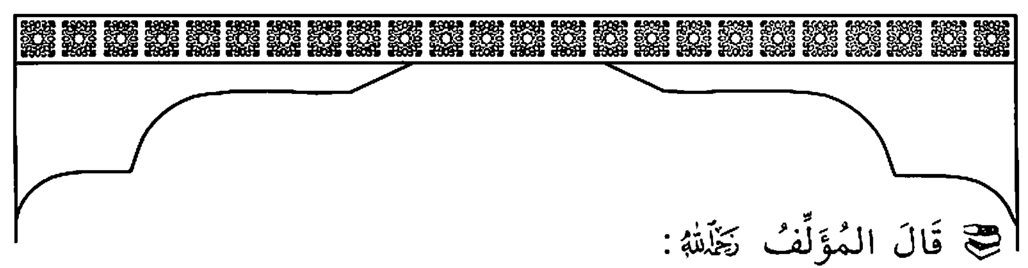


---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٤).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ١٦٠، ١٦١).

(٣) **قال ابن قدامة** : «وقول **الخرقي (إن كان)** يعني : إن كان الحجر في موضعه لم يذهب به كما ذهب به **القرامطة** مرة حين ظهروا على مكة، فإن كان ذلك ـ والعياذ بالله ـ فإنه يقف مقابلًا لمكانه ويستلم الركن». «المغني» (٣/ ١٨٢).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«النوع الثاني: شرك التمثيل، وهو شرك من جعل معه إلهًا آخر كالنصارى في المسيح، واليهود في عُزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشَّرِّ إلى الظلمة، وشرك القدريَّة والمجوسية مختصر منه.

وهؤلاء أكثر مشركي العالم، وهم طوائف جَمَّة، منهم: من يعبد أجزاء سماوية، ومنهم: من يعبد أجزاء أرضية، ومن هؤلاء: من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة، ومنهم: من يزعم أنه إذا خصَّه بعبادته والتبتُّل إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم: من يزعم أن معبوده الأدنى يُقرِّبه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يُقرِّبه إلى من هو فوقه، حتى تُقرِّبه تلك الآلهة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقِلُّ».

الشَّرْح

هذا تقسيم للشِّرك المتعلِّق بذات المعبود، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**النوع الثاني: شرك التمثيل**»، **والنوع الأول**: شرك التَّعطِيل.

○ قوله: «**وهو شرك من جعل معه إلهًا آخر كالنصارى في المسيح، واليهود في عُزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشرِّ إلى الظلمة**» مَثَّلَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بأنواع من الشِّرك:

النوع الأول: **النصارى** في المسيح، فالنصارى جعلوا المسيح إلهًا مع الله.

النوع الثاني: **اليهود** في عُزير.

النوع الثالث: المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشَّرِّ إلى الظلمة.

فمَثَّلَ بثلاثة في أنواع شرك من جعل مع الله إلـهًا آخر، مَثَّلَ بالنصارى واليهود والمجوس.

○ قوله: «**وشرك القدريَّة والمجوسية مختصر منه**»، وشرك **القدريَّة** ينقسم إلى ثلاثة أقسام: **قدرية، ومجوسية، وإبليسية**[١].

المجوسية الذين كَذَّبوا بالقدر وآمنوا بالأمر والنهي، شركهم مختصر من شرك **المجوس**، ووجه الاختصار: أن **المجوس** قالوا: هناك خالقين، خالق للخير وخالق للشَّرِّ[٢] والقدرية المجوسية قالوا بخَالِقين، كل عبد يخلق فعل نفسه، صار خالق مع الله، فكل واحد يخلق أفعاله[٣]، لكنهم لم يقولوا مثل ما قال **المجوس** إن هناك خالق خير وخالق للشَّرِّ، هم يقولوا إن الخالق هو الله، لكن شبهة الأمر لديهم: أن العبد يخلق فعل نفسه فرارًا من قول إن الله خلق المعاصي ويُعذِّب عليها.

○ قوله: «**وهؤلاء أكثر مشركي العالم**»، فأكثر مشركي العالم وقعوا في شرك التمثيل، وهم طوائف جعلوا لله مثيلًا يُماثِله، وسُمِّي شرك تمثيل لأنهم جعلوا مع الله إلـهًا يُماثِله مثل **النصارى واليهود والقدرية والمجوس**.

○ قوله: «**وهم طوائف جَمَّة، منهم: من يعبد أجزاء سماوية**»، مثل: الذين يعبدون النجوم، فهؤلاء جعلوا مثيلًا لله.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١١١).
(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص ٤٢).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٠٦، ٤٠٧).

○ قوله: «**ومنهم: من يعبد أجزاء أرضية**»، في الأرض، مثل: الأحجار والأصنام وغيره.

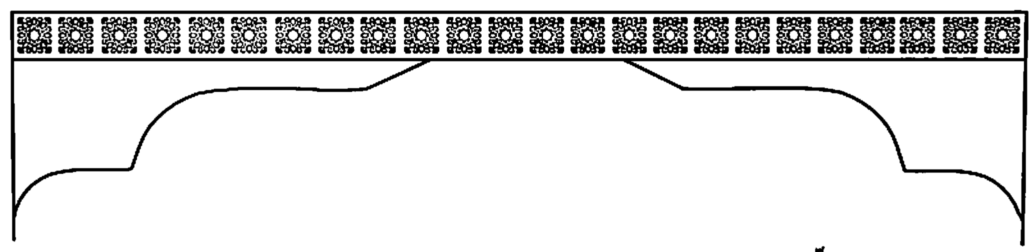
○ قوله: «**ومن هؤلاء: من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة**»، أي: أنه أكبر الآلهة الموجودة في الأرض، مثل: قريش كان لهم صنم كبير يُسمَّى «هُبل» وكل بيت له صنم، وكل قبيلة لها صنم، وهناك صنم عام وهي «العزى» و«مناة»، وهي أصنام عامة لجميع الناس، بل أحيانًا إذا خرج الشخص في البرِّية يجعل له صنمًا يعبده، فإذا أراد أن يُوقد النار يأتي بثلاثة أحجار ويوقد النار عليها، ويأخذ حجرًا أملس ويعبده، فإذا لم يجد شيئًا آتى بكثبة من التراب وجعل يحلب عليه حليب الشاة على التراب ثم يطوف به ويعبده، وبعضهم يأتي بتمرة ويعبدها ثم يأكلها، فسدت عقولهم وتلاعب بهم الشيطان.

○ قوله: «**ومنهم من يزعم أنه إذا خصَّه بعبادته والتبتُّل إليه أقبل عليه واعتنى به**»، هذا من أصنافهم، وقد ذكر ابن القيم هذه الأصناف في «الجواب الكافي»[1].

○ قوله: «**ومنهم: من يزعم أن معبوده الأدنى يُقرِّبه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يُقرِّبه إلى من هو فوقه، حتى تُقرِّبه تلك الآلهة إلى الله ﷻ**»، يعني: بعضهم يقول يعبد معبوده الأدنى يُقرِّبُه إلى الأعلى، يعني: المعبود الذي في بيته يُقرِّبُه إلى المعبود الذي في القبيلة، والمعبود الذي في القبيلة يُقرِّبُه إلى معبود أهل البلد «هُبل»، و«هُبل» يُقرِّبُه إلى «العزى» ثم إلى الله، «**فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقِلُّ**».



(١) «الجواب الكافي» (ص ١٣١).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإذا عرفتَ هذه الطوائف وعرفتَ اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى في الأفعال والأقوال والإرادات كما تقدَّم ذكره انفتح لك باب الجواب عن السؤال، فنقول:

اعلم أن حقيقة الشِّرك: تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق، أما الأول فإن المُشرِك شَبَّه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي التفرُّد بملك الضَّر والنفع والعطاء والمنع، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى، وسَوَّى بين التراب وربِّ الأرباب، فأيُّ فجور وذنب أعظم من هذا ؟!».

الشَّرْح

○ قوله: «فإذا عرفتَ هذه الطوائف وعرفتَ اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى في الأفعال والأقوال والإرادات كما تقدَّم ذكره انفتح لك باب الجواب عن السؤال» وهو السؤال الأول في قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: «المُشرِك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلَّا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمُشرِك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه»، هذا هو السؤال.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «فنقول: اعلم أن حقيقة الشِّرك: تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق، أما الأول فإن المُشرِك

شَبَّه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي التفرُّد بملك الضَّر والنفع والعطاء والمنع، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى، وسَوَّى بين التراب وربِّ الأرباب، فأيُّ فجور وذنب أعظم من هذا؟!» وهذا الجواب نقله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من «الجواب الكافي»[(١)] لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

وكون الإنسان يتشبه بالخالق سيأتي باب يُبيِّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التشبه بالخالق وذلك في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ **«وأما في جانب التشبه: فمن تعاظم وتكبَّر ودعى الناس إلى إطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبَّه بالله ونازعه في ربوبيته، وهو حقيق بأن يُهِينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذَّرِ تحت أقدام خلقه»**.

والتشبيه المخلوق بالخالق **كالنصارى** شَبَّهوا عيسى بالخالق، وجعلوه إلهًا مع الله، فالمُشرِك مُشبِّه للمخلوق بالخالق في خصائصه الإلهية.

وخصائصه الإلهية بَيَّنها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: **«وهي التفرُّد بملك الضَّر والنفع والعطاء والمنع، فمن علَّق ذلك بمخلوق»** أي: الضر والنفع والعطاء والمنع، فمن خصائص الله الإلهية: التفرد بالضَّر والنفع، الضَّر ـ بفتح الضاد ـ مضاد النفع، والضُّر ـ بضم الضاد ـ يعني: المرض، فمن عَلَّقَ ذلك بغير الله، وقال بأن المخلوق يضر وينفع **«فقد شبهه بالخالق تعالى، وسَوَّى بين التراب»** أي: الإنسان **«وربِّ الأرباب»** وقد منع[(٣)] **بعض العلماء** من قول «ربّ الأرباب»،

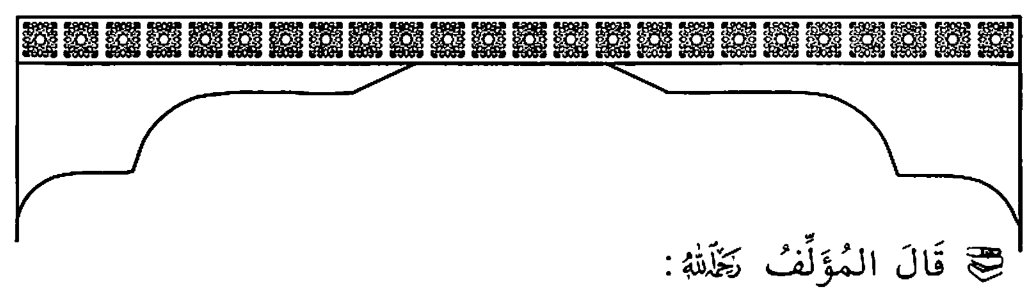
---

(١) انظر: «الجواب الكافي» (ص ٩٤).
(٢) انظر: «الجواب الكافي» (ص ٩٤).
(٣) انظر: «درء التعارض» (٨/ ٥٠٩).

ويقول أكابر المحقِّقين من أهل العلم(١): أنه لا بأس بذلك، «**فأيُّ فجور وذنب أعظم من هذا؟!**» فأيُّ فجور وذنب أعظم من هذا الذنب الذي لا يُغفر؟!.



(١) انظر: «حلية الأولياء» (٥/ ٢٣٩)، و«إكمال المعلم» (٧/ ١٨٨)، و«بغية المرتاد» (ص ٢٠٥)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٤٦)، (٦/ ٥٤٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ١٢٦)، و«منهاج السنة» (٥/ ٤٠٠)، و«إعلام الموقعين» (١/ ٩)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٢)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٨) (٢/ ١٠٣).



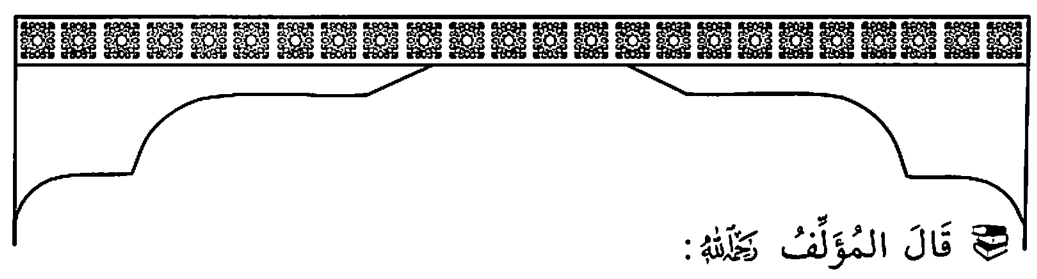
قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«واعلم أن من خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يُوجِب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرةً، فمن جعل ذلك لغيره فقد شَبَّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدِّة قُبحِه وتضمُّنِه غاية الظلم أخبر من كَتَبَ على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبدًا».

الشَّرْح

○ قوله: «واعلم أن من خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه» فهو كامل بصفاته وأفعاله، والكمال المطلق يُوجِب «أن تكون العبادة له وحده» فيكون الذبح والنذر والسجود وجميع أنواع العبادة لله «عقلًا وشرعًا وفطرةً» فجميع العبادة لله لأنه سبحانه هو الخالق، وشرعا لأنه سبحانه هو المشرع، وفطرة لأن الله فطر الخلق على هذا، «فمن جعل ذلك لغيره فقد شَبَّه الغير بمن لا شبيه له، ولشدِّة قُبحِه وتضمُّنِه غاية الظلم أخبر من كَتَبَ على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبدًا» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فإذا جعل العبادة لغير الله فقد وقع في غاية الظلم.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن خصائص الإلهية: العبودية التي لا تقوم إلَّا على ساق الحبِّ والذُّل، فمن أعطاهما لغيره فقد شبَّهه بالله تعالى في خالص حقِّهِ، وقُبح هذا مستقِرٌّ في العقول والفِطر، ولكن لَمَّا غيَّرت الشياطين فطر أكثر الخلق واجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يُشرِكوا بالله ما لم يُنزل به سلطانًا كما روى ذلك عن الله أعرف الخلق به وبخلقه عَمُوا عن قبح الشِّرك حتى ظنَّوه حسنًا.

ومن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبَّهه به.

ومنها: التوكل، فمن توكَّل على غيره فقد شَبَّهه به.

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شَبَّهه به.

ومنها: الحلف باسمه، فمن حلف بغيره فقد شَبَّهه به.

ومنها: الذبح له، فمن ذبح لغيره فقد شَبَّهه به.

ومنها: حلق الرأس إلى غير ذلك، هذا في جانب التَّشبيه».

الشَّرْح

○ قوله: «ومن خصائص الإلهية: العبودية» فالله هو المستحق للعبادة دون غيره «التي لا تقوم إلَّا على ساق الحبِّ والذُّل» وهما ركنا العبادة، فإذا اجتمعا صارت العبادة، وإذا انفرد أحدهما لا تكون عبادة، فإذا أحببت شيئًا غاية الحب وخضعت له غاية الذل فهذه هي العبادة، وإذا أفردت أحدهما فأحببت شيئًا ولكن لا تذل له فلا تكون عبادة، أو ذلت له ولكن لا تحبه فلا تكون عبادة، فقد

يحب المرء آخر ولا يذل ولا يخضع له، وقد يذل للسلطان أو للسارق أو لغيره لكن لا يُحبه، فإذا اجتمع غاية الذل وغاية الحب فهذه هي العبادة كما **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان[(١)]

○ قوله: «**فمن أعطاهما لغيره فقد شبَّهه بالله** ﷻ **في خالص حقِّهِ**» وهي العبادة، وأعطاه حقَّ الله «**وقُبح هذا مستقِرٌّ في العقول والفطر، ولكن لَمَّا غيَّرت الشياطين فِطر أكثر الخلق**» فالذي أعماهم عن قبحه تغيير الشياطين للفِطر، أُفسِدت الفِطر وغُيِّرت فصاروا لا يرون قبح الشرك «**واجتالتهم عن دينهم وأمرتهم أن يُشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطانًا كما روى ذلك عن الله أعرف الخلق به وبخلقه**» ويشير **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ما رواه مسلم في «صحيحه»[(٢)] عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: «**كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**[(٣)]**، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، ...**»،

---

(١) «نونية ابن القيم» (ص ٣٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) **قال النووي**: «أي: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل كذا فسره **الهروي وآخرون**، **وقال شمر**: اجتال الرجل الشيء ذهب به، واجتال أموالهم ساقها وذهب بها، **قال القاضي**: ومعنى فاختالوهم ـ بالخاء على رواية من رواه ـ أي: يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه». شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٧/ ١٩٧).

«**عَمُوا عن قبح الشِّرك حتى ظنُّوه حسنًا**» كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فَاطِر: ٨].

ο قوله: «**ومن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبَّهه به**» فمن سجد لغير الله بنية التَّقرُّب فهو مُشرِك، وإن سجد له تحية فهو مُحَرَّم.

ο قوله: «**ومنها: التوكل، فمن توكَّل على غيره فقد شَبَّهه به**» فالتوكل على غير الله شرك، وهو نوعان: أكبر وأصغر، يكون **شركًا أكبر** إذا توكَّل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، ويكون **شركًا أصغر** إذا توكَّل على غير الله فيما يقدر عليه ذلك الغير، كمن يتوكَّل على أمير أو سلطان فيما أعطاه الله من رزق أو حفظ أو شفاعة؛ لأن التوكُّل عمل قلبي ولا يجوز لغير الله لا في الأسباب الظاهرة ولا غيرها.

ο قوله: «**ومنها: التوبة**» بنية العبودية والتَّقرُّب والخضوع «**فمن تاب لغيره فقد شَبَّهه به**» **كالصوفي** الذي يتوب لشيخه، وكذلك **النصراني** الذي يتوب للقسيس ويُعطِيه صك الغفران، وكذلك **الشيعي** الذي يتوب لرئيسه من رؤساء الشيعة فيغفرون ذنوبهم، فالتوبة بنية الخضوع والتَّقرُّب والتعبد شرك، فمن تاب لغيره توبة العبادة فقد شَبَّهَه به **كالصوفية والنصارى والرافضة**.

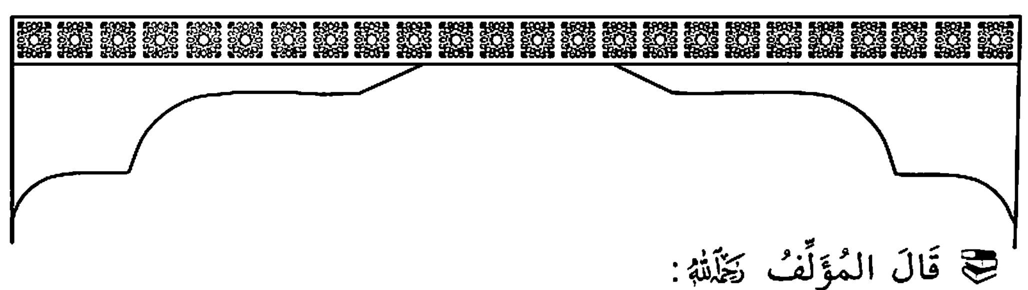
ο قوله: «**ومنها: الحلف باسمه**» تعظيمًا «**فمن حلف بغيره فقد شَبَّهه به**» فإذا حلف باسمه واعتقد تعظيمه كتعظيم الله فهذا **شرك أصغر**، أما إذا اعتقد التسوية بينه وبين الله فهذا **شرك أكبر**، أو اعتقد أنه يستحق شيئًا من العبادة فهذا **كفر**، وإن لم يكن شيئًا من ذلك وحلف به فهذا **شرك أصغر**.

ⴱ قوله: «**ومنها: الذبح له، فمن ذبح لغيره فقد شَبَّهه به**» فإذا ذبح بنية التَّقرُّب فهذا شرك، أما الذبح إذا طلع الأمير أو السلطان وقت مروره يذبحون أمامه، فقد **قال بعض العلماء**: إنه شرك، **وقيل**: إنه مُحَرَّمٌ، **وقيل**: إنه مباح.

ⴱ قوله: «**ومنها: حلق الرأس**» فإذا حلق رأسه توبة لمُرِيدِهِ أو لشيخه توبة وخضوعًا وتعبدًا فهذا شرك، فأن يطوف بالقبر ويُصلِّي ركعتين ويحلق رأسه هذا شرك، أما إذا حلق رأسه من باب النظافة فهذا مباح، أما إذا حلق رأسه تشبهًا **بالخوارج** فهذا مُحَرَّمٌ، «**إلى غير ذلك**».

ⴱ قوله: «**هذا في جانب التَّشبيه**» تقدَّم قول المؤلف ﷬ «**اعلم أن حقيقة الشرك: تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق**»، انتهى من جانب التشبيه، وسينتقل إلى جانب التشبه.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وأما في جانب التشبه: فمَنْ تعاظم وتكبَّر ودعا الناس إلى إطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبَّه بالله ونازعه في ربوبيته، وهو حقيقٌ بأن يُهِينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذَّرِ تحت أقدام خلقه، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني في واحد منهما عذَّبته».

وإذا كان المُصوِّر الذي يصنع الصور بيده من أشدِّ الناس عذابًا يوم القيامة لتشبُّهه بالله في مجرد الصنعة فما الظَّنُّ بالتشبيه بالله في الربوبية والإلهية؟!، كما قال ﷺ: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة المصوِّرون، يُقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرَّةً، فليخلقوا شعيرة»، فنبَّه بالذرَّة والشعيرة على ما هو أعظم منهما.

وكذلك من تشبَّه به تعالى في الاسم الذي لا ينبغي إلَّا له كـ «ملك الملوك» و«حاكم الحُكَّام» و«قاضي القضاة» ونحوه، وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخنع الأسماء عند الله رجلٌ تسمَّى بشاهان شاه ملك الملوك، لا مالك إلَّا الله»، وفي لفظ: «أغيظ رجلٍ عند الله رجلٌ تسمَّى بملك الأملاك».

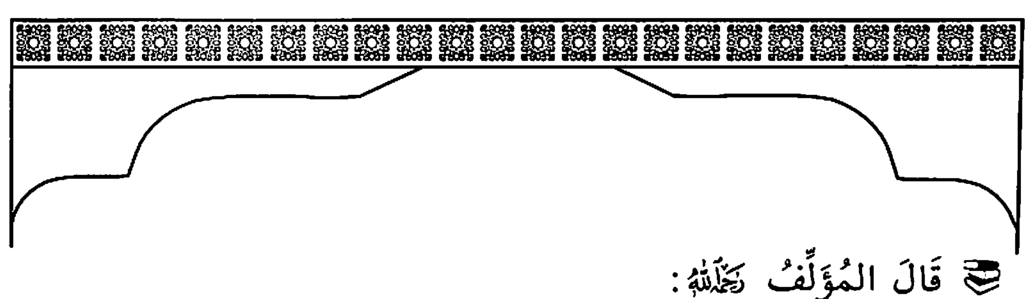
وبالجملة: فالتَّشبيه والتَّشبُّه هو حقيقة الشِّرك، ولذلك كان من ظنَّ أنه إذا تقرَّب إلى غيره بعبادة ما يُقرِّبه ذلك الغير إليه تعالى فإنه

يخطئ؛ لكونه شَبَّهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلَّا له، فأشرك معه سبحانه فيه غيره فبخسه سبحانه حقَّه، فهذا قبيح عقلًا وشرعًا، ولذلك لم يشرع ولم يغفر لفاعله».

الشَّرْح

المعنى: أن من تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى عبادته فقد نازع الله في ربوبيته، وهو مستحق للإهانة غاية الهوان، وأن يجعله الله حقيرا كالذر تحت أقدام الناس، فإذا كان الذي يصور ذوات الأرواح من أشد الناس عذابا لأنه تشبه بالله في صنعة الصورة، فالذي نازع الله في ربوبيته أعظم وأعظم.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«واعلم أن الذي ظنَّ أن الرَّبَّ تعالى لا يَسمع له أو لا يَستجيب له إلَّا بواسطة تُطلِعُهُ على ذلك أو تسأل ذلك منه فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء؛ فإنه إن ظنَّ أنه لا يعلم أو لا يسمع إلَّا بإعلام غيره له وإسماعه فذلك نفيٌ لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا، وإن ظنَّ أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يُلَيِّنُه ويُعطِّفُه عليهم فقد أساء الظَّنَّ بإفضال ربِّه وبِرِّه وإحسانه وسعة وجُودِهِ.

وبالجملة: فأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظَّنِّ، ولهذا يتوعَّدُه في كتابه على إساءة الظَّنِّ به أعظم وعيد كما قال تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧]، أي: فما ظنُّكم أن يُجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضرورات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه ونحو ذلك؟!، وهذا بخلاف الملوك؛ فإنهم محتاجون إلى الوسائط؛ ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين، فأما من لا يشغله سمع عن سمع وسبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة فما تصنع الوسائط عنده؟!.

فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظنَّ به أقبح ظنٍّ،

ومستحيل أن يشرعه لعباده، بل ذلك ممتنع في العقول والفِطر».

الشَّرْح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ «واعلم أن ...»، يعني: لا تظن ولا تشك ولا تتوهم، بل تيقَّن، فالعلم: حكم الذهن الجازم وهو المطابق للواقع.

○ قوله: «**واعلم أن الذي ظنَّ أن الرَّبَّ** ﷻ **لا يَسمع له أو لا يَستجيب له إلَّا بواسطة تُطلِعُهُ على ذلك**» تُطلِع الله على حاله «**أو تسأل ذلك منه**» تسأل الاستجابة من الله «**فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء**» وهذا الظَّنُّ كُفرِيٌّ يُخرج من المِلَّةِ.

وهذه أنواع من الظُّنون الكفرية، والكفر يكون بأشياء:

يكون بالاعتقاد، كأن يعتقد أن لله صاحبة وولدًا، أو أن هناك مُدبِّر مع الله، أو أن الله له شريك في المُلك.

ويكون بالقول، كأن يسبَّ الله أو رسوله ﷺ أو الإسلام، أو يستهزئ بالله أو بكتابه أو برسوله ﷺ.

ويكون بالعمل، كأن يسجد لصنم، أو يطأ المصحف، أو يُلطِّخه بالنجاسة.

ويكون بالشك، كأن يشك في ربوبية الله أو ألوهيته، أو يشك في الملائكة، أو الكُتُب، أو الرُّسُل، أو في الجنة أو النار، أو البعث فيكفر بهذا الشكِّ كما أخبر الله عن قصة صاحب الجنة ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

ويكون بالرفض والترك، كأن يرفض دين الإسلام فلا يتعلمه

ولا يعمل به، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ [الكهف: ٥٧]

ويكون بالظَّنِّ، كأن يظنُّ أن الله لا يَسمع له، فهذا ظنٌّ كُفريٌّ، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، فإذا ظنَّ العبد أن الله لا يَسمع له، فإنه يكفر بهذا الظَّنِّ، وهو مُكذِّب لله في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

○ قوله: «**فإنه إن ظنَّ أنه**» يعني: الرَّبَّ «**لا يعلم أو لا يَسمع إلَّا بإعلام غيره له وإسماعه فذلك نفيٌ لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا، وإن ظنَّ أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يُليِّنُه ويُعطِّفُه عليهم فقد أساء الظَّنَّ بإفضال ربِّه وبِرِّه وإحسانه وسعة وجُودِهِ**».

كما تقدم بيان أن الكفر يكون بالظن، وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لازم اعتقاد حاجة الله إلى وسائط ظنا أنه لا يسمع إلا بإعلام غيره له، فلازم ذلك نفي علمه وسماعه وكمال إدراكه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

❖ ❖ ❖

والتوسل بالنبي ﷺ أنواع:

الأول: التوسل بإيمان العبد بالله ورسوله، فهذا مشروع.

الثاني: التوسل بدعائه ﷺ، كما توسل الأعمى بدعائه فردَّ الله عليه بصره، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَنِي»، فَقَالَ: «**إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ**

ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ لِآخِرَتِكَ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ»، قَالَ: «لَا، بَلْ ادْعُ اللهَ لِي»، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، وَأَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، وَأَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ** نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِي، وَتُشَفِّعُنِي فِيهِ وَتُشَفِّعُهُ فِيَّ»، قَالَ: فَكَانَ يَقُولُ هَذَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ بَعْدُ: «أَحْسِبُ أَنَّ فِيهَا «أَنْ تُشَفِّعَنِي فِيهِ»»، قَالَ: **فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَبَرَأَ**[(١)].

الثالث: التوسل بذاته وجاهه، وهذا بدعة، «اللهم إني أتوسل إليك بنبيك».

فإذا أردت التوسل بنبيك يعني: بمحبة نبيك واتباعه فهذا عملك الصالح فهذا مشروع، **الثاني**: أن تتوسل إلى الله بنبيك بجاهه أو بذاته، فهذا توسل بدعيٌّ؛ فأنت تدعو الله لكن جعلت الواسطة أو الوسيلة ذات النبي أو جاهه وهذا من البدع؛ لأنه لم يفعله النبي ﷺ ولا الصحابة، وليس عليه دليل، وكذلك أيضًا «أتوسل بجاه فلان أو بذاته»، كل هذا من البدع، أما التوسل بمحبته أو باتباعه فهذا مشروع.

وكذلك التوسل بدعائه إذا كان حيًّا، فيدعو وأنت تُؤمِّن، أما التوسل بالذات والجاه فهذا من البدع.

○ قوله: «**وبالجملة: فأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظَّنِّ، ولهذا يتوعَّدُه في كتابه على إساءة الظَّنِّ به أعظم وعيد كما قال تعالى**: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦﴾ [الفتح: ٦]، **وقال تعالى عن خليله إبراهيم** عليه السلام: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ

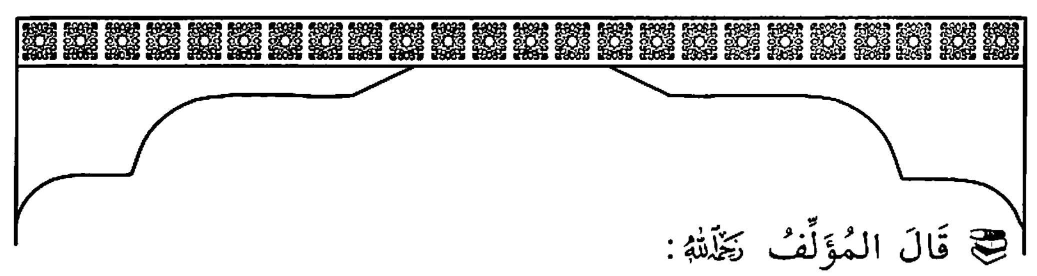
(١) تقدم تخريجه.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ [الصَّافات: ٨٦-٨٧]، **أي: فما ظنُّكم أن يُجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضرورات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه ونحو ذلك؟!، وهذا بخلاف الملوك؛ فإنهم محتاجون إلى الوسائط؛ ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين، فأما من لا يشغله سمع عن سمع وسبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة فما تصنع الوسائط عنده؟!.**

فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظنَّ به أقبح ظنٍّ، ومستحيل أن يشرعه لعباده، بل ذلك ممتنع في العقول والفِطر».

وكلام المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كله واضح لا لبس فيه، وذلك أن إساءة الظن بالله من أقبح الشرك وأعظم الكفر.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«واعلم أن الخضوع والتألُّه الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه كما قرَّرناه، لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للمَلِك العظيم الرَّحيم القريب المُجيب ومملوكًا له كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفردٌ به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لِسُوَاي؟!، فمن زعم ذلك فما قدَّرني حقَّ قدري ولا عظَّمني حقَّ تعظيمي.

وبالجملة: فما قدروا الله حقَّ قدره من عبد معه من ظنَّ أنه يُوصِل إليه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣] الآية إلى أن قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، فما قدر القويَّ العزيز حقَّ قدرِه من أشرك معه الضعيف الذليل».

الشَّرْح

○ قوله: «واعلم أن الخضوع والتألُّه» يعني: التعبُّد «الذي يجعله العبد لتلك الوسائط» التي تكون بينه وبين الله «قبيح في نفسه

كما قرَّرناه» ولكنه يزداد قُبحًا **«لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للمَلِك العظيم الرَّحيم القريب المُجيب ومملوكًا له»**.

مثال ذلك: ما يفعله **عُبَّاد القبور** حينما يجعلون أصحاب القبور وسائط بينهم وبين الله فيذبحون وينذرون لهم ويطوفون بقبورهم، فهذا خضوع وتعبُّد، حينما يقول: «يا سيدي يا رسول الله أغثني، يا سيدي يا رسول الله فَرِّجَ كربتي»، هذا تعبُّد وخضوع؛ لأنه جعل الرسول ﷺ واسطة وهو يعلم أن الرسول ﷺ لا يملك، وإنما الذي يملك هو الله تعالى، لكن جعله واسطة بينه وبين الله، فهذا الخضوع والتألُّه قبيح؛ كيف يجعل عبدًا مخلوقًا ضعيفًا واسطة بينه وبين الله فيذبح أو ينذر له ويطوف بقبره وهو يعلم أنه ليس بيده شيء؟!، فيقول: «لكن له وجاهة عند الله، ويشفع لي عنده، وينقل حوائجي إليه، ويُقرِّبني منه»، كما أخبر الله تعالى عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: ١٨]، فحينما يخضع المرء ويتعبَّد لهذا العبد الذي جعله واسطة بينه وبين الله يزعم أنه يُقرِّبُه إلى الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«واعلم أن الخضوع والتألُّه الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه»** ووجه القُبح: أنه صرف حقَّ الله وهو التعبُّد لمخلوق ضعيف لا يفعل لنفسه ـ فضلًا عن غيره ـ نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، هذا قبيح؛ كيف أن الله تعالى خلقك وأوجدك من العدم وربَّاكَ بنعمه وخلقك لعبادته ثم تصرف العبادة لغيره؟!، **«لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للمَلِك العظيم الرَّحيم القريب المُجيب ومملوكًا له»** فهذا الذي ذبحتَ ونذرتَ له كيف تصرف له حقًّا من حقوق الله؟!، وهو مملوك عبدٌ لله.

○ قوله: «**كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾** [الرُّوم: ٢٨]» وفَسَّرَ المؤلف رحمه الله الآية فقال: «**أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرِدٌ به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لِسُوَاي؟!**» أي: إذا كان أحدكم يأنف أي: يستنكف، ويأبى ولا يرضى أن يكون مملوكه شريكًا له في رزقه، فكيف ترضى أن يكون مخلوقًا شريكًا لله في العبادة؟!، فإذا كان لديك عبد مملوك أترضى أن يكون شريكًا لك؟، لا ترضى، فكيف ترضى أن تجعل مخلوقًا شريكًا لله في العبادة الذي هو مُنفرِدٌ ومختصٌّ بها ولا تصلح إلَّا له؟!.

○ قوله: «**فمن زعم ذلك فما قدَّرني حقَّ قدري ولا عظَّمنِي حقَّ تعظيمي**» فمن زعم أن أحدًا يستحق العبادة غير الله ما قدره حقَّ قدره، ولا عَظَّمه حقَّ تعظيمه؛ لشركه وضلاله حيث صرف العبادة لغير الله.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[١]، وهي الأوامر والنواهي، فتفعل الأوامر وتترك النواهي تعظيمًا لله وإجلالًا وخوفًا ورجاء ومحبة وخضوعًا وذلة، سواء كان الأمر إيجاب كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: ٤٣]، أو أمر استحباب كما في «الصحيحين»[٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**» أَمَرَنا

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «السواك يوم الجمعة»، رقم (٨٨٧)، ومسلم، كتاب الطهارة، رقم (٢٥٢).

بالسواك أمر استحباب، ومعنى «**لَأَمَرْتُهُمْ**» أي: أمر إيجاب[(١)]، وكذلك النهي تتركه خوفًا من الله وتعظيمًا له سواء كان نهي تحريم كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أو نهي تنزيه كنهي النبي ﷺ عن الحديث بعد صلاة العشاء كما في حديث أَبِي بَرْزَةَ ﵁ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ النَّوْمِ قَبْلَهَا وَالْحَدِيثِ بَعْدَهَا**»[(٢)].

○ قوله: «**وبالجملة**» يعني: الخلاصة لِمَا سبق في حال المشركين الذين لم يُقدِّرُوا الله حقَّ قدره «**فما قدروا الله حقَّ قدره من عبد معه من ظنَّ أنه يُوصِل إليه**» يعني: يوصلوا إليه أحوال عباده كما سبق، فهذا ظنٌّ كُفريٌّ؛ ظن أن الرَّبَّ لا يَسمع ولا يستجيب إلا بواسطة فقد أساء الظَّنَّ بالله تعالى.

○ قوله: «**قال تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣] الآية إلى أن قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤]» قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ تنبيه، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ هذا للتشويق والاستعداد، ثم قال: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ تأكيد لـ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ فالذين تعبدون من دون الله وتصرفون لهم الدعاء والعبادة والذبح والنذر لا يستطيعوا أن يخلقوا ذبابًا ولو

---

(١) انظر: شرح النووي على «صحيح مسلم» (٣/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «النهي عن السمر بعد العشاء»، رقم (٤٨٤٩)، وأحمد (٤/ ٤٢٣).

وأخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب «ما يكره من النوم قبل العشاء»، رقم (٥٦٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٦٤٧) عَنْ أَبِي بَرْزَةَ ﵁ «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا**».

اجتمعوا كلهم لذلك، وهو أصغر الحشرات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] يعني: العبرة في المثل بصرف النظر عن الذباب والبعوض، ثم قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣] أي: العابد والمعبود، فالمعبود ضعيف لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، والعابد أيضًا كذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧] يعني: ما عَظَّموه حقَّ تعظيمه؛ فصرفوا العبادة لغيره، وظنُّوا به ظنَّ السَّوء، وجعلوا بينهم وبينه واسطة، وهذا تنقُّص لله وسوء ظنٍّ به سبحانه، فالمشرك أساء الظَّنَّ بالله وتنقَّص الرَّبَّ حيث صرف العبادة لغيره، هذا مثل، والأمثال عظيمة تنقل الإنسان من المثل المعنوي إلى المثل الحسي، ومن المثل الحسي إلى المثل المعنوي، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣] ما دام أنهم لا يستطيعون ولا يملكون كيف تصرف لهم العبادة؟!.

والعابد يعبد معبوده لما يرجوه منه من النفع، والنفع محصور في واحد من أربعة أمور، إما أن يكون مالكًا لِمَا يُريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا يكون شريكًا للمالك، أو يكون مُعِينًا ومساعدًا للمالك، أو يكون شفيعًا عنده، وقد نفى الله هذه الأمور نفي مرتبًا منتقلًا من الأعلى إلى الأدنى، وبَيَّنَ سبحانه أن كل من عُبِدَ من دون الله فإنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور الأربعة، وذلك في قوله تعالى في سورة «سبأ» ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، إذًا كيف يُعبد من ليس مالكًا، ولا شريكًا للمالك، وليس مُعِينًا ولا مساعدًا له، ولا شفيعًا عنده؟!، أين العقول؟!، تعبد التراب وتنسى

ربَّ الأرباب؟!.

○ قوله: «**وقال تعالى**: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧]» قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عَظَّموه حقَّ تعظيمه ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ **فيه**: إثبات القبض ﷻ، ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ **فيه**: إثبات اليمين لله ﷻ، فما عَظَّموا الله حقَّ تعظيمه والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، في «الصحيحين»[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ»، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد الله ﷻ إلا كخردلة في يد أحدكم»[2] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزيهًا لله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ به، سبحان من جعل الآلهة شريك لله!!.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] يعني: ما عَظَّموه حقَّ تعظيمه، فمن عبد شخصًا ظنًا منه أنه يُوصِل إلى الله أحوال العباد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «قوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾»، رقم (٤٨١١)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

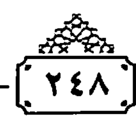
(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٧٦ ح ١٠٩٠).

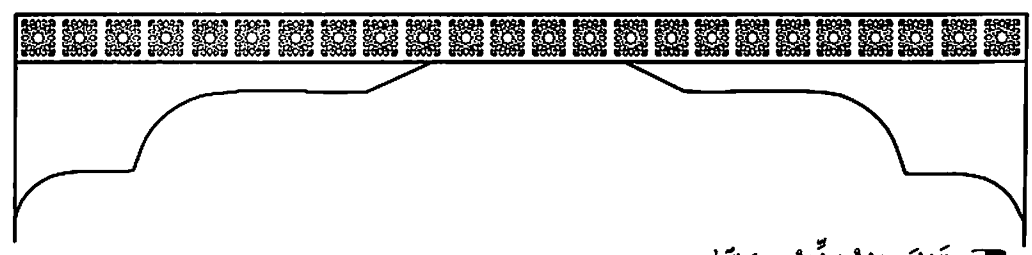
فيخبره عن أحوالهم وحاجتهم، فإنه في هذه الحالة نفى علم الله وكمال إدراكه، ونسب الله إلى الجهل، وهذا ظنٌّ كُفرِيٌّ، والظَّنُّ قد يكون كفر وقد يكون معصية، وهم نوعان كما سيأتي في أحوال **القدريَّة**، والفرق بينها وبين الاعتقاد: أن المعتقد يعتقد اعتقادًا جازمًا كمن يعتقد أن لله صاحبة وولدًا، وأما الظَّنُّ فإنه يظنُّ هذا بربه ولكنه لا يجزم بوقوعه.

○ قوله: «**فما قدر القويَّ العزيز حقَّ قدرِه من أشرك معه الضعيف الذليل**» القوي العزيز اسم الله ووصفه، وكل اسم من أسماء الله مشتمل على صفة؛ لأن أسماء الله مشتقة وليست جامدة، «القوي» اسم الله مشتمل على صفة القوة، و«العزيز» مشتمل على صفة العِزة، و«الرحيم» مشتمل على صفة الرحمة، و«العليم» مشتمل على صفة العِلم، و«الخبير» مشتمل على صفة الخبرة، و«الله» مشتمل على صفة الألوهية، و«الحكيم» مشتمل على صفة الحكمة، وهكذا.

فما قَدَرَ القوي العزيز حقَّ قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، فمن عَبَدَ الحجر أو الشجر أو الجنَّ أو البقر أو النار أو الملائكة فإنه يصدق عليه أنه أشرك مع الله الضعيف الذليل، فوصف المؤلف رَحِمَهُ اللهُ الله بالقوي العزيز، ووصف المخلوق بالضعيف الذليل، فما قَدَرَ القوي العزيز حقَّ قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، بل تنقَّصه وأساء الظَّنَّ به حيث عبد وأشرك معه الضعيف الذليل.







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«واعلم أنك إذا تأمَّلت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين:

أحدهما: الظَّنُّ بالله ظنَّ السَّوء.

الثاني: أنهم لم يُقدِّرُوا الرَّبَّ حقَّ قدره».

الشَّرْح

يُبيِّن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن أصل طوائف الضلال والبدع راجع إلى أصلين، فقال: **«واعلم أنك إذا تأمَّلت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين:**

«أحدهما: الظَّنُّ بالله ظنَّ السَّوء» ولهذا ضلوا، وسيذكر لهذا أمثلة.

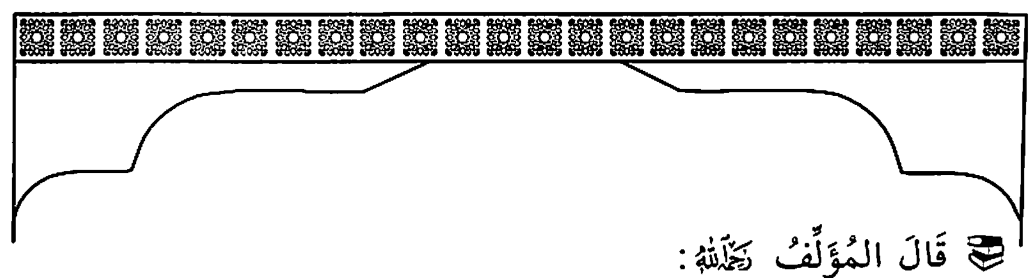
«الثاني: أنهم لم يُقدِّرُوا الرَّبَّ حقَّ قدره» ولم يُعظِّمُوه حقَّ تعظيمه.

يرى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن جميع طوائف الضلال أصل ضلالهم يرجع إلى هذين الأمرين، إما إليهما جميعًا أو أحدهما، إما أنه ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء، وإما أنه لم يُقدِّروه حقَّ قدره، وهذا هو الذي يراه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هنا، وقد يكون هناك أيضًا أصول أخرى يرجع إليه ضلالهم، فقد يكون بالشُّبَه، وقد يكون بالجهل، وقد يكون بالتقليد الأعمى، وقد يكون هناك أسباب أخرى.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال إن أسباب الضلال يرجع إلى هذين الشيئين، يعني: هذا الذي يظهر له وقد يظهر لغيره، وسيمثِّل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلة للضلال والبدع التي ترجع على هذين الأصلين.







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فلم يقدره حقَّ قدره من ظنَّ أنه لم يُرسِل رسولًا ولا أنزل كتابًا، بل ترك الخلق سُدىً، وخلقهم عبثًا».

الشَّرْح

هذه أمثلة لأسباب الضلال والانحراف، وهو الظَّنُّ بالله ظنَّ السَّوء وعدم تعظيمه حقَّ تعظيمه.

المثال الأول: «فلم يقدره حقَّ قدره من ظنَّ أنه لم يُرسِل رسولًا ولا أنزل كتابًا، بل ترك الخلق سُدىً، وخلقهم عبثًا».

وهناك فرق بين النبي والرسول على أقوال:

القول الأول: الرسول والنبي شيء واحد، فالرسول هو النبي، والنبي هو الرسول، ولا فرق بينهما.

القول الثاني: الرسول غير النبي، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحَج: ٥٢]، فلَمَّا عطف الله النبي على الرسول دلَّ على أنهما شيئان.

والمشهور عند العلماء: أن هناك فرق بين النبي والرسول، **وجمهور العلماء** على أن **الرسول** بشر أُوحِي إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه، **والنبي** بشر أُوحِي إليه بشرع ولم يُؤمر بتبليغه(١)، فيُنبأ نفسه وأهل

---

(١) انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ١٥٠).

بيته، **وقال بعض أهل العلم**: هذا تعريف مرجوح وإن كان قول الجمهور؛ لأن كيف النبي يُوحى إليه بشرع ولا يُؤمر بتبليغه؟!.

القول الثالث: الرسول هو الذي يُرسل إلى أقوام كُفَّار ليؤمن به بعضهم ويردَّ بعضهم دعوته، مثل: قوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ، فهؤلاء رُسُل أُرسِلوا إلى قوم كُفَّار فاستجاب بعضهم وردَّ بعضهم دعوتهم، وأما **النبي** فإنه يُرسل إلى قوم مؤمنين، فالنبيون أُرسِلوا إلى قوم مؤمنين وليس إلى قوم كفار، ويُكلَّفون بالعمل بشريعة سابقة، مثل: أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا بعد موسى فكلهم كُلِّفُوا بالعمل بالتوراة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، مثل: داود وسليمان ويحيى وزكريا كلهم جاءوا أنبياء لبني إسرائيل بعد موسى حتى بعث الله عيسى، ويُستثنى من ذلك آدم وشيث[(١)].

والذي عليه **جماهير أهل العلم** أن الرسل معصومون في أمور ثلاثة:

الأول: من الشِّرك.

الثاني: من الكبائر، والكبيرة: كل ذنب تُوعِّد عليه بنار أو بلعن أو غضب أو نفي إيمان أو وجب فيه حدٌّ في الدنيا[(٢)].

أما الصغائر فقد تقع منهم ولكنهم لا يُصِرُّون عليها ويُوفَّقون للتوبة والإنابة، مثل: قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ

---

(١) انظر: «النبوات» لابن تيمية (ص ١٨٤).

(٢) انظر: «البحر المحيط في أصول الفقه» للزركشي (٣/ ٣٣٥ - ٣٣٧).

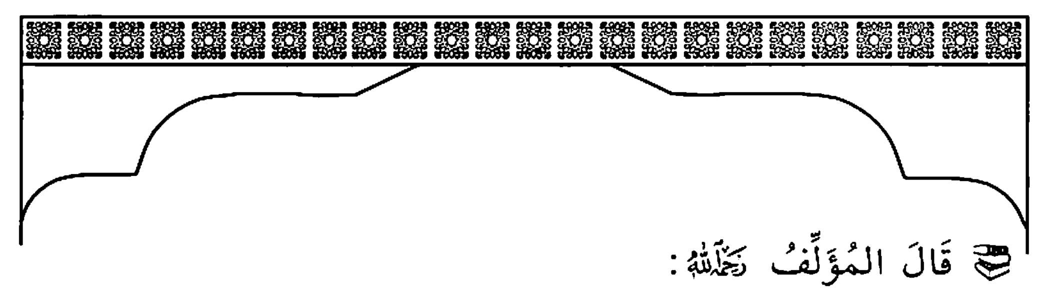
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ [ص: ٢٤].

الثالث: من الخطإ فيما يُبلِّغُون عن الله تعالى، لا يمكن أن يخطئون في هذا.

المثال الأول مثَّله المؤلف رحمه الله لمن ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء، فقال: «**فلم يقدره حقَّ قدره من ظنَّ أنه لم يُرسِل رسولًا ولا أنزل كتابًا، بل ترك الخلق سُدىً، وخلقهم عبثًا**» وهذا الظَّنُّ كفر بالله تعالى.

فمن ظنَّ أن الله لم يُرسِل رسولًا ولا أنزل كتابًا بل ترك الخلق سُدىً وخلقهم عبثًا فهذا ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء، وهو ظنٌّ كُفرِيٌّ؛ قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، هذا كله إبطالٌ لهذا الظَّنِّ السيء، فمن ظنَّ أن الله ترك الخلق هكذا فلم يُرسِل إليهم الرُّسُل، ولم يُنزِّل لهم كُتُبًا، ولم يُبيِّن لهم أسباب نجاتهم وسعادتهم، ولا ما يُحبه ويرضاه وما يكره ويأباه فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوء، وهذا ظنٌّ كُفرِيٌّ مُخرِج من المِلَّةِ، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧﴾ [ص: ٢٧]





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولا قدره حقَّ قدره من نفى عموم قدرته وتعلُّقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، وأخرجها عن خلقه وقدرته».

الشَّرْح

○ قوله: **«ولا قدره حقَّ قدره من نفى عموم قدرته وتعلُّقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، وأخرجها عن خلقه وقدرته»** هذا الظَّنُّ معصية، فهو ظنٌّ بدعة أقل من الكفر، وهو ظنُّ **القدريَّة النُّفاة**، وهم **القدريَّة المجوسيَّة** القائلين بأن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، ولا داخلة تحت قدرته، ولكن العباد هم الذين خلقوا أفعالهم من طاعات ومعاصي، فنفوا عموم قدرة الله ومشيئته[1]، وهذا قول عامة **القدريَّة** فهم مبتدعة.

وهذا الظَّنُّ ظنُّ معصية؛ لأن **الصواب** أن **القدريَّة النُّفاة المجوسيَّة** ليسوا كُفَّارًا إنما هم مُبتدعة؛ لأنهم آمنوا بمراتب القدر الأربعة، آمنوا بالعلم والكتابة والمشيئة والخلق والإيجاد، لكنهم نفوا عموم المرتبة الثالثة وهي عموم المشيئة وعموم المرتبة الرابعة، **فقالوا**: إن الله شاء كل شيء إلا أفعال العباد، وخلق كل شيء إلا أفعال العباد، وذلك لشبهة عرضت لهم، وهي قولهم لو قلنا إن الله خلق أفعال العباد وقَدَّرَها وشاءها ثم عَذَّبَهم عليها لصار ظالمًا،

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٥٨).

ففرارًا من ذلك **قالوا**: إن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يُقدِّرها، بل هم الذين خلقوها وشاؤها، فإذا عَذَّبهم عَذَّبهم على أفعالهم، كما أنهم **قالوا**: إن الطاعات خلقوها، فإذا أثابهم أثابهم على أعمالهم التي عملوها، وهذا مذهب **المعتزلة**(١) **والقدريَّة**، **قالوا**: إنه يجب على الله أن يُثِيب المطيع لأنه يستحق الأجرة على الله كما يستحق الأجير أجرته، فهم مُشبِّهة؛ شبَّهوا الله بالمخلوقين، كما أنه يجب عليه أن يُعذِّب العاصي، وليس له أن يعفو عنه ولا أن يرحمه ولا أن يُخرِجه من النار، وهو مخلد في النار؛ لَمَّا فعل الكبيرة، فهذا مذهبهم في شبهة عرضت لهم، **قالوا**: لو قلنا إن الله خلق أفعال العباد وعَذَّبهم عليها لصار ظالمًا.

نقول لهم: إذا قلتم أن الله لم يخلق أفعال العباد لَزِمَ من ذلك أمورًا عظيمة، فلَزِمَ من ذلك أنه يقع في ملك الله ما لا يُريد، فالعبد يُريد المعصية والله يُريد الطاعة فلا تقع إرادة الله وتقع إرادة العبد، ويلزم من ذلك أيضًا أن مشيئة العبد تغلب مشيئة الله، فالله يُريد من العبد الطاعة والعبد يُريد المعصية فتقع مشيئة العبد ولا تقع مشيئة الله، ولكننا نقول: إن الله تعالى خلق العبادَ وقدرتَهم وإرادتَهم التي بها يختارون ويُرِيدون فأفعالهم منسوبة إليهم، والذي يُنسب إلى الله الخلق والإيجاد، والذي يُنسب إلى العبد المباشرة والتسبُّب، ولهذه الشبهة صاروا مبتدعة.

أما غُلاتهم وهم **القدريَّة الأُوَل** الذين أنكروا علم الله وكتابته، فأنكروا المرتبة الأولى والثانية، فهؤلاء كفار، ومراتب القدر أربعة من لم يُؤمن بها لم يُؤمن بالقدر، وهي: علم الله الشامل لكل شيء، وكتابته للأشياء في اللوح المحفوظ، وإرادته ومشيئته، وخلقه وإيجاده.

---

(١) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٤٦، ٤٧).



فالقدرية النفاة طائفتان:

الطائفة الأولى: الغلاة الذي أنكروا العلم والكتاب[١]، وهؤلاء ظهروا في أواخر عهد الصحابة في البصرة، روى مسلم في «صحيحه»[٢] عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ «مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ»، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: «لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُاللهِ ابْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: «أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ»، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ «وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ[٣]»، قَالَ: «**فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ**»، وهو في أوائل «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجيء جبرائيل إلى النبي ﷺ وسؤالاته عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم الساعة، ثم أماراتها، ولَمَّا سأل عن الإيمان قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، فهؤلاء لم يؤمنوا بالقدر خيره وشره وأنكروا علمه، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٢٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هو بضم الهمزة والنون، أي: مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه، وهذا القول قول غلاتهم وليس قول جميع القدرية، وكذب قائله وضل وافترى، عافانا الله وسائر المسلمين. شرح النووي على «صحيح مسلم» (١/ ١٥٦).

بالأشياء حتى تقع، وأول من تفوَّه بذلك **معبد الجهني** بالبصرة **وغيلان الدمشقي**، ويُقال: سبقهم بذلك **سوسن**[١]، **فهؤلاء كفَّرهم الصحابة، وهم الذين قال فيهم الإمام الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ناظِروا القدريَّة بالعلم، فإن أقرُّوا به خصموا، وإن أنكروا كفروا»[٢]، قال: إذا كان الله يعلم فكيف يعلم ولا يقدر، وإن أنكروه كفروا؛ لأنهم نسبوا الله إلى الجهل، فهؤلاء هم الطائفة الأولى، وقد انقرضوا في عهد الصحابة.

الطائفة الثانية: المقتصدون، الأولى يُسمّون «الغلاة» وهؤلاء «المقتصدون»، أولئك كفار؛ فظنُّهم بالله ظنٌّ كُفرِيٌّ، وهؤلاء ظنُّهم ظنٌّ معصية وكبيرة، فالمقتصدون لا يُكفَّرُون؛ لأنهم لهم شبهة، وفرق بين المتأوِّل الذي له شبهة وبين الجاحد.

والمقتصدون أثبتوا المرتبتين الأوليين وهي العلم والكتاب، وأنكروا عموم المرتبتين الأخريين[٣]؛ لأن مراتب القدر لا بُدَّ من الإيمان بها كلها وإلا فلا يصح الإيمان.

المرتبة الأولى: بأن تُؤمن بعلم الله، وأن الله تعالى عَلِمَ الأشياء كلها قبل كونها، ما كان في الماضي، وما يكون في الحال، وما يكون في المستقبل، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعَلِمُ الله لم يسبقه جهل، وليس له بداية، فالله هو الأول بذاته وصفاته، فهو الأول الذي ليس لِأَوَّلِيَّتِهِ بداية، وهو الآخر الذي ليس لِآخِرِيَّتِهِ نهاية.

مثال ما لم يكن لو كان كيف يكون: قول الله تعالى عن الكفار

---

(١) **قال الأوزاعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يُقال له «سوسن» وكان نصرانيًا فأسلم، ثم تنصر، ثم أخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد». «الشريعة» للآجري (٢/ ٩٥٩).

(٢) شرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٣٠٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٨٥).

لَمَّا سألوا الرجعة إلى الدار الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى أيضًا عن المشركين: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، فهذا إخبار بعلمه بما لم يكن لو كان كيف يكون، وقال تعالى عن المنافقين الذين تخلَّفوا عن المؤمنين غزوة تبوك: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧]، أربعة مفاسد تحصل من خروجهم، هذا من حكمة الله، فلا بُدَّ من الإيمان بعلم الله.

المرتبة الثانية: الإيمان بكتابة الله لكل الأشياء في اللوح المحفوظ، تُكتب الذوات والصفات والأفعال والحركات والسكون والسعادة والشقاوة والفقر والغنى والحياة والموت والعز والذل، بل والعجز والكسل والرطْب واليابس، قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٠] وهو اللوح المحفوظ، وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢] وهو اللوح المحفوظ، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وفي «صحيح البخاري»[1] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ**،

(١) تقدم تخريجه.

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»، وفي «صحيح مسلم»[١] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵄ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»، قَالَ: «**وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»، وفي الحديث الصحيح أيضًا عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»، قَالَ: «رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟»، قَالَ: «اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**»[٢]، وفي لفظ: «**فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[٣].

المرتبة الثالثة: المشيئة والإرادة، وهو أن أي شيء يقع في هذا الوجود لا بُدَّ أن تسبقه مشيئة الله وإرادته، فلا يقع في ملك الله شيئًا لا يُريده كونًا وقدرًا، ثم الذي يقع نوعان: نوع يُحبه الله شرعًا كالطاعات، ونوع يكرهه الله شرعًا كالمعاصي.

المرتبة الرابعة: الخلق والإيجاد، وهو الإيمان بأن كل شيء في هذا الوجود فالله خلقه وأوجده.

الطائفة الأولى وهم **القدريَّة الأُوَل** أنكروا العلم والكتاب، **قالوا**: إن الله لا يعلم بالشيء حتى يقع، ولم يكتب في اللوح المحفوظ، فنسبوا إلى الله الجهل، فكَفَّرهم الصحابة، ولهذا **قال العلماء**: إن **القدرية الأُوَل** خارجون من الثنتين والسبعون فرقة؛ لكفرهم وضلالهم، وكذلك **الرافضة والجهمية**، أما **الطائفة الثانية**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

المقتصدون، وهم **المجوسية** سُمُّوا بذلك لأنهم شابهوا المجوس في القول بتعدد الخالق، فالمجوس قالوا بإثبات خالقين خالق للخير وهو النور، وخالق الشر وهو الظلمة[١]، وكذلك **المانويَّة** نسبة إلى ماني بن فاتك الحكيم، **فالقدرية** قالوا أن كل شخص يخلق فعل نفسه خيرًا أو شرًا، **ومنهم**: من يقول أنه يخلق الخير، **ومنهم**: من يقول أن الله يخلق الخير والعبد يخلق الشر، فهم شابهوا **المجوس** في القول بتعدِّد الخالق، هذا هو مذهب **القدريَّة**، فالقدرية طائفتان:

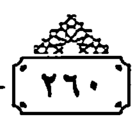
الأولى: **الغلاة** الذين أنكروا العلم والكتاب، وهؤلاء ظَنُّهم ظنٌّ كُفرِيٌّ.

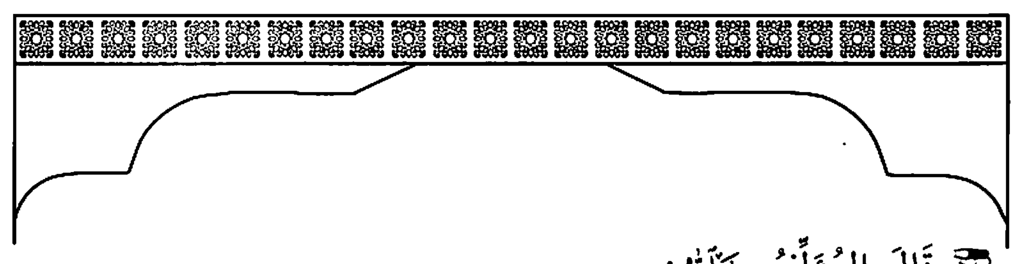
الثانية: **القدرية المجوسية** القائلون بأن أفعال العباد من طاعات ومعاصي لا تدخل تحت قدرة الله ولا تتعلق قدرته بأفعال العباد، وهو قول عامة **القدريَّة ومقتصدوهم**، وظنهم ظنٌّ بدعة وكبيرة، فيكون الظَّنُّ نوعين: ظنٌّ كُفرِيٌّ وظنٌّ بدعِيٌّ.



---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص ٤٢).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولا قدر الله حقَّ قدره: أضداد هؤلاء الذين قالوا: إنه يُعاقِب عبده على ما لم يفعله، بل يُعاقِبه على فعله هو سبحانه، وإذا استحال في العقول أن يُجبِر السَّيد عبده على فعل ثم يُعاقِبه عليه فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟!، وقول هؤلاء شرٌّ من أشباه المجوس القدريَّة الأذلين».

الشَّرْح

○ قوله: **«ولا قدر الله حقَّ قدره: أضداد هؤلاء الذين قالوا: إنه يُعاقِب عبده على ما لم يفعله، بل يُعاقِبه على فعله هو سبحانه»** وهذا قول **الجبرية من الجهمية والأشعرية «الذين قالوا: إنه يُعاقِب عبده على ما لم يفعله، بل يُعاقِبه على فعله هو سبحانه»**؛ لأنهم يقولون إن العبد مُجبر على أفعاله، يقولون: إن الطاعات والمعاصي خلقها الله لكنه أجبر العباد عليها، فالعباد ليس لهم أفعال، عكس **القدرية النفاة**، فهذه الطائفة الثالثة من القدرية، يُسمُّوها **القدرية المُجبرة**[1].

إذًا قُسِّمت **القدرية** إلى قسمين: نفاة وغلاة، نفاة ومثبتة.

والنُّفاة قسمان:

الأول: الغلاة الذين أنكروا العلم والكتاب

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٣٥)، و«مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٤٣)، و«شفاء العليل» كلاهما لابن القيم (ص ٤٩).

الثاني: المقتصدون، وهؤلاء **قدرية** يُسمُّون قدريَّة لأنهم غلوا في القدر، ويُسمُّونهم **القدرية المجبرة** فيقولون: إن العبد مجبور على أفعاله.

القدرية النفاة يقولون: إن أفعال العباد ما خلقها الله، بل خلقها العباد بأنفسهم، **وهؤلاء** بالعكس يقولون إن الله خلق كل شيء والعباد ليس لهم قدرة ولا اختيار، **أولئك** غلوا، **قالوا**: العباد لهم قدرة واختيار، بل هم الذين خلقوا أفعالهم وأوجدوها استقلالًا من دون الله، **وهؤلاء قالوا**: العبد مُجبور على أفعاله ليس له حركة ولا اختيار، بل أفعاله كلها اضطرارية بمنزلة حركة المرتعش والنائم وهبوب الأشجار والرياح، فيقولوا: إن الأفعال أفعال الله، فالله هو المُصلِّي وهو الصائم، والعباد عبارة عن وعاء تمر عليهم الأفعال، **قالوا**: مَثَلُ الله في ذلك مَثَلُ الكوب الذي يُصبُّ فيه الماء، فالعباد كأنهم كوب يُصبُّ فيهم الماء والله صبَّاب الماء يُساقُون إلى القدر، فالأفعال أفعال الله، وهذا من أبطل الباطل، وأما **أهل السنة والجماعة** فيقولون: إن العبد له قدرة واختيار، وهو الذي فعل بقدرته واختياره، وإن كان الله خلقه وخلق قدرته وإرادته.

فتكون الطوائف ثلاث في أفعال العباد: مذهب القدريَّة النفاة، مذهب الجبرية، مذهب أهل السنة والجماعة.

القدرية النُّفاة يقولون: أفعال العباد كلها اختيارية مخلوقة لهم من دون الله استقلالًا، فهم مختارون، خلقوا أفعالهم، ولم يكن لله في ذلك شيء منها، بل هم الذين خلقوا أفعالهم مختارين وأوجدوها.

القدرية المجبرة قالوا: أفعال العباد كلها اضطرارية، لا فرق بين حركات المرتعش وحركة النائم وحركة العبد، فهو مجبور.

أهل السنة والجماعة قالوا: أفعال العباد نوعان:

نوع اضطراري لا يُؤاخذ عليه مثل حركات المرتعش وحركة النائم، **وحركات اختيارية** كأفعال العبد بأن يقوم ويصلي ويأكل ويشرب ويذهب، فهو مختار يعلم من نفسه أنه يستطيع أن يجلس ويقوم ويتكلم ويخاصم ويذهب، فيفعلها باختياره، فهي من الله خلقًا وإيجادًا، ومن العبد تسببًا وكسبًا ومباشرة.

قال المؤلف رحمه الله: «**ولا قدر الله حقَّ قدره: أضداد هؤلاء**» القدرية النُّفاة الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه «**الذين قالوا: إنه**» يعني: الرَّبَّ «**يُعاقِب عبده على ما لم يفعله، بل يُعاقِبه على فعله هو سبحانه**» فهم يقولون العبد مجبور على أفعاله، فإذا زنى أو سرق فهو مجبور، كيف يُعاقِبه على ما لم يفعله؟!، بل هو بذلك يُعاقِبه على فعله هو، يعني: فعل الرَّبِّ، هذا قول **الجبرية من الجهمية والأشعرية**، فالجهمية والأشعرية جبرية، والمعتزلة قدرية نُفاة، وكل منهم يُسمَّى **قدريَّة**، لكن سُمُّوا **نُفاة** لأنهم نفوا القدر ونفوا أفعال العباد، ولم يقولوا أن الله خلقها، وهؤلاء يُسمُّون **قدريَّة مجبرة** لأنهم أثبتوا القدر وغلوا فيه، **وقالوا**: العبد مجبور على فعل نفسه، والله تعالى هو الذي خلق الأفعال وأجبر العباد عليها.

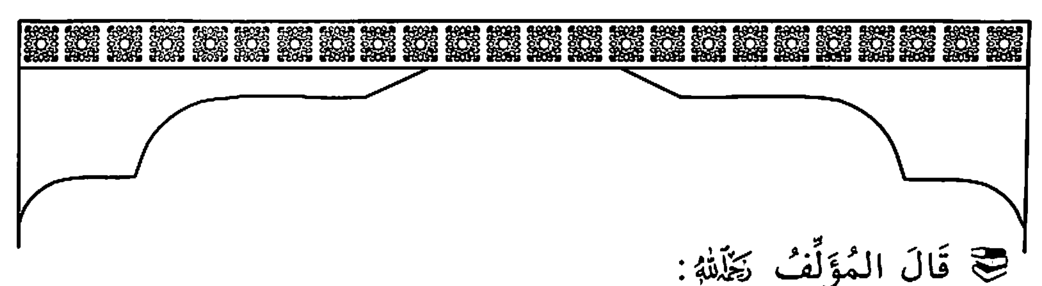
○ قوله: «**وإذا استحال في العقول أن يُجبِر السَّيد عبده على فعل ثم يُعاقِبه عليه فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟!**» يعني: فيه ردٌّ لقول **الجبرية**، **فالجبرية** يقولون إن العبد مجبور على أفعاله، والأفعال أفعال الله، وأن العاصي يُعاقب على فعل الله، فالله هو الذي أجبره على المعصية ثم يُعاقِبه عليها، فيقول المؤلف رحمه الله: «**وإذا استحال في العقول أن يُجبِر السَّيد عبده على فعل ثم يُعاقِبه**

عليه» أليس هذا قبيحًا؟، مستحيل أن يُجبِر السَّيد عبده على فعل ثم يُعاقِبه عليه؛ فهذا لا يصدر من عاقل، فإذا كان مستحيلًا بالنسبة لمخلوق **«فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين؟!»**، فكيف يقول **الجبرية** أن الله تعالى يُعذِّب العباد على ما فعله الله فيهم؟!.

○ قوله: **«وقول هؤلاء»** الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور على أفعاله، وأن الله يُعذِّبه على فعله **«شرٌّ من أشباه المجوس القدريَّة الأذلين»** **القدرية النُّفاة** الذين يقولون إن العباد يخلقون أفعالهم، والمعنى: أن قول **الجبرية المثبتة** شرٌّ من قول **القدرية النُّفاة** وهم الذين شابهوا **المجوس** بالقول بتعدُّد الخالق، وكلاهما طائفتان، **القدرية النُّفاة** يُسمَّون **المجوسية**، **والقدرية المجبرة** يُسمَّون **القدرية الجبرية**، وقول **القدرية الجبرية** شرٌّ من قول **القدرية النُّفاة أولئك**، وإن كانوا شابهوا **المجوس** بالقول بتعدُّد الخالق، لكنهم في الجملة يُعظِّمون الشرائع والأوامر والنواهي، أما **القدرية الجبرية** فيلزم على قولهم أن الشرائع والرُّسُل عبث، فهم **يقولون**: «إن الله أرسل رُسُلًا وأنزل كُتُبًا ولكن العبد مجبور، فالكافر مجبور على الكفر، والعاصي مجبور على المعصية» عليه فما الفائدة من الشرائع والرُّسُل؟!

بخلاف **القدرية النفاة المجوسية** فهم يُعظِّمون الشرائع والأوامر والنواهي، ولكن شبهتهم أن العبد يخلق فعل نفسه للشُبهة التي حصلت لهم، ولهذا صار قول **الجبرية** شرٌّ من قول **القدريَّة النُّفاة**، فتكون للقدرية طائفة ثانية، **القدريَّة النُّفاة والقدريَّة الجبرية**، **والقدريَّة الجبرية** شرٌّ من **القدريَّة النُّفاة**، أما **القدريَّة الأولى** الذين أنكروا العلم والكتابة فهؤلاء كفار.

❁ ❁ ❁



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولا قدره حقَّ قدره: من نفى رحمته ومحبَّته، ورضاه وغضبه، وحكمته مطلقًا، وحقيقة فعله، ولم يجعل له فعلًا اختياريًا، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه.

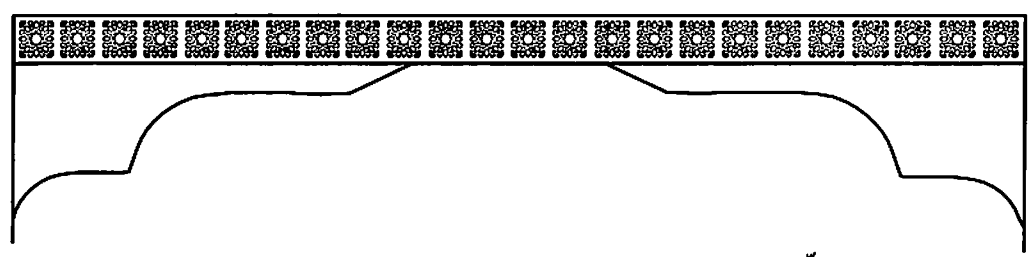
ولا قدره حقَّ قدره: من جعل له صاحبةً وولدًا، وجعله يَحِلُّ في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود».

الشَّرْح



هذا كله تنقص للرب سبحانه، فهو في غاية الكفر والإلحاد.

❁ ❁ ❁



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولا قدره حقَّ قدره: من قال: إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم المُلك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته، وهذا يتضمَّن غاية القدح في الرَّبِّ، تعالى الله عن قول الرَّافضة.

وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في ربِّ العالمين: إنه أرسل مَلِكًا ظالمًا ادَّعى النبوَّة، وكذب على الله، ومكث زمنًا طويلًا يقول: «أمرني ربي بكذا» و«نهاني عن كذا»، ويستبيح دماء أنبياء الله وأوليـاءه وأحبائه، والرَّبُّ تعالى يُظهره ويُؤيِّده، ويُقِيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويُقبِل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويُقِيم دولته على الظهور والزيادة، ويذلُّ أعداءه أكثر من ثمان مائة عام، فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرَّافضة تجد القولين سواء».

الشَّرْح

ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ قول **الرافضة** وقول **اليهود والنصارى**، وقال: إن كلًّا من **الرافضة والنصارى** لم يقدروا الله حقَّ قدره، وما عَظَّمُوه حقَّ تعظيمه؛ فلو عَظَّمُوه حقَّ تعظيمه ما كفروا به.

الرافضة ما قدروه حقَّهُ؛ قالوا: «إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم المُلك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته»، فهم يعتقدون أن الصحابة أعداء للرسول ولأهل بيته، ولهذا كَفَّرُوا الصحابة وكَذَّبُوا النصوص التي فيها أن الله زَكَّى الصحابة ووعدهم

بالجنة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠]، والحسنى الجنة، وقال تعالى في سورة «الفتح»: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، فضرب **الرافضة** بالنصوص كلها التي فيها ترضّي الله عن الصحابة ووعده لهم بالجنة عرض الحائط، **وقالوا**: إن الصحابة كفروا وارتدّوا بعد وفاة النبي ﷺ، وهم أعداء لله ورسوله ولأهل بيته، والرسول ﷺ نصَّ أن الخليفة بعده علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ولكن الصحابة ارتدّوا بعد وفاة النبي ﷺ، ومن ردّتهم: أنهم ولّوا أبا بكر، واغتصبوا الخلافة من عليٍّ، وأنكروا النصوص التي فيها أن عليًّا هو الخليفة، ثم ولّوا عمر، ثم عثمان ظلمًا وبهتانًا، فالصحابة عند **الرافضة** كفار وأعداء لأهل بيته.

يُقال لهم: إن كنتم تقولون أن الصحابة أعداءُ لله ولرسوله ﷺ فهل يليق بالله وبعظمته أن يرفع أعداء الله ورسوله ﷺ ويجعل فيهم المُلَك ويضع أولياء رسول الله ﷺ وآل بيته ويخذلهم «**وهذا يتضمَّن غاية القدح في الرَّبِّ**» فهذا قدح في ربِّ العالمين، ما تولى إلا علي، والحسن تنازل، والباقي الاثني عشر ما تولى واحد منهم، فهل يليق في عظمة الرَّبِّ أن يخذل أهل البيت ويجعلهم أذلة ويرفع أعداءهم ويجعل فيهم المُلَك، هذا لا يليق، فمن قال هذا فما قدر

الرَّبَّ حقَّ قدره «**تعالى الله عن قول الرَّافضة**».

الرافضة طائفة من طوائف الشيعة، والشيعة ذكر **العلماء أنهم** أربع وعشرين طبقة أو عشرين فرقة، **والخوارج** أربع وعشرين فرقة، **ومنهم** الكافر، **ومنهم** المبتدع على حسب العقيدة.

وأعلى طبقات الشيعة في الكفر:

الطائفة الأولى: النصيرية، ومذهبهم أن الله حلَّ في عليٍّ، فيقولون علي هو الإله، فهؤلاء أكفر من **اليهود والنصارى**.

الطائفة الثانية: المخطئة الذين خطئوا جبريل في الرسالة، **وقالوا**: إن الله أرسل جبريل بالرسالة إلى عليٍّ فأخطأ وأوصلها إلى محمد، ويقولون: كلمتهم المشهورة «خان الأمين جبريل، وصدها - يعني: صد الرسالة - عن حيدرة»، و«حيدرة» لقب علي، وهؤلاء كفار **بإجماع أهل السنة**.

الطائفة الثالثة: الرافضة، وقد وقعوا في ثلاثة كفريات:

الكفر الأول: أنهم عبدوا آل البيت ودعوهم من دون الله عليًّا والحسن والحسين وفاطمة، وتوسلوا إليهم، وهذا شرك.

الكفر الثاني: أنهم كذبوا الله في تزكية الصحابة، فالله تعالى زكَّى الصحابة وعدَّلَهم ووعدهم بالجنة، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وهم يقولون إنهم كفار، فهذا تكذيب لله، ومن كذب الله كفر.

الكفر الثالث: أنهم كذبوا الله في أن القرآن محفوظ، الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، **فقالوا**: القرآن غير محفوظ، بل إن القرآن ضاع ثلثاه ولم يبقَ إلا الثلث،

وقالوا: عندهم مصحف يُسمَّى «مصحف فاطمة» يُعادِل المصحف الذي بين أيدي **أهل السنة** ثلاث مرات، حتى إنه ألف **بعض علماء الشيعة** وهو **الطبرسي** كتابًا سَمَّاه «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» أثبت فيه أن كتاب الله مُحَرَّف.

وأما بقية **فرق الشيعة** مثل **الزيدية** وغيرهم فهؤلاء مبتدعة، وستة فرق من الشيعة يُفضِّلون عليًا على عثمان، ولكنهم لا يُكفِّرون، وقد طلب علي ﷺ عبدالله بن سبأ لَمَّا بلغه أنه سبَّ أبا بكر وعمر ليقتله فهرب منه(١)، وقد توعد من فَضَّلَه على أبي بكر وعمر أن يجلدهم جلد المفتري(٢).

قد يقول قائل: ذكر المؤلف ﷺ تعالى أن الرافضة ما قدروا الله حقَّ قدره بأن قالوا إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم المُلك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته وهذا قد يحصل في كل زمان، ألَّا ترى حال المسلمين الآن وهم في ذِلَّةٍ وهوان وأعداء الله هم الأقوى؟.

يُردُّ عليه بأن المسلمين أُصِيبوا من قِبل أنفسهم؛ لأنهم فرَّطوا في جنب الله، وهم الذين لم يقدروا الله حقَّ قدره، ولم يُعظِّموه حقَّ تعظيمه، ولم يُوحِّدُوه حقَّ توحيده، ففرطوا في جنب الله وفي إسلامهم، وحكَّموا القوانين الوضعية، وتعددت النِّحل والمعبودات منهم، فيهم من يعبد آل بيت، وفيهم من يعبد الشيطان، وفيهم من يعبد عبادات متنوعة وهم يُنتسبون للإسلام، والقوانين الوضعية تُحكَّم، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتحدوا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٧٤).
(٢) «فضائل الصحابة» للإمام أحمد (١/ ٨٣) رقم (٤٩).

أمام عدوهم، فتفرقوا وصاروا شيعًا وأحزابًا؛ لأن العقائد والنِّحل مختلفة، والقلوب متنافرة، ففرطوا في جنب الله فحصلت لهم الذِّلَّةُ والهوان بسبب تفرقهم، واختلافهم، واختلاف نحلهم، وتحكيمهم غير شرع الله، وموالاتهم لأعداء الله، فلذلك حلَّ بهم ما حلَّ بهم جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، وليس لهم عزة ولا يمكن أن تعود إليهم عزَّتُهم ومكانتهم وقوتهم إلا إذا عادوا إلى الله وإسلامهم ودينهم، واتحدوا على شريعة الله، وكانت عقيدتهم واحدة، ونبذوا العقائد المختلفة، وحكَّموا شرع الله، واتحدوا واجتمعوا على كتاب الله، ووالوا أولياء الله، وعادوا أعداء الله، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ورفعوا راية الجهاد في سبيل الله فحينئذ ينصرهم الله ويؤيدهم، وتعود لهم عزَّتُهم ومكانتهم.

○ قوله: «**وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى في ربِّ العالمين**» يعني: قول **الرافضة** مشتقٌّ ومأخوذ من قول **اليهود والنصارى** في ربّ العالمين.

وقول **اليهود والنصارى**: «**إنه أرسل مَلِكًا ظالمًا ادَّعى النبوَّة، وكذب على الله، ومكث زمنًا طويلًا يقول: «أمرني ربي بكذا» و«نهاني عن كذا»، ويستبيح دماء أنبياء الله وأولياءه وأحبائه، والرَّبُّ تعالى يُظهِره ويُؤيِّده، ويُقِيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويُقبِل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويُقِيم دولته على الظهور والزيادة، ويذلُّ أعداءه أكثر من ثمان مائة عام**».

وقال «**ثمان مائة عام**» لأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاش في القرن التاسع الهجري، وكانت وفاته في القرن التاسع سنة خمس وأربعين وثمانمائة، ونحن نقول الآن ألف وأربعمائة عام.

فلا يليق في حِكمة الرَّبِّ أن يُرسل مَلِكًا ظالمًا، ويدَّعي النبوَّة، ويكذب على الله، ويستبيح دماء أنبياء الله وأولياءه وأحبائه، والله تعالى يُظهِره ويُؤيِّده، ويُقِيم الأدلة والمعجزات على صدقه، ويُقبِل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويُقِيم دولته على الظهور والزيادة فلا يليق ولا يمكن؛ قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، ﴿وَلَوْ﴾ من المستحيل، المقصود منها: بيان مقادير الأشياء، وبيان عظم ذنب من كذب على الله، يعني: لو تقوَّل علينا النبي محمد ﷺ - وهذا مستحيل وهو معصوم من هذا -، لكن «لو» يُسمُّونها النُّحاة في اللغة العربية حرف امتناع لامتناع، فلو تقوَّل محمد ﷺ وكذب ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾، و﴿ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ عرق إذا انقطع مات الإنسان لساعته، وهو ﷺ معصوم من هذا، لكن لو، والمراد من هذا: بيان عظم ذنب من كذب على الله، وأن الله يُعجِّل له بالعقوبة كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥] وهو معصوم ﷺ من الشِّرك، لكن المراد تحذير للأمة وبيان مقدار عظم الشِّرك، وأن المُشرِك مهما كان يُحبط عمله.

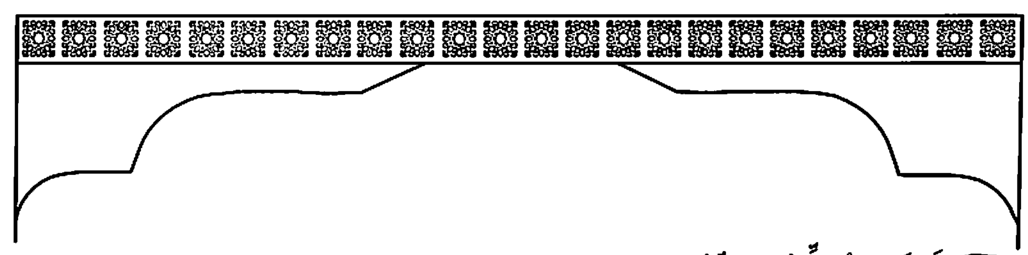
○ قوله: «**فوازن بين قول هؤلاء**» الإشارة تعود إلى **اليهود والنصارى** «**وقول إخوانهم من الرَّافضة تجد القولين سواء**» والمعنى: إن قول **اليهود** «**إنه أرسل مَلِكًا ظالمًا فادَّعى النبوَّة، وكذب على الله**» وقول **الرافضة** «**إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم المُلك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته**» سواء، فإذا وازنت بين قول **الرافضة** تجده مشتق من قول **اليهود**، وهذا ليس بغريب؛ لأن **الرافضة** يُوافقون **اليهود** في كثير من الأحكام والعقائد، وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان بينهم وبين **اليهود** من المشابهة في الخبث

واتباع الهوى وغير ذلك من أخلاق **اليهود** وبينهم وبين **النصارى** من المشابهة في الغلو والجهل وغير ذلك من أخلاق **النصارى** ما أشبهوا به هؤلاء من وجه وهؤلاء من وجه، وما زال الناس يصفونهم بذلك»[١]، ثم ذكر رحمه الله أن **الرافضة** يُوافقون **اليهود** في سبعين أو ثمانين خصلة، **منها**: إن كل الطائفتين لا يأكلون لحم الإبل، ولا تصلي المغرب حتى تستدرك النجوم، **ومنها**: إن **اليهود** رموا مريم البتول بالفاحشة **والرافضة** رموا أم المؤمنين عائشة بالفاحشة، فلا يُستغْرَب أن قول **الرافضة** يُوافِق **اليهود**، والذي يكذب على الله يُعجَّل بالعقوبة، ولذلك تجد الكذابين الذين ادَّعوا النبوة كلهم عُجِّلُوا بالعقوبة، **كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي** عُجِّلا بالعقوبة[٢]، فكل من ادَّعى النبوة لا يستمر زمنًا طويلًا.

يقول المؤلف رحمه الله إن قول **الرافضة** مثل قول **اليهود والنصارى**، تقول **الرافضة**: «**إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم المُلك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته، وهذا يتضمَّن غاية القدح في الرَّبِّ، تعالى الله عن قول الرَّافضة**» فهذا كله داخل في الأمر الثاني من أسباب الضلال والانحراف، وهو أنهم لم يقدروا الله حقَّ قدره، فهؤلاء **الرافضة واليهود** كُفرهم أنهم لم يُقدِّروا الرَّبَّ حقَّ قدره حيث كفروا بالله وبرسوله.



(١) «منهاج السنة النبوية» (١/ ٢٢).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٦/ ٣٠٧ - ٣١١).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولا قدره حقَّ قدره: من زعم أنه لا يُحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور؛ ليبيِّنَ لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين».

الشَّرْح

○ قوله: «ولا قدره حقَّ قدره: من زعم أنه لا يُحيي الموتى، ولا يبعث من في القبور» من زعم أن الله لا يُحيي الموتى لم يُقدِّرِ الله حقَّ قدره، وهذا الزعم للمشركين الذين أنكروا البعث، قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧]، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يُقسِمَ على البعث في ثلاثة مواضع من كتابه:

الموضع الأول: في سورة «التغابن»، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: ٧].

الموضع الثاني: في سورة «يونس»، قال تعالى: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: ٥٣]

الموضع الثالث: في سورة «سبأ» قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [سبأ: ٣].

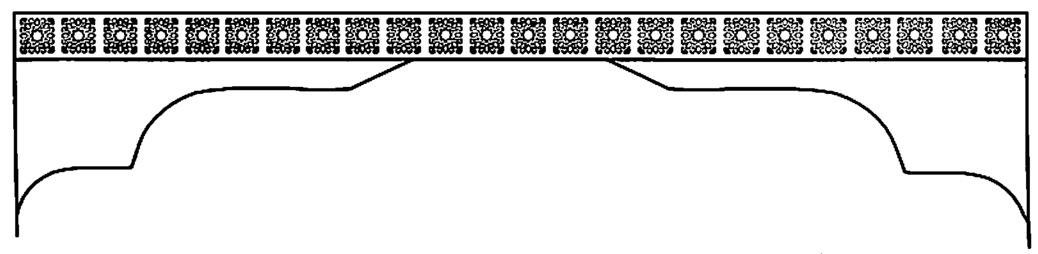
فمن زعم أن الله لا يُحيي الموتى ولا يبعث من في القبور فلم يُقدِّرِ الله حقَّ قدره ولم يُعظِّمه حقَّ تعظيمه، والله تعالى يُحي الموتى

ويُبعث من في القبور «**ليبيِّنَ لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**» فإذا بُعِثُوا فحينئذ تَبيَّن للكافر وعرف وعَلِمَ أنه كاذب حينما أنكر البعث، ولذلك لما ذكر الله تعالى في سورة «الصافات» المحاورة التي بين المسلم وقرينه الكافر، وأن الكافر كان يُنكِر البعث ثم وبَّخهُ المؤمن وقال: «الآن بُعِثتَ ورأيتَ البعث؟!»، فذكر الله قصة فيها العِظة والعِبرة، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥٠-٦١]، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ يعني: كان لي قرين يقول: «هل تُصدِّق بالبعث؟»، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يعني: مبعوثون ومحاسبون؟!، قال بعضهم: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أتحبون أن ترونه في النار؟، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ فجعل يُناديه، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، النار تبرز يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٦]، وتسجر البحار وتفجر، وتكون جزءًا من النار، والنار أسفل، والجنة أعلى، ومع ذلك يتخاطبون، كيف يَتنادون والجنة في أعلى عليين فوق السماء السابعة والنار في أسفل سافلين؟، كيف يسمع صوته مع طول المسافة؟

لقد أعطانا الله في هذه الدنيا الجوال تُكلِّم مَنْ في المشرق والمغرب وترى على الشاشة مَنْ في المشرق والمغرب، تشاهده وأنت في الدنيا، فهذه أعطاها الله نموذجًا، ففي الآخرة يتخاطب أهل الجنة وأهل النار، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]، فجعل القرين الذي في الجنة يقول للذي في النار: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصَّافات: ٥٦-٥٩] يُوبِّخُه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصَّافات: ٦٠-٦١]، فمن زعم أن الله لا يُحيي الموتى ولا يبعث من في القبور ما قدره حقَّ قدره ولا عَظَّمَه حقَّ تعظيمه، والله تعالى يبعث الموتى ليُحاسِبَهم، ويُجازِيهم، وليُبيِّن لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«**وبالجملة: فهذا باب واسع، والمقصود: أن كلَّ من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانًا، قال تعالى:** ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، **فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلَّا وقد وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضى الشيطان، ولهذا قال تعالى:** ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ **أي: من إغوائهم وإضلالهم** ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]».

الشَّرْح

○ قوله: «**وبالجملة: فهذا باب واسع**» يعني: الخلاصة فيما سبق: أن هذا الأمر واسع، يعني: من أمثلة كفر الكافرين وشركهم وضلال أهل البدع الذي يرجع إلى هذين الأصلين ظنِّهم بالله ظنَّ السَّوء وكونهم لم يُقدِّروا الله حقَّ قدره أمثلته كثيرة، فهذا باب واسع.

○ قوله: «**والمقصود: أن كلَّ من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانًا**» يعني: بمعنى أطاعه؛ لأن الشيطان يدعو إلى كل بدعة ورذيلة وشرك «**قال تعالى:** ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟

ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾» استدلَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية.

○ قوله: «**فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلَّا وقد وقعت عبادته للشيطان**» فمن عَبَدَ البقر وقعت عبادته للشيطان، ومن عَبَدَ الحجر وقعت عبادته للشيطان، ومن عَبَدَ النجوم وقعت عبادته للشيطان، ومن عَبَدَ البشر وقعت عبادته للشيطان، ومن عَبَدَ السماوات وقعت عبادته للشيطان، ومن عَبَدَ الأرضين وقعت عبادته للشيطان، كلُّ شيء عُبِدَ، حتى الفرج عُبِدَ!، وفي الهند تزاد مئات المعبودات، **ومنها**: عبادة الفُرُجِ، فكل شيء عُبِدَ، فهذه المعبودات كلها تكون عبادة للشيطان، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلَّا وقد وقعت عبادته للشيطان**»، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠]، والعبادة هنا بمعنى الطاعة، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟﴾ بمعنى: أن لا تطيعوا، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] المعنى: أنهم أطاعوهم في التحليل والتحريم، فالشيطان دعاهم فأطاعوه، فصارت طاعتهم عبادة له، هذا الذي فَسَّرَه **المفسرون**، فَسَّرَوا العبادة هنا بمعنى: الطاعات[١]، لكن أيضًا تُفسَّر العبادة بالعبادة الحقيقية، وأنهم عبدوا الشيطان حقيقةً، وسجدوا وركعوا له، هناك أناس يُسمَّوْن «عُبَّاد الشيطان» معرُوفون في لبنان، فالشيطان عُبِدَ حقيقةً، يمثلونه ويتصوَّرنه ويسجدون له ـ والعياذ بالله ـ، فتُفسَّر الآية إلى الأمرين جميعًا، تُفسَّر بعبادته حقيقةً وتُفسَّر بالطاعة.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٧٧).

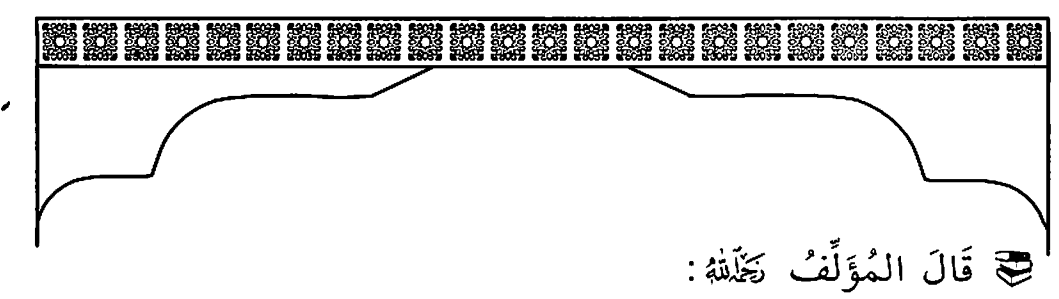
○ قوله: «**فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضى الشيطان**» كلٌّ واحد يستمتع، العابد الذي يعبد الشيطان يستمتع ويستفيد في حصول غرضه، والمعبود يستمتع بالعابد بأنه يُطيعه ويُعظِّمه، مثل: الساحر والشيطان، الساحر الذي يتصل بالشيطان كل واحد منهما يستمتع بالآخر، بينهما خدمة متبادلة، فالشيطان يستمتع بالإنسي في الشركيات التي يأمُرُه بها فيُطِيعُه، يأمره بالكفر بالله، فيأمره أن يُلطِّخ المصحف بالنجاسة، وأن يتكلَّم بكلمة الكفر، وأن يتقرَّب إليه بالقرابين، والساحر يستفيد من الشيطان بأن يستجيب لمطالبه، وإذا أمره أن يلطم أحدًا لطمه، ويسرق له بعض الأشياء، ـ وقد فُقِدَت بعض الأطياب في الهند ووُجِدت عند السحرة سرقها الشيطان وأتى بها إليه ـ فهذه من الفوائد التي يستفيدها الساحر من الشيطان، فالساحر يستفيد من الشيطان يُعطِيه مطالبه ويأتيه ببعض الأشياء، والشيطان يستمتع به بالشركيات التي يأمره بها.

○ قوله: «**ولهذا قال تعالى**: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾» يعني: الجن وأولياؤهم من الأنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ «**أي: من إغوائهم وإضلالهم** ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]» **قال الحسن** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾: «وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلَّا أن الجنَّ أمرت وعملت الأنس»(١) ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٣٨٧).

مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعني: الموت ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ﴾ يعني: مأواكم ﴿فِيهَآ﴾، وفيه: إثبات القول لله ﷻ، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨] وفي الآية: إثبات البعث والجزاء والجنة والنار.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فهذه إشارة لطيفة إلى السِّرِّ الذي لأجله كان الشِّرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يُغفر بغير التوبة منه، وأنه مُوجِب للخلود في العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرَّد النَّهي عنه فقط، بل يستحيل على الله ﷻ أن يشرع لعباده عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يُناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله».

الشَّرْح

○ قوله: **«فهذه إشارة لطيفة إلى السِّرِّ الذي لأجله كان الشِّرك أكبر الكبائر عند الله»** والشِّرك الأكبر: هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، تسوية الله بغيره في الربوبية أو الأسماء والصفات هذا هو الشِّرك، تسوية غير الله بالله في الربوبية كأن يقول: «إن هناك مُدبِّر لهذا الكون»، «هناك من يتصرف في هذا الكون»، «هناك من يخلق ويرزق مع الله»، «هناك من يُدبِّر الأمر مع الله»، «هناك من يُماثل الله في العِلم» أو «في القدرة» أو «في السمع» أو «في التصرف» أو «في الإرادة»، «هناك من يماثل الله في ذاته» أو «في أسمائه» أو «في صفاته» أو «في أفعاله» هذا شرك أكبر مُخرِج مِن المِلَّة، فمَنْ سوَّى غير الله بالله في ربوبيته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو ألوهيته فهو مُشرِك، ومن أثبت أن لله مثيلًا في ذاته أو صفاته أو أسمائه أو في استحقاقه للعبودية فيستحق أن يُدَعى أو يُذبح أو يُنذر أو يُصام له أو غير ذلك من أنواع العبادة فهذا هو الشِّرك

الأكبر الذي لا يغفره الله، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فهذه إشارة لطيفة إلى السِّرِّ الذي لأجله كان الشِّرك أكبر الكبائر عند الله**»؛ لأن فيه تسوية المخلوق الضعيف الناقص الذليل بالعزيز الحميد الكامل.

○ قوله: «**وأنه لا يُغفر بغير التوبة منه**» فمن تاب قبل الموت تاب الله عليه، ومن لَقِيَ الله بالشِّرك فإنه لا يُغفر له، «**وأنه مُوجِب للخلود في العذاب العظيم**».

إذًا هذه الأمور تتعلق بالشِّرك:

أولًا: الشِّرك الأكبر لا يُغفر إلا بالتوبة، فمن لَقِيَ الله بالشِّرك فإنه لا يمكن أن يُغفر له، ومن لَقِيَ الله بغير الشِّرك فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له وأدخله الجنة من أول وهلة بتوحيده وإيمانه وإسلامه، وإن شاء عَذَّبه بقدر ذنوبه ثم يُخرِجه من النار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ثانيًا: أن الشِّرك مُحبِط للأعمال كلها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالشِّرك مُحبِط للأعمال، ولا يدخل تحت الموازنة بين الحسنة والسيئة، بل يذهب بالحسنات كلها ولا يبقى معه حسنة، بخلاف الشِّرك الأصغر فإنه يدخل تحت الموازنة بين الحسنات والسيئات، فإن رجحت السيئات عُذِّبَ بالشِّرك الأصغر، وإن رجحت الحسنات فإن هذا الشِّرك يسقط ولا يدخل النار، أما الشِّرك الأكبر لا يدخل تحت الموازنة، بل يهدم جميع الحسنات.

ثالثًا: الشِّرك مُوجِب للخلود في النار، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالجنة حرام على المُشرِك، ولا

يستطيع أحد أن يُخلِّصه من عذاب الله، ولو اجتمع الخلائق كلهم ليُنْقِذُونَهُ من النار ما استطاعوا، ولا يستطيع أن يفدي نفسه ولو بملء الأرض ذهبًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٦-٣٧]، فمن مات على الشِّرك ليس فيه حيلة، ولا يستطيع أحد أن يُنقِذَهُ، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] حتى لو كان الشافع وجيهًا عند الله.

قال الله عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وإبراهيم أعظم وجاهة، وقد دعا إبراهيم عليه السلام أباه إلى الإسلام ولكنه لم يقبل، مع أنه دعاه وتلطَّف في دعوته، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٥]، تأمل كيف التلطُّف في الدعوة، حيث تلطَّف في الخطاب ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ تفوح رائحة النُّصح من الكلمات، لكن ردَّ هذا الأب الشيخ الضَّال والدعوة فـ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ٤٦]، فردَّ عليه ابنه و﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧] فاستغفر له فنهاه الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وهو أنه قال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٨٦]، دعا له فبيَّن الله في سورة «التوبة» قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]، وأمرنا الله تعالى أن نقتدي بإبراهيم إلا في دعوته لأبيه فلا نقتدي به فيها في قوله تعالى في سورة «الممتحنة» ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا﴾ مستثنى ﴿قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فهذه لا تقتدوا به، فليس لكم أسوة فيه ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

بالغ إبراهيم عليه السلام في نصحه لأبيه ومع ذلك ليس فيه حيلة، ومات والده علي الكفر، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، وآزر أبو إبراهيم عليه السلام، وفي «صحيح البخاري»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟»، فَيَقُولُ أَبُوهُ: «فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ»، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: «يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟!»، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»، ثُمَّ يُقَالُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ»، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»**، والذيخ هو الذكر من الضبع، صار ذيخًا ملتطخًا بقذرته، فقيل له **«يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ»، فَيَنْظُرُ**

---

(١) تقدم تخريجه.

فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ» حتى تزول الرحمة منه، فمن ماتَ على الشِّرك فلا حيلة فيه.

○ قوله: «**وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرَّد النَّهي عنه فقط**» بل قبح الشِّرك مستقِرٌّ في العقول والفِطر، وليس لأجل نهي الله عنه فقط كما تقول **الأشاعرة والجبرية** الذين أنكروا حكمة الله، **قالوا**: ليس هناك حكمة لله في الأمر والنهي، بل هذا الشيء مُحرَّم لمجرد النهي، وهذا الشيء مباح لأنه مأمور به، ويقولون لا نعرِف أن هذا قبيحًا إلا لأن الله نهى عنه، ولا نعرِف أن هذا حسنًا إلا لأن الله أمر به، **فالأشاعرة** ألغوا عقولهم، **فقالوا**: العقل لا يُقبِّح ولا يُحسِّن، فلا يعرِف لا الحُسن ولا القُبح، لا يعرِف أن هذا حسنًا إلا لأن الله أمر به لكن ليس فيه حكمة، ولا يعرِف أن هذا قبيحًا إلا لأن الله نهى عنه، بينما **المعتزلة** غلو في العقل، **وقالوا**: العقل يُقبِّح ويُحسِّن، والعقل هو الأصل الأصيل فالشرع تابع للعقل[1].

○ قوله: «**بل يستحيل على الله ﷻ أن يشرع لعباده عبادة إله غيره**» هذا يستحيل «**كما يستحيل عليه ما يُناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله**» والمستحيل: ما يمتنع شرعًا وعقلًا، والشِّرك يمتنع شرعًا وعقلًا، وكلام المؤلف رحمه الله لا يعني إن هذا يمتنع من حيث قدرة الله؛ فهذا لا يقوله عاقل، ولكن من حيث أن الله أعلمنا أنه يأمر بالتوحيد وينهى عن الشِّرك، وأن الفِطر تُوافق التوحيد وتتجاوب معه، وتستقبح الشِّرك، وحينئذ يمتنع أن الله يشرع لعباده عبادة إله غيره.

والمقصود من هذا: الردُّ على **الأشاعرة والجبرية** الذين يُنكرون

---

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢).

حكمة الله، والله تعالى حكيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣] فلا يأمر ولا ينهى إلا لحكمة، ولا يخلق إلا لحكمة، ولا يُبيح إلا لحكمة، وهكذا، فخلقه وشرعه مبني على الحكمة، وأمره مبني على الحكمة، ونهيه مبني على الحكمة.

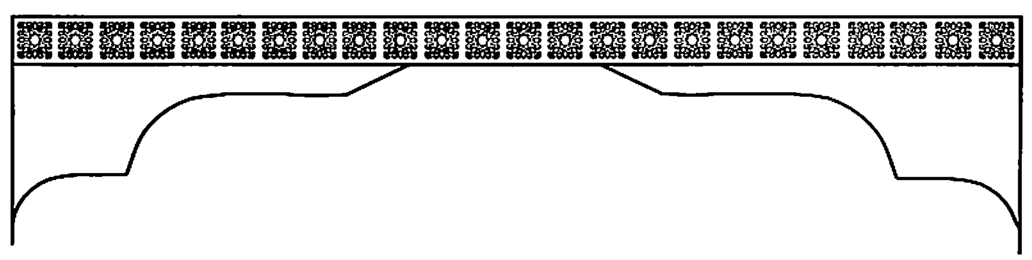
وليس بصحيح أن **الأشاعرة** من **أهل السنة والجماعة**، إلَّا ما وافقوا فيه **أهل السنة والجماعة**، مثلًا في الصفات السبع التي يثبتونها[1]، أما كونهم ينفون بقية الصفات ويؤولونها، وينكرون الأسباب، ولا يثبتون لله إلا نوع واحد من الإرادة، فلا يثبتون إلا الإرادة الكونية[2]، ولا يثبتون الإرادة الدينية والشرعية، كل هذا مخالف لمذهب **أهل السنة والجماعة**[3]، **وهو باطل وليس بصحيح، لكنهم أقرب الطوائف إلى أهل السنة.**

فالشِّرك قبحه مستقِرٌّ في العقول والفِطر لا لمجرد النهي عنه فقط، مستقِرٌّ قبحه شرعًا وعقلًا وفِطرة، فيستحيل على الله أن يشرع الشِّرك أو أن يأذن فيه أو أن يشرع عبادة إله غيره كما أنه يستحيل عليه ما يُناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

وهذا الكلام نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من «الجواب الكافي»[4] لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، الكتاب كله منقول من كُتُب **شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله**، وكثير منه منقول من «مدارج السالكين» **لابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ.



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٥٨، ٣٥٩).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٤٠، ٣٤١).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٣٢).
(٤) «الجواب الكافي» (ص ٩٩).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«واعلم أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به على أربعة أقسام، أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مُرَادِهم، وطلبهم منه أن يُعِينَهم عليها ويُوفِّقَهم للقيام بها نهاية مقصودِهم، ولهذا كان أفضل ما يسأل الرَّب تعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي عَلَّمَهُ النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا معاذ، والله إني أُحِبُّكَ، فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة «اللهم أعنِّي على ذكرك وشُكرِك وحُسن عبادتك»، فأنفع الدُّعاء: طلب العون على مرضاته تعالى».

الشَّرْح

هذا بحث في تقسيم الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به، وهذا البحث نقله **المؤلف** رحمه الله من «مدارج السالكين»[1] للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، كلُّ هذه الرسالة نُقُول من كُتُبِ **شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله**، بل هذا البحث إلى آخر الكتاب كله منقول من «مدارج السالكين» **لابن القيم** رحمه الله.

يقول رحمه الله: **«واعلم أن ...»** أي: اعلم ولا تشك ولا تظن ولا تتوهم.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨).

○ قوله: «**واعلم أن الناس**» ويدخل في «**الناس**»: الجنُّ أيضًا؛ لأن الجنَّ مُكلَّفون، مؤمنهم في الجنة وكافرهم في النار مثل الإنس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، قوله «**الناس**» يعني: المُكلَّفون، وهي من النَّوس وهو الحركة، فتشمل الجنُّ والإنس .

○ قوله: «**واعلم أن**» أقسام «**الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به على أربعة أقسام**»، وهي متقابلة:

القسم الأول: من له عبادة واستعانة.

القسم الثاني: من لا عبادة له ولا استعانة.

القسم الثالث: من له عبادة بلا استعانة.

القسم الرابع: من له استعانة بلا عبادة.

○ قوله: «**أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها**» وهؤلاء خير هذه الأقسام، وهم الرسل وأتباعهم، وأكملهم في ذلك الرسل، وأكمل الرسل في ذلك: أولو العزم الخمسة، وأكملهم في العبادة والاستعانة: الخليلان، وأكمل الخليلين: محمد ﷺ، ثم بقية الرسل، ثم الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، وقيل في تعريف العبادة: أنها ما أُمِرَ به شرعًا من غير اضطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي[1]، يعني: ما أَمر به الشارع من غير أن يقتضيه العقل، فالعقل يقتضي أمورًا قد تكون غير مشروعة، وقد يطرد العرف، فالعبادة ليست اطرادًا عرفيًا ولا اقتضاء عقليًّا، بل ما أمر به الشارع من غير أن يطرد فيه العرف ولا أن يقتضيه العقل، أما ما

(١) «المبدع» (١/ ١١٧).

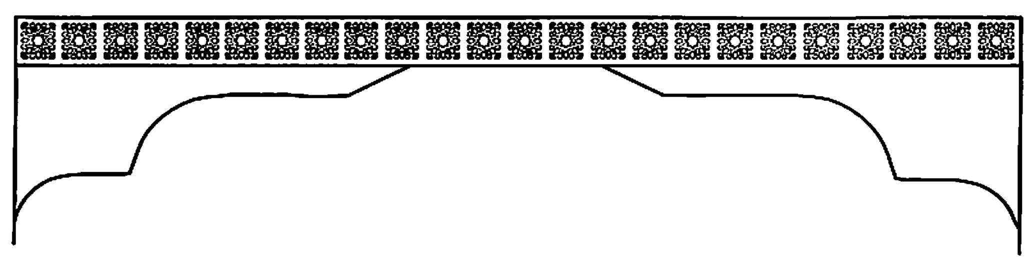
اطرد فيه العرف فهو عرف تعارف عليه الناس، **وقال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف العبادة: اسم جامع لكل ما يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(١)، كل ما يُحِبُّه الله ويرضاه من فعل الأوامر والنواهي، فالله تعالى أمر عباده بأوامر ونهاهم عن نواهي في كتابه وعلى ألسنة رُسُلِهِ، فهذه الأوامر التي أمر بها أو أمرت بها رُسُلُه يُحِبُّ منهم أن يفعلوها، وهذه النواهي التي نهى عنها أو نهت عنها رُسُلُه يُحِبُّ منهم أن يتركوها، فإذا فُعِلَتِ الأوامر وتُرِكَتِ النواهي فهذا هو الذي يُحِبُّه الله ويرضاه، وهذه التي يأمر الله بها وينهى عنها، وقد تكون قولًا وقد تكون فعلًا، وهذا القول يكون باطنًا مثل: قول القلب واعتقاده وتصديقه، ويكون ظاهرًا مثل: قول اللسان حينما يتكلَّم بذكر الله وقراءة القرآن، وقد يكون عملًا باطنًا مثل: الخوف، والرجاء، والمحبة، والتوكل، والرهبة، وقد يكون عملًا ظاهرًا مثل: الصلاة، والصيام، والزكاة، هذه هي العبادة، وهو تعريف شامل، الخلاصة: أن العبادة هي الأوامر والنواهي التي جاءت في الشريعة، فيفعل المسلم الأوامر ويبتعد عن النواهي.

لكنَّ العبادة لا بُدَّ لها من ركنين، وهما: غاية الحبِّ مع غاية الذلِّ، فحينما تفعل الأوامر كالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: ٤٣] لا بُدَّ أن تأتي بأركان العبادة، وهي غاية الحبِّ في غاية الذلِّ والخضوع له، فلا بُدَّ من هذين الأمرين، فإذا أحبَّ العبد شيئًا ولم يخضع له لا تكون عبادة، وإذا خضع لشيء ولم يُحِبه لم تكن عبادة، فقد يُحِبُّ العبد شيئًا ولكن لا يخضع لهم كما يُحِبُّ

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

المال والصديق والزوجة والولد لكن لا يخضع له، وقد يخضع للصِّ أو سلطان ظالم لكن لا يُحِبُّه، فإذا اجتمع الأمران حبٌّ وخضوعٌ وذلٌّ فهي العبادة.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ويُقابِل هؤلاء: القسم الثاني: المُعْرِضُون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة، بل إن سأله تعالى أحدُهُم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، والله ﷻ يسأله مَنْ في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه إبليس ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته، ومَتَّعَه بها، ولكن لَمَّا لم تكن عونًا على مرضاته كانت زيادةً في شِقوتِهِ وبُعْدِهِ، وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عونًا له على طاعته كان سؤاله مُبْعِدًا له عن الله.

فليتدبَّر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه، بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكُهُ، ويكون مَنْعُهُ منها حمايةً له وصيانةً، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة».

الشَّرْح

○ قوله: «ويُقابِل هؤلاء: القسم الثاني: المُعْرِضُون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة» هؤلاء شر الأقسام، وهم أعداء الله وأعداء الرسل «بل إن سأله تعالى أحدُهُم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، والله ﷻ يسأله مَنْ في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمدُّ هؤلاء وهؤلاء» يُجيب دعاء هؤلاء

ودعاء هؤلاء بما يُناسِبهم.

○ قوله: «**وأبغض خلقه إبليس ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته، ومَتَّعَه بها**»

ومن ذلك: إبليس هو أبغض الخلق إلى الله، «**ومع هذا**» سأل الله و«**أجاب سؤاله**» سأل الله الإنظار فأجابه «**وقضى حاجته، ومَتَّعَه بها**» لكن لا تُعِينُه على مرضاة الله، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «**ولكن لَمَّا لم تكن عونًا على مرضاته كانت زيادةً في شِقوتِهِ وبُعْدِهِ**» عَنِ الله، يزداد من الكفر وإغواء الناس وإضلالهم فيزداد عذابه ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ قوله: «**وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عونًا له على طاعته كان سؤاله مُبْعِدًا له عن الله**» وهذا عام، فكل من سأل الله شيئًا واستعان بالله على شيء لا يكون عونًا له على الطاعة كان السؤال مُبْعِدًا له عَنِ الله، وكان زيادة في عذابه وشِقوتِهِ.

○ قوله: «**فليتدبَّر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه**» فبعض الناس يسأل ويُجاب سؤاله ولكن هذا ليس دليلًا على الكرامة، «**بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكُهُ**» مثل: الكافر، يسأل ربه أن يُعطِيه مالًا، فيجيب سؤاله ويعطيه المال، فيصير المال سببًا في شِقوتِهِ وزيادة عذابه، وكمثل من سأل ربه الولد فأُعطِي، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:

٧٧-٨٠]، فيُعطِيه الله سبحانه الكافر ما يسأله من المال والولد لكنه يكون سببًا في شقائه، ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ نعطيه ما سأل ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٥-٣٦].

○ قوله: «**فليتدبَّر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه**» بل ابتلاء وامتحانًا، «**بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكُهُ، ويكون مَنْعُهُ منها حمايةً له وصيانةً**» فيسأل بعض الناس المال ولا يُعطى، فيكون من مصلحته أَلَّا يُعطى المال، ويسأل بعض الناس الولد ولا يُعطى، فيكون من مصلحته أَلَّا يُعطى الولد؛ لأنه قد يكون سببًا في هلاكه، مثل: قصة الغلام الذي قتله **الخضر**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠]، فلو عاش لكان سببًا في شقاء والديه، فمن العلم الذي أطلع الله عليه **الخضر** أنه شرعه له أن يقتله فقتله.

والخضر فيه خلاف بين **العلماء** هل هو نبي من أنبياء الله أم من أوليائه الصالحين؟، **الجمهور** على أنه نبي، **وقيل**: هو عبد صالح غير نبي، **وقيل**: كان ملكًا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن، والأول الصحيح[1]؛ لأنه فعل أمورًا ـ ككونه يخرق

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/ ١٦).

السفينة ويقتل غلامًا لأنه لو بلغ لكان كافرًا لا يمكن أن يفعلها إلا بوحي، وكذلك أيضًا بناء جدار تحته كنز ليتيمين وأنهما سيبلغان ويأخذان كنزهما، ولهذا قال الخضر لموسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، إذًا فعله عن أمر الله، وهذا واضح بأنه نبي، ثم أيضًا القول بأنه ولي فيه فتح باب للصوفية فإذا فعل شيئًا يقول: «أنا فعلته بالإلهام كما فعل الخضر» فيفعل ويُشرِّع ويقتل، فالصواب أنه نبي، وأنه فعل هذا بوحي، في «الصحيحين»[1] عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقِيلَ لَهُ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟»، قَالَ: «أَنَا»، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ «بَلَى، عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ»،...، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: «يَا مُوسَى، إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ»، قَالَ: «بَلْ أَتَّبِعُكَ»، قَالَ: «فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا»، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ فَمَرَّتْ بِهِمْ سَفِينَةٌ فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمْ فِي سَفِينَتِهِمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ - يَقُولُ: بِغَيْرِ أَجْرٍ - فَرَكِبَا السَّفِينَةَ، قَالَ: وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: «مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارَهُ»، فقوله «يَا مُوسَى، إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ» دليل على أنه نبي، وهو

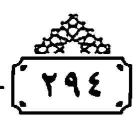
---

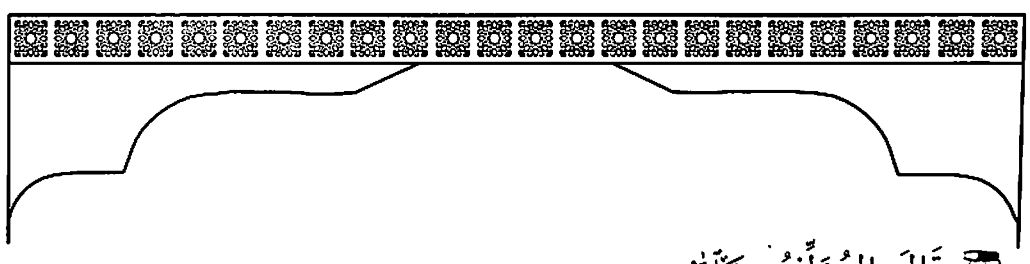
(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ إلى قوله ﴿عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ٦٢- ٦٣]»، رقم (٤٧٢٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٨٠).

الصواب، ومن قال إنه ولي قال إنه فعل هذا بالإلهام والتعريف من الله.

○ قوله: «**والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة**» فكل إنسان يتدبَّر ويتأمَّل في نفسه.







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره يسيء ظنَّه به تعالى، وقلبه محشوٌّ بذلك وهو لا يشعر.

وأمارة ذلك: حمله على الأقدار، وعِتابُه في الباطن له، ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس كل مَنْ أعطيتُهُ ونعَّمتُهُ وخوَّلتُهُ فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء منِّي وامتحان له، أيشكرني فأُعْطِيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إيَّاه وأُحوِّله عنه لغيره؟، وليس كل من ابتليته فضيَّقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذاك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان منِّي له، أيصبر فأُعْطِيه أضعاف ما فاته أم يسخط فيكون حظُّهُ السخط؟.

وبالجملة: فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرِّزق وتقديره؛ فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لِهَوانِهِ عليه، وإنما يُكرِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من يُكْرِم من عباده بأن يُوفِّقه لمعرفته ومحبَّته وعبادته واستعانته، فغاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها».

الشَّرْح

○ قوله: «وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو

يجهل حقيقة الأمر إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره يسيء ظنَّه به تعالى، وقلبه محشوٌّ بذلك وهو لا يشعر» يعني: بعض الناس إذا صانه الله مما يضره، فمثلًا طلب المال ولم يُعطِه مالًا لأنه لو أُعطِي مالًا لصار سببًا في شقائه أو كُفْرِهِ، فإن بعض الناس لو تُعطِيه مالًا كفر بالله أو صار يجمعه من حلال وحرام، ثم لا يقضي الواجبات فيصير سببًا في شقائه، وكذلك لو سأل الله ولدًا فصانه الله ولم يُعطِه إياه؛ لأنه لو أُعطِي ولدًا لكان هذا الولد سببًا في شقائه، أو سأل الله المُلك أو الإمارة ولم يُعطِه مُلكًا ولا إمارة، وهكذا فتجد بعض الناس إذا سأل ربه ولم يُعطِه أساء الظَّنَّ بربه، فقال: «كيف ما أُعطى؟!»، فيسيء الظَّنَّ بربه ويُعاتِبه، فيجهل الحقيقة ولا يدري أن الله تعالى يحميه كما يُحمى المريض عما يضره.

○ قوله: «**وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره يسيء ظنَّه به تعالى**» قال: «أنا مثل الناس»، بعض الناس إذا أُصِيب بمصيبة ما يصبر ويجزع، ويقول: «الناس كلهم ما حصل لهم مصائب، لماذا أنا؟!»، فهذا تسخط بقضاء الله وقدره، وإساءة ظنٍّ بالله ـ نعوذ بالله ـ، بل الواجب الصبر، والتحمل، وإحسان الظَّنِّ بالله، وعدم الجزع، والرجوع إلى الله، والاسترجاع.

○ قوله: «**إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره يُسِيء ظنَّه به تعالى، وقلبه محشوٌّ بذلك**» محشوٌّ أي: مملوء قلبه بالتسخط على قضاء الله وقدره «**وهو لا يشعر**».

○ قوله: «**وأمارة ذلك**» يعني: علامة ذلك: «**حمله على الأقدار، وعِتابُه في الباطن له**» الدليل على أنه محشوٌّ ومتسخط على قضاء الله وقدره: أن قلبه مملوء من السخط والتضجر وإن كان لا

يتكلم، لكن قلبه متسخط وغير راضٍ، فليس عنده رضى ولا طمأنينة ولا تسليم لقضاء الله وقدره، بل هو في الباطن يتسخط ويغلي كالمرجل، ويُسِيء ظَنَّه بربه تعالى.

○ **قوله: «ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى:** ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧]»، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: جنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ﴿مَا﴾ زائدة للتأكيد، هذه يُسمونها النُّحاة زائدة، قال الراجز:

يا طالبًا خذْ فائدةً ما بعد إذا زائدة

يعني: زائدة عند النُّحاة، ليس لها محلٌّ من الإعراب، وإلَّا ليس في القران زائد، بل لها فائدة عظيمة وهي التأكيد، ﴿ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ يعني: اختبره وامتحنه ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ يعني: أعطاه مالًا أو ولدًا أو صحةً في بدنه أو جاهًا أو سلطانًا ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ قال: «هذا دليل على الكرامة عند الله، فأنا أُعطِيتُ مالًا، أُعطِيتُ جاهًا، أُعطِيتُ سلطانًا، أُعطِيتُ ولدًا»، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ يعني: اختبره ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ﴾ يعني: ضَيَّقَ عليه ﴿رِزْقَهُۥ﴾ فكان فقيرًا لم يُعطَ مالًا أو ولدًا أو جاهًا أو سلطانًا ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ يقول: «أنا مُهان، أهانني الله فما أعطاني مالًا، ولا ولدًا، ولا جاهًا»، قال الله: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، فليس توسيع الرزق على الإنسان دليلًا على إكرامه، وليس تضييق الرزق عليه دليلًا على إهانته، وإنما ابتلاء وامتحان، المال يُعطِيه الله المؤمن والكافر، فالدنيا يُعطِيها الله مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ، ولا يُعطِي الدين إلا مَنْ يحبُّ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه سواء عنده مال أو لم يكن عنده مال، ومن لم يُعطَ

الدين فلم يُحبه سواء عنده مال أو لم يكن عنده مال، إذًا ليس توسيع الرزق دليل على الإكرام، وليس التضييق دليل على الإهانة.

والكلُّ مبتلى، فالغني يُبتلى بغناه، هل يشكر أو يكفر؟، والفقير بفقره، هل يصبر أو يتسخط ؟، والمريض بمرضه، هل يصبر أو يتسخط؟، والمُعافى بعافيته، هل يشكر نعمة الله؟، وهل يستعمل العافية في طاعته أم لا؟، ما مِنَّا إلا مبتلى، فالكلُّ مبتلى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢].

وبيَّن الله تعالى ردًّا على من ظَنَّ أن المال والولد دليل على الإكرام في سورة «سبأ» قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٥-٣٦]، الكفار يقولون: «عندنا أولاد وأموال، وهذا دليل على أننا لا نُعذَّب، ودليل على أنه أكرمنا، وتتصل سعادة الآخرة بسعادة الدنيا، نحن سعداء، أعطانا الله مالًا وولدًا فهو دليل على الإكرام»، ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ ليست الأموال هي التي تُقرِّب ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

المال قد يكون وبالًا على صاحبه، وقد يكون خيرًا، فإذا استعمله الإنسان في طاعة الله فكسبه من وجوه مشروعة، وأدَّى الواجبات، وأنفقه في وجوه مشروعة صار خيرًا له، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا عَمْرُو، نَعِمَّا بِالْمَالِ**

الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»(١).

ولقد أتى الله **أبا بكر** رضي الله عنه المال لكنه أنفقه في سُبُلِ الخيرات، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: «الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا»، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قُلْتُ: «مِثْلَهُ»، قَالَ: **وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ** رضي الله عنه **بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، قَالَ: «أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ»، قُلْتُ: «لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا»(٢).

وعثمان رضي الله عنه أتاه الله المال فجَهَّزَ ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتادها في غزوة تبوك، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَيَنْثُرُهَا فِي حِجْرِهِ، قَالَ عَبْدُالرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ، وَيَقُولُ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**» مَرَّتَيْنِ(٣)، وَقَالَ عُثْمَانُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ؟**»،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب «في الرخصة في ذلك»، رقم (١٦٧٨)، والترمذي، كتاب المناقب، باب «في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما»، رقم (٣٦٧٥).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/ ٥٧٤).

وقال ابن الملقن: «وهو حديث صحيح». «البدر المنير» (٧/ ٤١٣).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب «في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه»، رقم (٣٧٠١)، وأحمد (٥/ ٦٣).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

فَاشْتَرَاهَا عُثْمَانُ رضي الله عنه[1] وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه كذلك أتاه الله المال فهو مُنْفِقٌ.

وإذا كسب المال من وجوه مشروعة ومُحَرَّمَة ومشبوهة، وجعل يتعامل بالربا وبالغش والخداع والرشوة، وأكلِ المال بالباطل، وتنفيقِ السلع بالحلف الكاذب، وإخفاء عيب السلعة، وإذا أمسك المال لم يؤدِّ الزكاة، ولم يصلْ رَحِمَهُ، ولم يُنفِق في المشاريع الخيرية صار وبالًا عليه.

وكذلك الفقير إن صبر واحتسب صار الفقرُ خيرًا له، وإن تسخط وجزع صار وبالًا عليه، وكذلك المريض إن صبر كُفِّرت سيئاته، وإن تسخط صار وبالًا عليه، والمعافى إن استعمل عافيته في طاعة الله وأدَّى ما أوجب الله عليه صارت العافية خيرًا له، وإن استعملها في المعاصي صارت وبالًا عليه، فما مِنَّا إلا مبتلى.

ولهذا قال المؤلف رحمه الله: «**أي: ليس كل مَنْ أعطيتُهُ ونعَّمتُهُ وخوَّلتُهُ فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء منِّي وامتحان له، أيشكرني فأُعْطِيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إيَّاه وأُحوِّله عنه لغيره؟**»، سليمان عليه السلام آتاه الله النبوة والمُلْك، ولَمَّا جاءه عرش بلقيس ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢/ ٨٢٩) مُعلَّقًا بصيغة الجزم.
وموصولًا الترمذيُّ، كتاب المناقب، باب «في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه»، رقم (٣٧٠٣)، والنسائي، كتاب الأحباس، باب «وقف المساجد»، (٦/ ٢٣٥) من حديث ثمامة بن حزن رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».
وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٧/ ١٠٤)

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨-٤٠]، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وعرش بلقيس في اليمن وهو في الشام، ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: جلسة يجلسها للناس، قال له: أتي به لك قبل أن تنتهي الجلسة ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾، قال سليمان عليه السلام: أُريد أسرع من ذلك قبل أن تأتي مسلمةً؛ ليكون مالها حلالًا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ماذا قال؟، ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]، هكذا سليمان عليه السلام ما اغترَّ، وبَيَّن أن هذا ابتلاء وامتحان، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: **«وليس كل من ابتليته فضيَّقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذاك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان منِّي له، أيصبر فأُعْطِيه أضعاف ما فاته أم يسخط فيكون حظُّهُ السخط؟»**.

○ قوله: **«وبالجملة»** يعني: الخلاصة: **«فأخبر تعالى»** يعني: في هذه السورة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦] **«أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرِّزق وتقديره»**، بل الإكرام يدور على الشكر والصبر، **«فإنه سبحانه وتعالى يُوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويُقتِّر على المؤمن لا لِهَوانِهِ عليه»** فإذا قتَّر الله على المؤمن وضَيَّقَ عليه رزقه فليس هذا لهوانه عليه؛ فإن الدنيا

ليست مقياسًا، والكافر إذا أعطاه الله المال فليس هذا لكرامته عليه، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**[(١)]، فإنه سبحانه يُوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويُقتِّر على المؤمن لا لهوانه عليه.

○ قوله: **«وإنما يُكرِم ﷻ من يُكْرِم من عباده بأن يُوفِّقه لمعرفته ومحبَّته وعبادته واستعانته»** هذا هي الكرامة، الكرامة أن يُوفَّق العبدُ لمعرفة الله ومحبته وعبادته واستعانته.

○ قوله: **«فغاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها»**، فالأصول التي تُبنَى عليه السعادة ثلاثة، لكل واحد منها ضدٌّ:

الأول: التوحيد، وضدُّه: الشِّرك.

الثاني: السنة، وضدُّها: البدعة.

الثالث: الطاعة، وضدُّها: المعصية.

هذه أصول السعادة، التوحيد والسنة والطاعة، وضدُّها: الشِّرك والبدعة والمعصية.

وهذه السعادة الدنيوية والأخروية جُمِعَت في آية واحدة، وهي قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، **قال الإمام ابن القيم** رحمه الله: «وسر الخلق والأمر والكُتُب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب «ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ»، رقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب «مثل الدنيا»، رقم (٤١١٠).
قال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٣٤١).

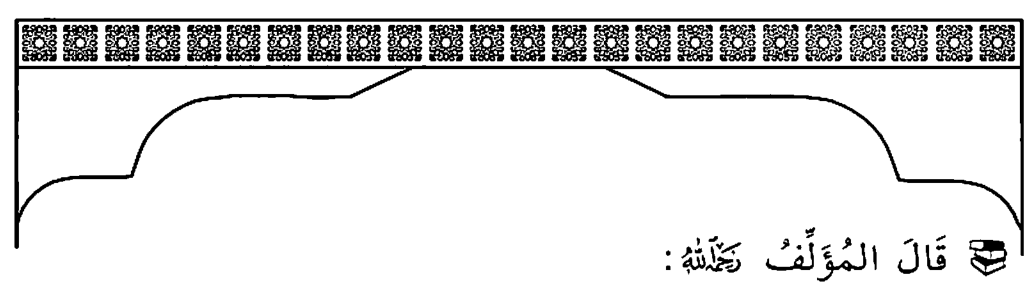
والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كُتُب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكُتُب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المُفصَّل، وجمع معاني المُفصَّل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾»[1]، والمُفصَّل من سورة «ق» إلى آخره.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ «حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كُتُب» اجتهاد منه، ويحتاج إلى دليل، ولم يذكر دليلًا على عدد الكُتُب.

والمقصود: بيان ما تضمنتها هاتان الكلمتان ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ من عظيم المعاني وكبير الفوائد، وقد دلَّت هذه الآية على أصول السعادة.



(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٧٤).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:

أحدهما: أهل القدر القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبقَ في مقدوره إعانةً على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبقَ بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها.

وهؤلاء مَخذُولُون، مَوكُولُون إلى أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكَذَّب بقدره نقض تكذيبه توحيده».

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون المقدور كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالرُّوح المُحَرِّك لها، والمعول على المُحَرِّك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبَّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فقلَّ نصيبهم من الاستعانة.

وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قِلَّة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكَّل العبد على الله حقَّ توكُّلِه في إزالة جبل عن مكانه لأزاله».

الشَّرْح

في البحث الذي نقله المؤلف رحمه الله من «مدارج السالكين» **للإمام**

ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قَسَّم الناس في عبادة الله والاستعانة به إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أهل العبادة والاستعانة، يعبدون الله ويستعينون به على مرضاته، وهؤلاء هم الرُّسُل وأتباعهم من الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء وأهل السنة والجماعة، وهم أهل الحقِّ والبصيرة، أهل العبادة والاستعانة.

القسم الثاني: عكس من ليس له عبادة ولا استعانة، المُعرِضون عن عبادة الله والاستعانة به، فليس لهم عبادة ولا استعانة، وإذا سأل أحدهم ربه واستعان به إنما يستعين به على حظوظه وشهواته الدنيوية، لا يستعين به على مرضاته وحقوقه.

القسم الثالث: من له عنده نوع من العبادة، لكن ليس عنده استعانة.

القسم الرابع: العكس من عنده استعانة وليس عنده عبادة، هذه هي الأقسام الأربعة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «**القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة**» وبلا توكل على الله، واعتماد عليه؛ لأن هؤلاء يعتمدون على أعمالهم، يرون أن العباد يخلقون أفعالهم.

○ قوله: «**وهؤلاء**» أي: القسم الثالث الذين عندهم عبادة بلا استعانة «**نوعان**»:

○ قوله: «**أحدهما: أهل القدر القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبقَ في مقدوره إعانةً على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبقَ بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها**» وهؤلاء هم **المعتزلة القدرية** الذين يقولون إن العبد يخلق

فعل نفسه، الطاعاتِ والمعاصي[١]، ولهذا **يقولون إن الله** يجب عليه أن يُعذِّبَ العاصي وليس له أن يعفو عنه، ولهذا أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها؛ لأنهم يرون خلود العصاة في النار، فإن **المعتزلة والخوارج** يرون أن مرتكب الكبيرة مُخلَّد في النار ولا شفاعة له، وحملوا النصوص التي وردت في الكفار على العصاة كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] فأنكروا النصوص التي فيها إثبات الشفاعة للعصاة للخروج من النار مع أنها متواترة، ولهذا صاح فيهم **أهل السنة** وبَدَّعُوهم وضَلَّلُوهم[٢].

وقالوا: يجب على الله أن يُثيب المطيع، فهو يستحق الثواب على الله كما يستحق الأجير أجرته؛ لأنه هو الذي خلق الطاعة فلا بُدَّ أن يأخذ أجرته من الله، وخلق المعصية فلا بُدَّ أن يُعذِّبَ، هؤلاء هم **القدرية**، قدرية في الأفعال معتزلة في الصفات[٣].

وقالوا: إن الله تعالى بَيَّنَ للناس جميعًا المؤمن والكافر على حدٍّ سواء طريق الخير وطريق الشَّرِّ كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠] وهما طريق الخير والشَّرِّ، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فليس عندهم إلا هداية واحدة، وهي هداية الدلالة والإرشاد، وأنكروا هداية التَّوفيق والتسديد[٤].

وقالوا: إن الله تعالى ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة،

(١) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/٤٦، ٤٧).
(٢) شرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص ٣٦٢).
(٣) «الملل والنحل» للشهرستاني (١/٤٥).
(٤) انظر: «شفاء العليل» (ص ٨٠).

فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ليس هناك ميزة للمؤمن على الكافر، المؤمن اختار الإيمان بنفسه وإرادته، والكافر اختار الكفر بإرادته، فالمؤمن ليس له من الله إعانة، والكافر ليس له من الله خذلان، كل على حدٍّ سواء، يعني: يقولون: لو أعان هذا وخذل هذا لصار ظالمًا، كذلك فإن الله تعالى بَيَّنَ للمؤمن والكافر طريق الخير وطريق الشَّرِّ على ألسنة رُسُلِهِ وفي كُتُبٍ مُنزَّلة، وكلٌّ يختار ما يشاء، فالمؤمن اختار الإيمان بنفسه، والعاصي اختار المعصية بنفسه، والكافر اختار الكفر، والله ما أعان المؤمن ولا خذل الكافر، وبل كلٌّ يختار ما يشاء، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الإسراء: ٢٠]، هكذا يقولون، وأنكروا إن يكون لله نعمة دينية على المؤمن خَصَّهُ بها دون الكافر(١)، وهذا من أبطل الباطل، هذا النوع الأول.

قال المؤلف رحمه الله: «**وهؤلاء نوعان، أحدهما: أهل القدر القائلون بأنه سبحانه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف**» يعني: العبد المؤمن والكافر قد فعل الله به جميع مقدروه من الألطاف حيث بيّن له طريق الخير وطريق الشَّرِّ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠] «**وأنه لم يبقَ في مقدوره إعانةً على الفعل**» ليس لله قدرة على إعانة العبد على الفعل؛ «**فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها**» أي: أعطاه الله القدرة على الحركة والفهم، وأعطاه عقلًا وسمعًا وبصرًا وقدرة على الإرادة والفعل، لكن ليس توفيقًا خاصًا، فقد أعان المؤمن والكافر، أعان أوليائه وأعدائه على حدٍّ سواء، ولهذا قالوا: «**قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبقَ في مقدوره إعانةً على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها**»

---

(١) انظر: «الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» (٢/ ٣٦٩).

والآلات هي الأسباب، يعني: أعطاه الله السمع والبصر والفؤاد، وأعطاه يدين يعمل بهما، ورجلين يمشي عليهما، هذه الآلات فقط، وليس فيه شيء آخر خاصٌّ وهو التوفيق.

○ قوله: «**وتعريف الطريق**» عَرَّفَه طريق الجنة والنار بالكُتُب المُنَزَّلة والرُّسُل.

○ قوله: «**و**» عَرَّفَه بـ«**إرسال الرسول، وتمكينه من الفعل**» فيستطيع أن يقوم ويقعد ويتحرك ويفعل فليس ممنوعًا «**فلم يبقَ بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها**» أي: فلم يبقَ شيء.

زاد في «مدارج السالكين» بعد قوله «**فلم يبقَ بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها**»: «بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء»(١)، «هؤلاء» الإشارة الأولى إلى المؤمنين، والإشارة الثانية للكافرين، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، وهذا باطل؛ فالله تعالى لم يساوِ بين أوليائه المؤمنون، فقد وفَّقهم تعالى وخلق في قلوبهم الهداية، وخصَّهم بنعمة دينية، وهي التُّوفيق والتسديد، وأما الكافر فهو مخذول؛ لأن الكافر جاءه الحقُّ وعرفه فردَّهُ فعُوقِب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فالله تعالى له نعمة دينية على المؤمن خَصَّهُ بها دون الكافر كما قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ [الحجرات: ٧-٨]،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨١).

المؤمن خَصَّه الله فحبَّب إليه الإيمان، وزيَّنه في قلبه، وكَرَّه إليه الكفر، هذا هو **مذهب أهل السنة والجماعة** أن الله تعالى أعان المؤمن، وخذل الكافر، **والمعتزلة والقدرية** يقولون: ما أعان المؤمن ولا خذل الكافر، كلٌّ على حدٍّ سواء، والهداية ليست **عندهم** إلا هداية واحدة، هي الدلالة والإرشاد.

وأهل السنة والجماعة عندهم هدايتان[1]:

الأولى: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه لكل أحد للكافر والمؤمن، فهداه الله وأرشده، وبَيَّنَ له طريق الخير والشَّرِّ، وقامت عليه الحجة، وهداية الدلالة والإرشاد يملكها الدعاة والمرشدون والرُّسُل، ولهذا أثبت الله هذه الهداية لنبيه ﷺ في قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، هذه هداية الدلالة والإرشاد، يعني: تدل وتُرشِد.

الثانية: هداية التَّوفيق والتَّسديد، وخلق الهداية في القلوب، وكونه يقبل الحقَّ ويرضاه ويختاره هذا خاص بالمؤمنين، وهذه لا يملكها إلا الله، وقد نفاها الله عن نبيه ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يعني: لا تُوفِّق ولا تخلق الهداية في القلوب، وهذه نزلت في أبي طالب لما مات على الشِّرك وحزن عليه النبي ﷺ، في «الصحيحين»[2] عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٩)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٣).

بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: «يَا أَبَا طَالِبِ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ؟!»، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: «عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ»**، فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، وَنَزَلَتْ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾» تسليةً له، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] يعني: لا تُوفِّق ولا تُسدِّد ولا تملك هداية القلوب، هذا **مذهب أهل السنة والجماعة**، أما **القدرية** فأنكروا هداية التَّوفيق والتَّسديد[1] وقالوا: ليس هناك إلا هداية واحدة، فإن الله تعالى أعطى هؤلاء وهؤلاء الأسباب، ودلَّ هؤلاء وهؤلاء على حدٍّ سواء.

ولهذا حكم عليهم المؤلف رحمه الله فقال: **«وهؤلاء مَخذُولُون»** حيث أنكروا هداية التَّوفيق والتَّسديد، وأنكروا الإعانة والتَّوفيق من الله للمؤمن **«مَوكُولُون إلى أنفسهم»** فهو يقول: «أنا الذي أختار الهداية لنفسي»، فهم مَوكُولُون إلى أنفسهم، ومَنْ وُكِلَ إلى نفسه فهو مخذول، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: **«وهؤلاء مَخذُولُون، مَوكُولُون إلى أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريق الاستعانة والتوحيد»** فهؤلاء عصاة مبتدعة كما تقدَّم.

ومعلوم أن **القدرية** نوعان، **القدرية الأُوَّل** الذين أنكروا العلم والكتاب[2]، أنكروا المرتبة الأولى، وهؤلاء كفار، وقد انقرضوا،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «قصة أبي طالب»، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٤).

(٢) انظر: «شفاء العليل» (ص ٨٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٢٩).

وقد خرجوا في عصر الصحابة وكَفَّرُهم كابن عمر[١] وغيره، ثم جاء بعدهم **القدرية المبتدعة**، وهم عامة القدرية، أثبتوا المرتبة الأولى والثانية علم الله بالأشياء قبل كونها وكتابة لها في اللوح المحفوظ، وأثبتوا الإرادة والخلق، لكن أنكروا عموم الإرادة وعموم الخلق[٢] فقالوا: إن الله أراد كل شيء إلا أفعال العباد، وخلق كل شيء إلا أفعال العباد، فهم الذين خلقوها وأرادوها بأنفسهم طاعات أو معاصي، وتقدَّم أن شبهتهم قولهم: إن الله لو خلق المعاصي وعَذَّب عليها صار ظالمًا، وهذا من جهلهم، وتقدَّم الردُّ عليهم، وأن الله تعالى الذي يُنسب إليه الخلق وهو مبني على الحكمة، والعبد هو الذي يُنسب إليه الفعل والتسبب والمباشرة، فالله تعالى أعطاه الاختيار، فخلقه وخلق القدرة والإرادة التي بها يفعل ويريد.

○ قوله: «**قال ابن عباس** ﷺ: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكَذَّب بقدره نقض تكذيبه توحيده**»» وهذا الأثر عن ابن عباس أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنة»، واللالكائي، وفي إسناده مقال[٣]، فالأثر ضعيف، لكن معناه صحيح، فإن معناه أن مَنْ آمن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨)، وانظر: شرح النووي على «صحيح مسلم» (١/ ١٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٨٥).

(٣) «السنة» لعبدالله بن أحمد (٢/ ٤٢٢) رقم (٩٢٥)، و«اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٤/ ٦٧٠) رقم (١٢٢٤).

وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/ ٤٦) رقم (٣٥٧٣) من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «**إن القدر نظام التوحيد، فمن وَحَّدَ الله وآمن بالقدر فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يؤمن بالقدر كان ناقضًا للتوحيد**».

قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه: هانئ بن المتوكل، وهو ضعيف». «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٧)

بالله وكَذَّبَ بالقدر نقض تكذيبه توحيده، من كَذَّبَ بالقدر كفر؛ لأن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وهو الأصل السادس كما في حديث جبريل في «صحيح مسلم»(١) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ في مجيء جبرائيل إلى النبي ﷺ وسؤالاته عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم الساعة، ثم أماراتها، ولَمَّا سأل عن الإيمان قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: ٤٩]، فمن كَذَّبَ بالقدر كفر ونقض تكذيبه توحيده، لكن هذا الأثر فيه ضعف.

○ قوله: «**النوع الثاني**» من القسم الثالث الذين عندهم عبادة بلا استعانة وتوكل على الله : «**من لهم عبادات وأوراد**» يعني: شيء مخصص من عبادة كصلاة أو صيام أو حج «**ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة**» بالله ﷻ «**لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر**» فالله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، ربط الشبع بالأكل، فربط هذا بهذا، فلو لم يأكل الإنسان لم يشبع، والشرب سبب في الرِّي، فلو لم يشرب الإنسان لظل ظمأنًا، وفتح العين سبب في الإبصار، والأُذن سبب في الاستماع، والنار سبب في الإحراق، والسكين سبب في القطع، وهكذا الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، وهذا مُقدَّر، لكن **هؤلاء** أنكروا ارتباط الأسباب بالقدر بمسبباتها، **وقالوا**: ليس لها تأثير، وهذا ناشئ من قلّة توكلهم واستعانتهم، وهذا مذهب **الأشاعرة**، **فالجبرية من الأشاعرة والجهمية** يُنكِرون ربط الأسباب بالمسببات(٢)، فيقولون: النار ليست سببًا في

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٩٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٩٥).

الإحراق، وليس الأكل سببًا للشبع، وليس الشرب سببًا للرِّي، وليس السكين سببًا في القطع؛ فأنكروا الأسباب، **وقالوا**: الأسباب ليست مرتبطة بمسبباتها؛ لأننا لو قلنا إن الأسباب لها تأثير صار هناك مُؤثِّر مع الله، وليس هناك مُؤثِّر إلا الله، ففرارًا من ذلك أنكروا الأسباب.

فإذا قلت لهم: «إذا أشعلت النار أحرقت، هذا حسي، كيف تنكرون هذا؟!»، قالوا: «لا، النار علامة على الإحراق، كما أن زوال الشمس علامة على دخول الوقت، والسكين ليست سببًا في القطع، لكن علامة وأمارة»، فإذا قلت: «كيف وإذا أشعلت النار أحرقتك؟!»، قالوا: «هذا من باب الارتباط العادل، ليس لأن هذا سببًا»، فيقولون: «يوجد الإحراق عند إشعال النار، لا بالنار»، باء السببية يُنكِرونها، يوجد القطع عند وجود السكين لا بالسكين، والأكل ليس سببًا في الشبع، لكن يوجد الشبع عند الأكل لا بالأكل، فالسكين جعل علامة على القطع، والنار علامة على الإحراق، لكن ليست سببًا فيه، فأنكروا الأسباب والغرائز والعِلل، فليس هناك سبب مُؤثِّر إلا الله، وهذا باطل، وإنكار للمحسوس؛ والقرآن مملوء بذكر الأسباب والمسببات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ [النبإ: ١٤-١٥]، هذه باء السببية، والعلل قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]هذه علة، وقال تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] هذه علة، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] هذه علة، وهكذا القرآن من أوله إلى أخره مملوء بالأسباب والعِلل ومع هذا أنكروها.

والفرق بين العِلة والحكمة: أن العِلة هي التي لأجلها شُرِعَ الشيء قد تكون منصوصة وقد لا تكون منصوصة، والحكمة مقاربة لها مثل: المسافر يترخص بقصر الصلاة والجمع بين الصلاتين، والعِلة السفر، إلا أنه لا يعلل بها، وإنما تقوم المصلحة بها[1].

والحكمة تخفيف الله على عباده، والحكم قصر الصلاة للمسافر والجمع، وكذلك أيضًا المسح على الخفين ثلاثة أيام بلياليها، العِلة السفر، والحكمة التخفيف ورفع المشقة.

فنقول لهم: النار سبب في الإحراق، ليست علامة بل هي سبب، والله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، وهو الذي ربط السبب بالمسببات، والسكين سبب في القطع، والأكل سبب في الشبع، والشرب سبب في الرِّي، وهكذا، فنقول لهم: النار مُحرِقة لأن الله جعل فيها خاصية الإحراق، لكن لو أراد سبحانه أن يسلبها خاصية الإحراق سلبها كما سلب نار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خاصية الإحراق فلم تحرقه، حيث أُلقِي إبراهيم منه قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]، والسكين تقطع وإذا أراد الله أن يسلبها خاصية القطع لم تقطع كما أن سكين إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ذبح بها سلبها الله خاصية القطع فلم تقطع، أجرى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ السكين على حلق ولده ولكن لم تقطع؛ لأن الله سلبها خاصية القطع، وهكذا.

وشبهة **الأشاعرة** في نفي الأسباب: أنهم يقولون: لو قلنا إن الأسباب لها تأثير لكان هناك مُؤثِّر مع الله، والمُؤثِّر هو الله، فلهذا

---

(١) «البحر المحيط» (٥/ ١٣٣)، «الموافقات» (١/ ٢٥٦).

أنكروا المؤثرات الأخرى، فلو قلنا إن هناك سبب أو علة صار هناك علة مُؤثِّرة في الفعل، فالله لا يفعل إلا لعلة أو لسبب، ولهذا أنكروا الحِكم والأسباب والطبائع والغرائز، وليس هناك حسن ولا قبيح، العقل لا يُحسِّن ولا يُقبِّح[1]، ليس هناك إلا مشيئة إلهية، والأوامر والنواهي ليس لها حكمة، والقدر ليس له حكمة، **وقالوا**: إن الله يدخل هؤلاء الجنة بلا عمل ولا سبب ولا حكمة، ويدخل هؤلاء النار بلا سبب ولا عمل ولا حكمة، **وقالوا**: العمل الصالح ليس سببًا في دخول الجنة، والعمل السيئ ليس سببًا في دخول النار، ويستدلون بحديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: «هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي»»**[2]، وكذلك حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»**[3]، وهذه النصوص لها معنى عند أهل العلم.



---

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢).

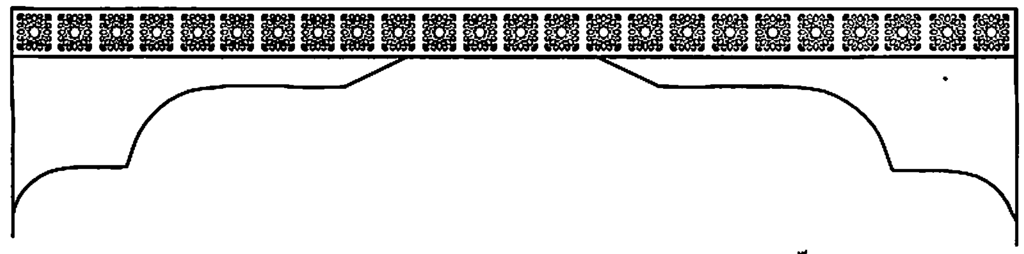
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦).

قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (٧/ ١٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه، في المقدمة، باب «في القدر»، رقم (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٢).

قال ابن القيم: «هذا الحديث حديث صحيح». «شفاء العليل» (ص ١١٣).

وقال ابن رجب: «وفي هذا الحديث نظر، ووهب بن خالد ليس بذلك المشهور بالعلم». «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٢٣).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملًا؟.

قلنا: هي التي يُعبَّر عنها بالتوكل، وهي حالة في القلب تنشأ عن معرفة الله تعالى، وتفرُّده بالخلق والأمر والتَّدبير والضر والنفع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتُوجِب اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقةً به، فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهَمَهُ من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما، فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣] أي: كافية.

القسم الرابع: من له استعانةٌ بلا عبادة، وتلك حالة من شهد بتفرّد الله بالضر والنفع، ولم يدرِ ما يحبه ويرضاه فتوكّل عليه في حظوظه فأسعفه بها، وهذا لا عاقبة له سواء كانت أموالًا، أو رياسات، أو جاهًا عند الخلق، أو نحو ذلك فذلك حظُّه من دنياه وآخرته.

واعلم أن العبد لا يكون مُتحقِّقًا بعبادة الله تعالى إلَّا بأصلين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: إخلاص العبودية.

والنّاس في هذين الأصلين على أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص والمتابعة: فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومَنْعُهم وإعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عدُّوا للناس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلَّا لجهله بالله وجهله بالخلق.

والإخلاص: هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه، فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ.

وهذا هو العمل الحسن المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وهو العمل الصالح في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلَّا بُعدًا من الله تعالى، فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالأهواء والآراء».

الشَّرْح

○ قوله: «فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملًا؟.

«قلنا: هي التي يُعبَّر عنها بالتوكل، وهي حالة في القلب تنشأ عن معرفة الله تعالى، وتفرُّده بالخلق والأمر والتَّدبير والضر والنفع،

وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتُوجِب اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقةً به، فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهَمَهُ من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما، فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣] أي: كافية».

هذا التمثيل من المؤلف ليس بجيد؛ فإن نسبة الطفل إلى أبويه نسبة غير العاقل إلى العاقل، أما المؤمن فيلجأ إلى الله ويظهر افتقاره إلى الله عن إيمان وتأله وتعبد لله ﷻ، وفقر في القلب، وفراغ لا يسده إلا التضرع إلى الله وإنزال الحاجات كلها بالله ﷻ، أين هذا من الطفل الذي لا يعقل في رغبته ورهبته إلى أبويه؟! إذ أن رغبة الطفل ورهبته إلى أبويه من فطرته التي فطره الله عليها.

○ قوله: «**القسم الرابع: من له استعانةٌ بلا عبادة، وتلك حالة من شهد بتفرّد الله بالضر والنفع، ولم يدرِ ما يحبه ويرضاه فتوكَّل عليه في حظوظه فأسعفه بها، وهذا لا عاقبة له سواء كانت أموالًا، أو رياسات، أو جاهًا عند الخلق، أو نحو ذلك فذلك حظُّه من دنياه وآخرته**».

وهذا كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا حظه من دنياه وآخرته؛ لأنه ليس له حظ من العبادة، وإن عنده شيء من التوكل والصبر، وذلك لا ينفعه إلا في دنياه، بخلاف القسم الذي قبله فإنهم أقرب إلى الحق من هؤلاء؛ لأنهم عظموا الشرائع والإلهيات والرسل، وإن كان عندهم نوع تكذيب جزئي بالقدر، لأجل الشبهة، فهم معهم دين

وإيمان مستمر إن لم يفسده صاحبه بالجزع وعدم الصبر، بخلاف أهل القسم الرابع وهم الجبرية فإنهم لم يعظموا الشرائع والإلهيات والرسل، فإنهم واقفون مع القدر، منابذون للشرع، يقول أحدهم: أنا إن خالفت أمر الله بالدين، فقد وافقت أمره القدري ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ قوله: **«واعلم أن العبد لا يكون مُتحقِّقًا بعبادة الله تعالى إلَّا بأصلين:**

«أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

«والثاني: إخلاص العبودية».

الأولى أن يكون الأصل الأول هو الإخلاص، وسيأتي في كلام المؤلف التدليل على هذين الأصلين.

○ قوله: **والنّاس في هذين الأصلين على أربعة أقسام:**

«أحدها: أهل الإخلاص والمتابعة: فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومَنْعُهم وإعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عدُّوا الناس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلَّا لجهله بالله وجهله بالخلق».

العبارة فيها قلق، ولعل مراد المؤلف: فإنه لا يعمل أحد لأجل الخلق؛ إلا لجهله بالله وجهله بالخلق.

○ قوله: **«والإخلاص: هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده به إلى الموت، قال تعالى:** ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: ٧]» قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. قال: أخلصه

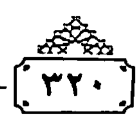
وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة[1].

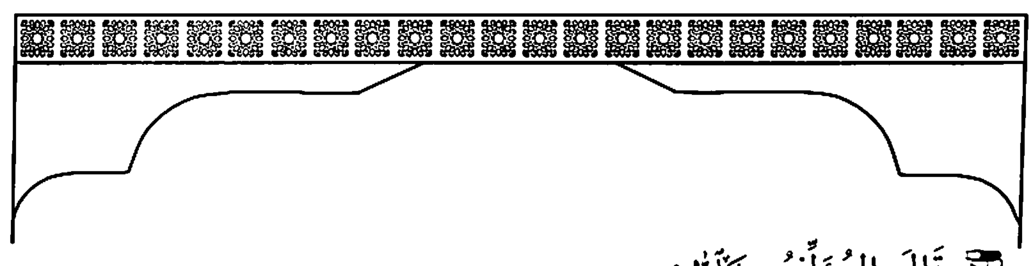
○ قوله: «**وقال:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، **وأحسن العمل: أخلصه وأصوبه، فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ.**

«وهذا هو العمل الحسن المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، **وهو العمل الصالح في قوله تعالى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، **وهو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»، وكل عمل بلا متابعة فإنه لا يزيد عامله إلَّا بُعدًا من الله تعالى، فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالأهواء والآراء».**



(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٩٥).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«**الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة له، وهؤلاء شِرار الخلق، وهم المُتَزِّينُون بأعمال الخير، يُراءون بها الناس.**

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة، فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرِّياء والسُّمعة، ويُحِبُّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا.

وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]».

الشَّرْح

○ قوله: «**الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة له، وهؤلاء شِرار الخلق**» وشِرار الخلق كفرة والعياذ بالله، ما عندهم إخلاص لله، ولا عندهم عمل بالشريعة «**وهم المُتَزِّينُون بأعمال الخير، يُراءون بها الناس**» فتزَّينوا بأعمال الخير، لكن لا يريدوا بها وجه الله، إنما يُراءون بها الناس.

ولتفوز بالإخلاص عليك أن تُجاهِد نفسك عليه، فلا بُدَّ من المجاهدة، وكما بَيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ «**عدُّوا للناس كأصحاب القبور، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا**»، فعليك أن تعد الناس كأنهم أموات، ولا تترك العمل من أجلهم، فالعمل من أجل الناس رياء، وترك العمل من أجل الناس رياء، والمعافى

من عافاه الله، فعليك أن تُجاهِد نفسك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ۝٦٩﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، وإذا عرض الرياء وكان عارضًا وطردته استعذت بالله من الشيطان فإنه لا يضرك، أما إذا استمر مع الإنسان واسترسل فهذا قد يُحبِط العمل ويُجازى بنيته الأولى.

والرياء كما هو معلوم نوعان:

الأول: رياء أكبر، وهو مُخرِج من المِلَّةِ، وهذا رياء المنافقين الذين دخلوا في الإسلام نفاقًا، وهذا الرِّياء في الإيمان رياء في أصل الدين؛ لأنهم دخلوا في الإسلام نفاقًا، فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر.

الثاني: رياء أصغر، وهو شرك أصغر، وهو الذي يصدر من المؤمن، كالمؤمن الذي أسلم لله وليس عنده رياء في إيمانه وإسلامه، لكن يطرأ الرِّياء في بعض الأعمال كصلاته أو قراءته فيصلي ويُزيِّن صلاته لِمَا يرى من نظر رجل إليه، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟»، قَالَ: «**الرِّيَاءُ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: «اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»**»[1]، **فالرياء يكون في الأعمال، وفي الأقوال**

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨).
قال المنذري: «ورواه أحمد بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٤)
وقال ابن مفلح: «وسنده حسن». «الآداب الشرعية» (٣/ ٢٩٣).
وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢).

السمعة كقراءة القرآن فيُحسِّن صوته في قراءة القرآن أو يأمر بالمعروف مراءاة، وفي «الصحيحين»[(١)] عَنْ سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا ﷺ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»، وعَنْ شَدَّادٍ ﷺ قَالَ: قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ»[(٢)].

والعلاج هو جهاد النفس على الإخلاص، وأن يعد الناس كأنهم أموات كما بَيَّن المؤلف رحمه الله، والمجاهد موعود بالهداية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فإذا طرأت عليك الخواطر الرديئة جاهد نفسك بطردها والاستعاذة بالله من الشيطان.

○ قوله: «**وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم**» يعني: هذا القسم يكثر في المنحرفين عن الصراط المستقيم، يعني: عن الشريعة «**من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة**» بعض الناس ينتسب إلى الفقه، وبعضهم إلى العلم أو التصوف أو العبادة، لكنه ليس عنده إخلاص ولا متابعة، لهذا **قال** رحمه الله: «**فإنهم يرتكبون البدع والضلال والرِّياء والسُّمعة، ويُحِبُّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا**»، يرتكب البدع والضلال ومع ذلك يُرائي

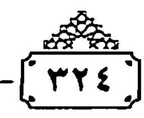
(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «الرياء والسمعة»، رقم (٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٨٧).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥).

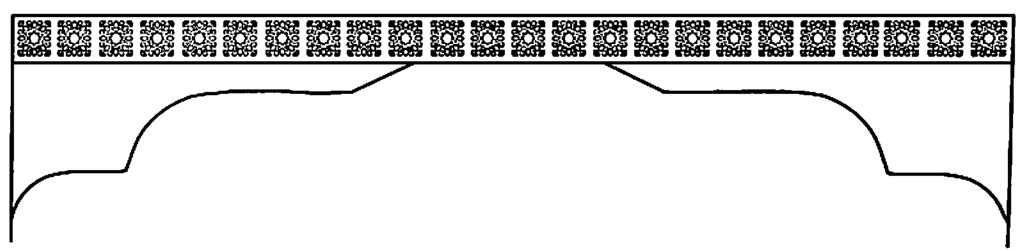
وفيه: شهر بن حوشب، **قال ابن عدي**: «وشهر هذا ليس بالقوي في الحديث، وهو ممن لا يحتج بحديثه، ولا يتدين به». «الكامل في ضعفاء الرجال» (٤/ ٣٩).

بعمله، والسُّمعة في الأقوال والرِّياء في الأعمال، ويُحبُّ أن يمدحه الناس بشيء لم يفعله.

○ قوله: «**وفي أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى:** ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]» **هذا ذم ووعيد شديد لمن يُحِبُّ أن يُحمد أو يتزين بشيء لم يفعله.**







قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«الضرب الثالث: مَنْ هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر كجُهَّال العُبَّاد، والمنتسبين إلى الزُّهد والفقر، وكل مَنْ عَبَدَ الله على غير مراده، والشأن ليس في عبادة الله فقط، بل في عبادة الله كما أراد الله.

ومنهم: مَنْ يمكث في خلوته تاركًا للجمعة ويرى ذلك قُربة، ويرى مواصلة صوم النهار والقيام بالليل قُربة، وصيام يوم الفطر قُربة، وأمثال ذلك».

الشَّرْح

○ قوله: **«الضرب الثالث: مَنْ هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر» فالضرب الثالث:** من له عنده إخلاص ولكن ليس عنده متابعة للنبي ﷺ، فهو مُخلص في عمله لكن عمله على غير متابعة **«كجُهَّال العُبَّاد، والمنتسبين إلى الزُّهد والفقر، وكل مَنْ عَبَدَ الله على غير مراده»** وهذا يحصل كثيرًا، تجد بعض الناس عنده إخلاص ويتعبد، لكن العبادة غير موافقة للشرع، مثل: بعض الناس يصوم أيام البيض فيصوم اليوم الثالث عشر من ذي الحجة مع أنه من أيام التشريق الثلاث؛ بسبب جهله، فهو مخلص ويقول: «أنا أُرِيد وجه الله» فيصوم على غير متابعة؛ لأن صوم الثالث عشر من ذي

الحجة ممنوع، فقد نهى عنه النبي ﷺ، في «صحيح مسلم»[(١)] عَنْ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ، وَشُرْبٍ، وَذِكْرِ اللهِ ﷻ»**، لا يصومه إلا مَنْ لم يجد الهدي من الحجاج والمعتمرين.

وتجد بعض الناس كذلك مخلص لكن على غير متابعة تجده يصلي ركعتي الفجر ويُطيل في الركوع والسجود وكأنه يتهجد، هذا غير متابع؛ فإن الرسول ﷺ كان يُخفف هاتين الركعتين[(٢)].

وهذا القسم من الناس يحصل من **بعض العُبَّاد والزُّهاد والصُّوفية**، فهم يتعبَّدون ويُخلِصُون العمل لله، لكن العمل غير موافق للشريعة أو فيه نقص، هذا هو «**الضرب الثالث: مَنْ هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر كجُهَّال العُبَّاد، والمنتسبين إلى الزُّهد والفقر**» يعني: التصوف، «**وكل مَنْ عَبَدَ الله على غير مراده**».

○ قوله: «**والشأن ليس في عبادة الله فقط، بل في عبادة الله كما أراد الله**» فليس الشأن أن تعبد الله بل الشأن أن تعبد الله كما أراد الله.

○ قوله: «**ومنهم: مَنْ يمكث في خلوته تاركًا للجمعة**» **بعض الصُّوفية** يمكث في خلوته ويتعبد ويترك الجمعة يخلص لله، يقول: «أنا الآن قلبي جمعته على الله، فإذا قمت للجمعة تفرَّق عليَّ جمعية قلبي وانصرف» فيترك الجمعة والجماعة ويتعبد في خلوته، فهذا مخلص لله لكن عمل على غير الشريعة «**ويرى ذلك قُربة**».

---

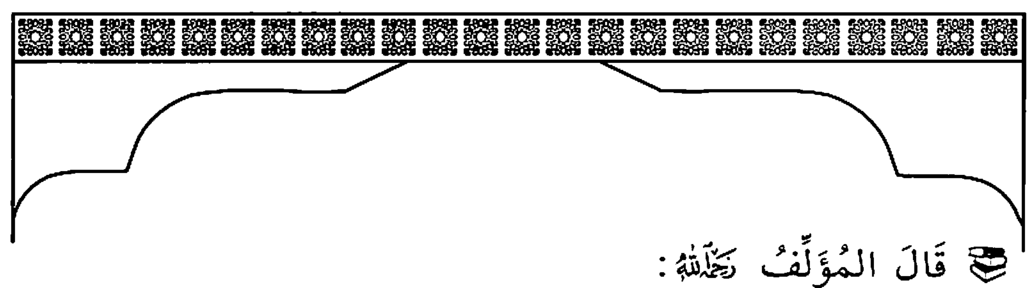
(١) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٤١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب «الأذان بعد الفجر»، رقم (٦١٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٧٢٤) من حديث عائشة ﵂.

○ قوله: «ويرى» بعض الجهال «مواصلة صوم النهار والقيام بالليل قُربة» مع أن المبادرة إلى الفطر أفضل، فهذا عمل خالص لكن على غير متابعة، «وصيام يوم الفطر قُربة» بعضهم يصوم يوم العيد من جهله، ويوم العيد حرام صومه[1]، «وأمثال ذلك».



(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب «صوم يوم الفطر»، رقم (١٩٩٢)، ومسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

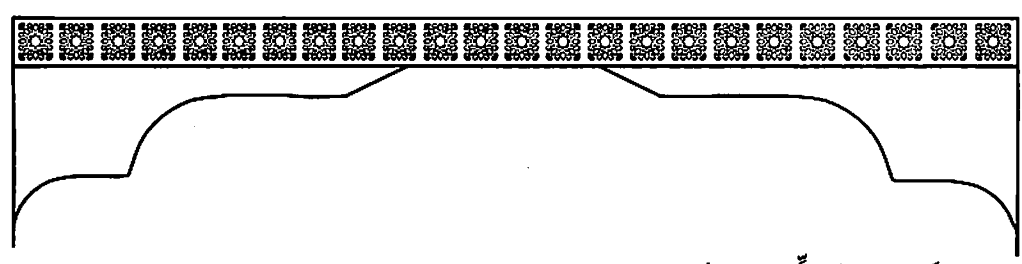
«الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله تعالى كطاعات المُرائِين، وكالرَّجل يُقاتِلُ رياءً وسمعةً وحميَّةً وشجاعةً وللمغنم، ويحجُّ ليُقال، ويقرأ ليُقال، ويُعلِّم ويُؤلِّف ليُقال، فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولةٍ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]، فلم يأمرِ الناس إلَّا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها، والقائم بهما هم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]».

الشَّرْح

○ قوله: «**الضرب الرابع**» عكس هؤلاء: «**مَنْ أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله تعالى**» فأعماله موافقة للشريعة لكنه مُرائِي بعمله، فعمله ليس لله بل يُرائِي الناس به «**كطاعات المُرائِين، وكالرَّجل يُقاتِلُ رياءً وسمعةً وحميَّةً وشجاعةً وللمغنم**» فيُقاتِل رياءً وسمعةً، أو يُقاتل حميَّةً، أو لتحرير الأرض فقط، أو لقومية، أو لعصبية، أو للدم، فهذا العمل ليس لله وإن كان مُوافِقًا للشريعة، «**ويحجُّ ليُقال**» يعني: ليقول الناس عنه: «حَجَّ»، «**ويقرأ ليُقال**» عنه: «قارئ»، «**ويُعلِّم ويُؤلِّف ليُقال**» عنه: «عالم»، «**فهذه أعمال صالحة**» موافقة للشرع «**لكنها غير مقبولةٍ**»؛ لأنها ليست لله، «**قال تعالى:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]»، ﴿ٱلدِّينَ﴾ معناه: العبادة، ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مخلصين له العبادة، ﴿حُنَفَآءَ﴾

جمع حنيف، والحنيف: هو المائل من الشِّرك إلى التوحيد، «**فلم يأمرِ الناس إلَّا**» يعني: أن الناس أُمِرُوا بشيئين «**بالعبادة على المتابعة**» متابعة الرسول «**والإخلاص فيها**» لله، «**والقائم بهما**» أي: القائم بالعبادة والإخلاص «**هم أهل** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]» نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] **لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقِّها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، وهم في ذلك أربعة أصناف:**

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقُّها على النفوس وأصعبها، قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التَّعبُّد، والأجر على قدر المشقَّة، ورووا حديثًا ليس له أصل «أفضل الأعمال أحمزها» أي: أصعبها وأشقُّها.

وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس، قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الرَّاحة، فلا تستقيم إلَّا بركوب الأهوال وتحمُّل المشاق».

الشَّرْح

هذا البحث نقله المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من كتاب «مدارج السالكين»[(١)] لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

○ قوله: «**ثم أهل مقام** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾» يعني: الذين يعبدون الله ويستعينون بالله، أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] هم أهل الاستقامة وأهل التَّوحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني:

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٥).

نخصك يا الله بالعبادة، فلا نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] نخصك يا الله بالاستعانة وبالتوكل، فلا نستعين إلا بك، ولا نتوكل إلا عليك، هؤلاء أهل العبادة والاستعانة بالله.

○ قوله: «**لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقِّها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق**» اختلفوا في أفضل العبادات وأنفعها وأحقِّها بالإفادة والتخصيص عند الله، «**وهم في ذلك أربعة أصناف**» يعني: هؤلاء المُوحِّدُون المؤمنون المستعينون بالله والمتوكلون عليه اختلفوا في أفضل العبادات، يعني: اختلافهم في أفضل العبادات، حتى يعرف الإنسان الأفضل حتى يفعله، فإذا فعل الإنسان الأفضل زاد أجره وثوابه عند الله.

○ قوله: «**الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقُّها على النفوس وأصعبها**» **قالوا**: أفضل العبادات كل عبادة فيها مشقَّة على النفوس، فكل عبادة فيها مشقَّة وجهد وتعب هذه أفضل، وعندهم في هذا أدلة وتعليل.

أما التعليل: «**قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التَّعبُّد**» **فقالوا**: إن العبادة الصعبة والشاقة على النفوس أبعد الأشياء عن هواها، فكون الإنسان يتعبد بعبادة فيها مشقَّة يكون بعيدًا عن الهوى، فيكون في ذلك قد عَبَدَ الله حقيقة التعبد.

وأما الدليل **فقالوا**: «**والأجر على قدر المشقَّة**» وكلما زادت المشقَّة زاد الأجر، واستدلوا بحديث قال عنه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورووا حديثًا ليس له أصل «أفضل الأعمال أحمزها»، أي: أصعبها وأشقُّها» هذا الحديث كما ذكر المُحَقِّق ذكره **السخاوي** في «المقاصد الحسنة» بلفظ «**أفضل العبادات أحمزها**»، ونقل عن **المزي** أنه قال:

«هو من غرائب الأحاديث، ولم يُروَ في شيء من الكتب الستة»[١]، وذكره **أبو عبيد** في «غريب الحديث» من رواية ابن عباس، **قال أبو عبيد**: «أحمزها يعني أمتنها وأقواها»[٢].

ولو استدلوا بحديث «الصحيحين»[٣] عَنِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ؟!»، فَقِيلَ لَهَا: «**انْتَظِرِي، فَإِذَا طَهُرْتِ فَاخْرُجِي إِلَى التَّنْعِيمِ فَأَهِلِّي ثُمَّ ائْتِينَا بِمَكَانِ كَذَا، وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أَوْ نَصَبِكِ**»، والنصب هو التعب، يعني: أجرك على قدر نصبك، فهذا أولى أن يستدلوا به، وهو أصح من الحديث الذي استدلوا به، لكن هذا أيضًا الحديث ليس بصريح في أن أفضل العبادات أصعبها، ولكن فيه أن الأجر على قدر المشقَّة التي تحصل للإنسان في أداء العبادة، **والصواب**: أن هذا القول ليس بصحيح؛ لأن المشقَّة ليست مطلوبة لذاتها، فالإنسان لا يُؤمر بأن يفعل ما فيه مشقَّة، بل الأحاديث جاءت بما يدل على اليُسر والسهولة، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وفي «صحيح البخاري»[٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[٥]، فليست المشقَّة مطلوبة لذاتها،

---

(١) «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص ١٣٠).

(٢) «غريب الحديث» لابن سلام (٤/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب «أجر العمرة على قدر النصب»، رقم (١٧٨٧)، ومسلم، كتاب الحج، رقم (١٢١١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «الدين يسر»، رقم (٣٩).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦).

قال ابن رجب: «إسناده ضعيف». «فتح الباري» (١/ ١٣٦).

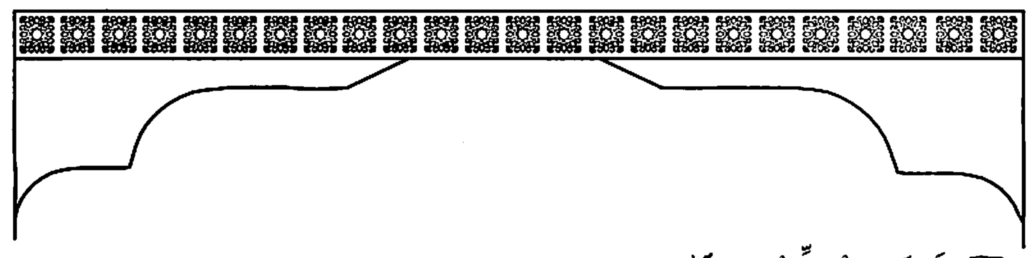
لكن إذا حصل للإنسان مشقَّة آجره الله وحصل له الأجر والثواب، لكن ليس معنى ذلك إن الإنسان يتخير العبادة التي فيها مشقَّة، وفي «الصحيحين»[(١)] عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ** ﷺ **بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ**»، فقول هؤلاء إن أنفع العبادات وأفضلها أشقُّها على النفوس وأصعبها ليس بصحيح؛ لأن المشقَّة ليست مطلوبة لذاتها.

قال المؤلف ﵀ تعليقًا على هؤلاء: «**وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس**» يعني: هؤلاء الذين اختاروا هذا القول هم أرباب المجاهدة يجاهدون أنفسهم، ويجورون عليها، ويشقُّون على نفوسهم، «**قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك**» فالنفوس لا تستقيم إلا بالمجاهدة والجور عليها وحملها على المشاقِّ وبذلك تستقيم النفوس؛ «**إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الرَّاحة**» فطبيعة النفوس الكسل والمهانة والإخلاد إلى الرَّاحة فلذلك ينبغي حملها على الأمور الصعبة، ولهذا قالوا: «**فلا تستقيم إلَّا بركوب الأهوال وتحمُّل المشاقِّ**» فهم يجاهدون أنفسهم ويجورون على النفوس، ونقول: وهذا اجتهاد منهم، لكن ليس بصحيح؛ لأن المشقَّة ليست مطلوبة لذاتها، والإنسان يختار الأيسر، والحمد لله.



---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب «إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله»، رقم (٦٧٨٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٢٧).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها التَّجرُّد والزُّهد في الدنيا، والتقلُّل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامُّهم ظنَّوا أن هذا غاية فشمَّرُوا إليه وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزُّهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى، والاستغراق في محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب واللسان».

الشَّرْح

○ قوله: «الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها التَّجرُّد والزُّهد في الدنيا، والتقلُّل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها» يرى هؤلاء أن أفضل العبادات كون الإنسان يتجرد عن الدنيا، ويزهد فيها، ويتقلل منها، فلا يتوسع في ملاذها، فلا يتوسع في المآكل ولا المشارب ولا الملابس ولا المراكب ولا المساكن، فيتقلل منها غاية الإمكان

ويطرحها، ولا يكون عنده اهتمام بها ولا يبالي، وهذه طريقة **الصوفية.**

نقول لهم: إن الزهد الحقيقي هو الزهد في الحرام والمتشابه بالبُعد عنه، وأما من كسب المال من وجوه مشروعه وأنفقه في وجوه مشروعة فهو ممدوح كأغنياء الصحابة كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، فكم من إنسان يتقلَّل من الدنيا ولكن لم يزهد في الحرام ولا في المتشابه، فإن الزهد الحقيقي هو الزهد في الحرام والمتشابه، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَمْرُو، نَعِمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[1].

○ قوله: «**ثم هؤلاء**» الصوفية «**قسمان**»: عوام وخواص «**فعوامُّهم: ظنُّوا أن هذا غاية**» **قالوا**: أن الغاية هي التجرد من الدنيا «**فشمَّرُوا إليه وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة**» **قالوا**: كون الإنسان يتجرد من الدنيا أفضل من كونه يتعلم العلم، وأفضل من كونه يتعبد، ولو لم يكن عنده علم ولا عبادة، «**ورأوا الزُّهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها**» **قالوا**: يكفيك أن تتجرد من الدنيا وتزهد فيها ولو لم تُقبل على العلم ولا العبادة، فهذه طريقة العوام منهم.

○ قوله: «**وخواصهم رأوا**» أن ترك الدنيا ليس غاية ولكنه «**مقصودًا لغيره**» **فالعوام** قالوا: التقلل من الدنيا والزهد فيها هو الغاية، **والخواص** قالوا: التقلل من الدنيا والزهد فيها ليس غاية ولكنه وسيلة، والغاية عكوف القلب على الله، «**وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى، والاستغراق في محبته، والإنابة إليه،**

---

(١) تقدم تخريجه.

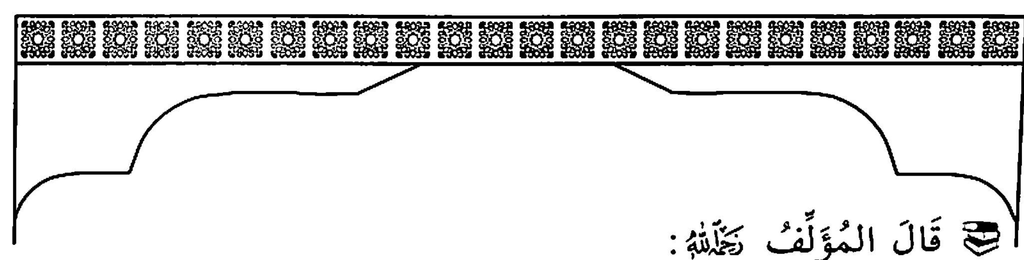
والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته»، في «مدارج السالكين» **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأن المقصود به: عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته،...»[١].

ⵔ قوله: **«فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب واللسان»** لكن نقول لهم: دوام ذكر الله بالقلب واللسان لا يكفي، بل لا بُدَّ من العلم والعمل.



(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٦).





قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ثمَّ هؤلاء قسمان:

فالعارِفون: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرِفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيَّته، فإذا جاء ما يُفرِّقه عن الله لم يلتفتوا إليه، ويقولون:

يطالب بالأوراد من كان غافلًا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء أيضًا قسمان:

منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيَّته.

ومنهم: من يقوم بها ويترك السُّنن والنَّوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيَّته.

والحقُّ: أن الجمعيَّة حظ القلب، وإجابة داعي الله حقَّ الرَّبِّ، فمن آثر حقَّ نفسه على حقَّ ربِّه فليس من العبادة في شيء».

الشَّرْح

قال المؤلف رحمه الله إن هذا الصنف الذي قال إن أفضل العبادات التجرد والزهد قسمان عوام وخواص، «ثمَّ هؤلاء» الخواص «قسمان»: عارِفون ومنحرِفون.

○ قوله: «فالعارِفون: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيتهم» فإذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، يعني: امتثلوا الأمر، فإذا جاء ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يتركون هذا

الاجتماع ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيَّتهم، وإذا جاء النهي كذلك اجتنبوا النهي ولو فَرَّقَهم وأذهب جمعيَّتهم.

○ قوله: «**والمنحرِفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيَّته، فإذا جاء ما يُفرِّقه عن الله لم يلتفتوا إليه**» **المنحرِفون** منهم ما يُفرِّقهم الأمر ولا النهي، فإذا أقبل القلب على الله وجاءت الصلاة فلا يصلون؛ لأن الصلاة تُفرِّقهم وتُفرِّق جمعيَّتهم على الله، فلو اجتمعوا مثلًا بعد الظهر وجاءت صلاة العصر وهم مجتمعون يذكرون، مثل: ما يفعل **الصوفية** «لا إله إلا الله» أو «الله الله»، فإذا جاءت الصلاة قيل لهم: «صلوا»، قالوا: «لا، لن نصلي»؛ **قالوا**: نحن اجتمعنا على الله والذكر، والصلاة تُفرِّقنا، والمقصود جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يُفرِّقه لا ننصرف بل نستمر.

فالعارِفون إذا جاء الأمر بادروا إليه ولو فَرَّقَ جمعيَّتهم يتفرقون ويمتثلون للأمر، **والمنحرِفون** يستمرون على اجتماعهم ولو جاء أمر الله لا يمتثلونه، ولهم شبهة، **يقولون**: المقصود من القلب جمعيَّته على الله، أي: أن يجتمع على الله، فإذا جاء ما يُفرِّقه عن الله لم يلتفت إليه، ويقولون تمثلًا بقول الشاعر:

يطالب بالأوراد من كان غافلًا   فكيف بقلب كل أوقاته ورد

يقول: يُطالَب بالأمر والنهي الغافل، لكن نحن كل أوقاتنا على الذكر، فلا نحتاج صلاة، فلو جاءت الصلاة فإن المقصود منها الذكر ونحن كل أوقاتنا ذكر، والذي يُطالَب بالأوراد الذي عنده غفلة، أما الذي أوقاته كل ورد وذكر فلا يُطالَب.

وبهذا يتبيَّن إن هذا الصنف هم **صوفية**، لكن **عوامهم** يقولون: الغاية هو التقلل من الدنيا، **والخواص** يقولون ليس هو الغاية، بل

الغاية عكوف القلب، ثم **الخواص** ينقسموا إلى قسمين: **عارِفون ومنحرِفون**، **فالعارِفون** إذا جاء الأمر بادروا إليه ولو فَرّقَ جمعيَّتهم، **والمنحرِفون** إذا جاء الأمر لا يلتفتون إليه، بل يقولون: المقصود الاجتماع، جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يُفرِّقه لم يلتفت إليه، ويقولون: نحن أهل ذكر كيف نُطالَب بأوامر أخرى؟!، إنما يُطالَب الغافل، أما غير الغافل فلا يُطالَب.

والعارف عند الصوفية له ثلاثة إطلاقات:

الإطلاق الأول: هو الذي يعلم ويعرف أن ما قُدِّر سيكون، وينظر إلى المشيئة والقدر، ويلغي صفاته وأفعاله ويجعلها صفات لله، فالله عنده هو المُصلِّي والصائم، وحينئذ تسقط عنه التكاليف، ويستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، وفَسَّرُوا اليقين بالعلم، أي: اعبد ربك حتى يأتيك العلم[١]، فإذا جاء العلم انتهت العبادة[٢]، هذا قول **الصوفية**، وهؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد لا شك في كفرهم؛ فقد **أجمع المسلمون** على من أن اعتقد أن أحدًا يسقط عنه التكليف وعقله حاضر أنه كافر يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِلَ كافرًا، لأنه ليس هناك أحد يسقط عنه التكليف إلا إذا فقد العقل، فإذا فقد العقل زال عنه التكليف، أما إذا كان العقل موجودًا فالتكليف موجود، فمن زعم أن أحدًا يسقط عنه التكليف وعقله معه يستتاب، فإن تاب وإلا قُتِلَ كافرًا، كما قرر ذلك أهل العلم **كشيخ الإسلام** رحمه الله[٣] **وغيره**.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٩٥).
(٢) انظر: «مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن الأشعري (ص ٢٨٩)، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٤/ ١٧٠).
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٣٩).

الإطلاق الثاني: الذي له كشوف ومعارف عن المُغيَّبات في المستقبل، فيزعم أنه يُكشف له عن المُغيَّبات في المستقبل، وأيضًا هذا كفر وردَّة؛ لأن من ادَّعى شيئًا من علم الغيب فهو كافر، ومن ادَّعى أنه يعلم المُغيَّبات فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فمن زعم أنه يُكشف له المُغيَّبات عن المستقبل فإنه كافر؛ لأن دعوى علم الغيب من خصائص الله ﷻ[1].

الإطلاق الثالث: العارف المنتسب إلى الصوفية، يُقال «عارف» يعني المنتسب إلى الصوفية، يُسمُّونه «العارف» و«السالك»، يعني: منتسب إليهم وواحد منهم، مثل: ما يُقال في العصر الحاضر الآن عن الفِرق، يُقال: «إخواني»، «سلفي»، «تبليغي»، «سروري»، هذه كذلك.

○ قوله: «**ثم هؤلاء**» المنحرِفون «**أيضًا قسمان**»:

○ قوله: «**منهم: من يترك الواجبات والفرائض لجمعيَّته**» فيتركون الفرائض، إذا أَذَّنَ المؤذن للصلاة وهم مجتمعون يتركون الواجبات، يقولون: نحن على ذكر، والمقصود من الصلاة الذكر ونحن على ذكر، فالصلاة تُفرِّقُنا فلا نهتم بها، فيتركون الواجبات والفرائض لجمعية الإقبال على الله - بزعمهم -.

○ قوله: «**ومنهم**» وهو القسم الثاني: «**من يقوم بها ويترك السُّنن والنَّوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيَّته**» فلا يتركون الواجبات ولكن يتركون السنن والنوافل والمستحبات، فإذا جاءت الواجبات

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٢٥٩).

يُؤدُّونها، والنوافل كالسنن الرواتب، ومثل تعلم العلم يتركونها، يقولون: جمعية القلب على الله مُقدَّمٌ على النوافل.

وكلٌ من القسمين مُنحرِف؛ فإن الله تعالى خلق الإنسان لعبادته، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا أمرك الله فعليك أن تمتثل الأمر سواء كان أمر إيجاب أو استحباب، أما أن يترك الإنسان الأمر سواء أمر إيجاب أو استحباب ويقول إنه مشغول بالجمعية على الله فهذا انحراف عن الحقِّ، ولذلك **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ ردًّا عليهم: «**والحقُّ: أن الجمعيَّة حظ القلب، وإجابة داعي الله حقَّ الرَّبِّ، فمن آثر حقَّ نفسه على حقَّ ربِّه فليس من العبادة في شيء**» يقول: كونك تظنُّ أنك مجتمع على الذكر وأنكم تذكرون الله أيها الصوفية وتجتمعون هذا حظ قلوبكم، وإجابة داعي الله إذا أَذَّنَ المؤذن حقُّ الله، وحقُّ الله مُقدَّم على حقِّ النفس، فمن قَدَّمَ حقَّ النفس على حقِّ الله لم يكن عابدًا لله، هذا ردُّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على هؤلاء.

○ قوله: «**وإجابة داعي الله**» وهي الأوامر والنواهي «**حقَّ الرَّبِّ، فمن آثر**» يعني: فَضَّلَ وقَدَّمَ «**حقَّ نفسه على حقَّ ربِّه فليس من العبادة في شيء**» بل هو يعمل بهوى نفسه، **والصواب**: أن الجمعية يكون فيها حظ القلب وحظ النفس وحقُّ الرَّبِّ، والمطلوب إيثار حقِّ الرَّبِّ، وحظ النفس ليس ممنوعًا مطلقًا، في «الصحيحين»[1] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقُولُ: «أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟!»، فَلَمَّا أَنْزَلَ

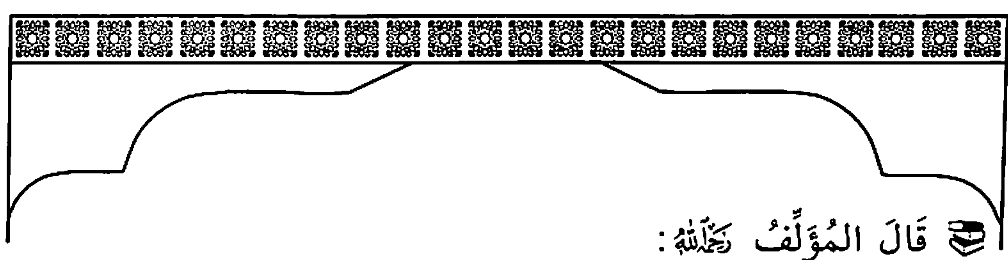
(١) تقدم تخريجه.

اللهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥١] قُلْتُ: «**مَا أُرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ**»(١)، هذا هوى لكنه ليس ممنوعًا.



---

(١) هو بفتح الهمزة، من أرى، ومعناه: يُخفِّف عنك ويُوسِّع عليك في الأمور، ولهذا خَيَّرَك. شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٠/ ٥٠).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفعٌ مُتعدٍّ، فرأوه أفضل من النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع أفضل؛ لقوله ﷺ «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[1].

---

(١) أخرجه البزار في «البحر الزخار» (٦٩٤٧)، وأبو يعلى الموصلي في «المسند» (٣٣١٥، ٣٣٧٠) من طريق يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه.
قال الهيثمي: «وفيه: يوسف بن عطية الصفار، وهو متروك». «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩١).

وقال الذهبي: «مجمع على ضعفه، **وقال النسائي**: «متروك»، **وقال الفلاس**: «ما علمته كان يكذب، لكنه يهم»، وروى عباس **عن يحيى**: «ليس بشيء»، وكَنَّاهُ **البخاري** أبا سهل، **وقال**: «منكر الحديث»، ومن مناكيره: عن ثابت عن أنس مرفوعًا: «**الخلق كلهم عيال الله، فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله**»». «ميزان الاعتدال» (٧/ ٣٠١).

وأخرجه الشاشي في «مسند» (٤٣٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٥٤١) من طريق موسى بن عمير، عن الحكم بن عتيبة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح، **قال يحيى**: «موسى بن عمير ليس بشيء»، **وقال ابن عدي**: «عامة ما يرويه لا يُتابِعُه الثقات عليه»». «العلل المتناهية» (٢/ ٥١٩).

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٢) من طريق أبي عمرو القرشي، عن حماد بن أبي سليمان، عن شقيق، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وذكره في ترجمة أبي عمرو هذا ـ وهو عثمان بن عبدالرحمن الجمحي ـ مع أحاديث أخرى له، **وقال عقبها**: «وهذه الأحاديث لعثمان التي ذكرتها عامتها لا يُوافِقُهُ عليها الثقات، وله غير ما ذكرت، وعامة ما يرويه مناكير إما إسنادًا وإما متنًا».

قالوا: وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النَّفَّاع مُتعدٍّ إلى الغير، فأين أحدهما من الآخر؟!، ولهذا كان «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»(١)، وقد قال لعلي: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ من حُمُرِ النّعم»(٢)، وقال ﷺ: «من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تَبِعَهُ من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا»(٣)، وقال ﷺ: «إن الله وملائكته ليُصلُّون على مُعلِّمي الناس الخير»(٤)، وقال ﷺ: «إن العالم يستغفر

(١) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب «الحث على طلب العلم»، رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه، في المقدمة، باب «فضل العلماء والحث على طلب العلم»، رقم (٢٢٣)، وأحمد (١٩٦/٥) من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ.
وأخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب «ما جاء في فضل الفقه على العبادة»، رقم (٢٦٨٢) قال: حدثنا محمود بن خداش البغدادي، حدثنا محمد بن يزيد الواسطي، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن قيس بن كثير، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ.
وقال: «ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل، هكذا حدثنا محمود بن خداش بهذا الإسناد، وإنما يُروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة، عن الوليد بن جميل، عن كثير بن قيس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، وهذا أصح من حديث محمود بن خداش، ورأي محمد بن إسمعيل هذا أصح».
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله»، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب «ما جاء في فضل الفقه على العبادة»، رقم (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.
وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح».

له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها»[(١)].

قالوا: وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النَّفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي تسبَّب فيه.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بُعِثوا بالإحسان إلى الخلق، وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبعثوا بالخلوات والانقطاع، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النَّفر الذين همُّوا بالانقطاع والتَّعبُّد وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء أن التَّفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعيَّة على الله بدون ذلك.

قالوا: ومِن ذلك العلم والتَّعليم، ونحو هذه الأمور الفاضلة».

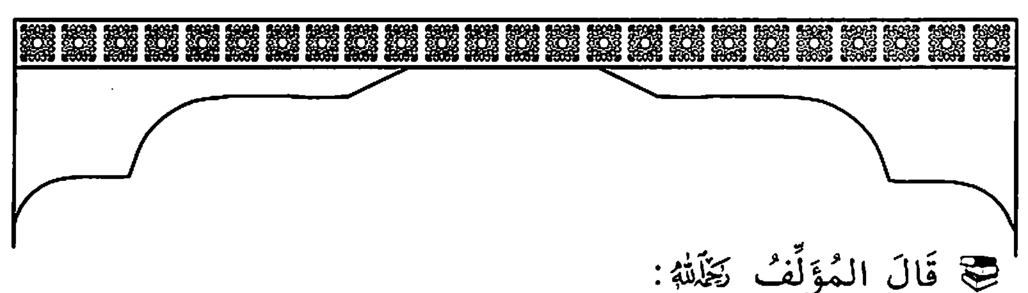
الشَّرْح

نفع الخلق فيه خير عظيم كما ذكر المصنف رحمه الله عن أهل **الصنف الثالث**، لكن لا بُدَّ لهذا العامل من الاعتناء بالفرائض والرواتب التابعة لها، ولا بُدَّ أن يكون له ورد يومي لا يخل به، كما كان **السلف والأئمة والعلماء** يفعلون ذلك؛ حتى يجمع بين الحسنيين.

أما إذا كان يشتغل بنفع الخلق، ولكنه يُقصِّر في أداء الواجبات والفرائض والنوافل التابعة لها وصلاة الوتر وما أشبه ذلك فإنه ينفع غيره، لكنه يُهلِكُ نفسه، وليس هذا من فعل **السلف والعلماء**.



(١) قطعة من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وتقدم قريبًا.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الصنف الرابع: قالوا: أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرَّبِّ سبحانه، واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل مِنْ ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضَّيف: القيام بحقِّه والاشتغال به.

والأفضل في وقت السَّحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدُّعاء.

والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدُّ والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أوَّل الوقت، والخروج إلى المسجد وإن بَعُدَ.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن.

والأفضل في السَّفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرُّفقة، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيَّة القلب، والهمَّة على تدبُّرِه، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعيَّة قلب من جاءه

كتابٌ من السُّلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التَّضرُّع والدُّعاء والذكر.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التَّعبُّد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن.

والأفضل في العَشْرِ الأواخر من رمضان: لزوم المساجد، والخلوة فيها، مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة الناس، والاشتغال بهم، حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء».

الشَّرْح

○ قوله: **«الصنف الرابع: قالوا: أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرَّبِّ سبحانه، واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته»** يعني: قال: أفضل العبادات العمل على مرضاة الله والتَّعبُّد في كل وقت بالوظيفة التي شرعه الله فيها، فكل وقت له وظيفة عبادية الأفضل أن تُؤدَّى فيه الوظيفة التي وظَّفَهَا الله فيه، وهذا هو **الصواب** أن أفضل العبادات في كل شيء بحسبه، وفي كل وقت بوظيفة ذلك الوقت من العبادة، فكل وقت له وظيفة وعبادة، فكونك تترك هذه العبادة التي وَظَّفَها الله في هذا الوقت إلى غيرها هذا خلاف الأولى.

○ قوله: **«فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل مِنْ ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن»** فإذا دعا داعي الجهاد أو هجم العدو بلدًا من بلاد المسلمين وجب النفير، فكون الإنسان يذهب

ليتَّعبَّد ويصلي ويترك الجهاد أو يعمل أعمالًا أخرى فيبيع أو يشتري ولا يذهب للجهاد، أو يتعلم علمًا شرعيًّا مستحبًّا نافلةً زائدًا عن الواجب الذي عليه ويترك العدو يعيث في البلاد فسادًا هذا خلاف الأفضل في وقت الجهاد؛ لأن الجهاد هذا أفضل شيء، ولهذا إذا هجم العدو بلدًا وجب على أهل البلد أن يُدافِعوا عن أنفسهم صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأُنثاهم، ولا يحتاج لإذن الوالدين ولا غيرهم؛ لأنه صار فرض عين، فإن الجهاد يكون فرض عين في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: إذا هاجم العدو بلدًا من بلاد المسلمين، فيجب على أهل البلد إن يُدافِعوا عن أنفسهم الصغير والكبير والذكر والأنثى، ولا يحتاج الواحد منهم إلى إذن والديه؛ لأنه فرض عين، ولا يستأذن الأمير ولا غيره، فيدافع ولا يترك العدو، فإن اندفع العدو فالحمد لله، وإن لم يندفع وجب على أهل البلد المجاور لهم حتى يندفع، فإن لم يندفعوا وجب على أهل البلد الثاني وهكذا، حتى يجب على المسلمين أن يُخلِّصُوا المسلمين من عدوهم.

واختلف **العلماء** ما هو البلد الإسلامي؟، **من العلماء** من قال: العبرة بالحكومة، فإذا كانت الحكومة تحكم بالشريعة فهذا بلد إسلامي، **ومنهم**: من قال العبرة بالشعب، فإذا كان الشعب مسلمًا فهذا بلد إسلامي.

الحالة الثانية: إذا استنفر إمام المسلمين أحدًا أو جماعة للجهاد وجب عليهم أن ينفروا ويطيعوا ولي الأمر، فالذين استنفرهم الإمام وولي الأمر صار الجهاد فرض عين عليهم.

الحالة الثالثة: إذا وقف في صف القتال أمام العدو وبدأت المعركة ليس له أن يفرَّ ويخذل؛ فهذا من الفرار يوم الزحف، وهذا

من كبائر الذنوب[١]، فهو قبل أن يأتي ليس بفرض عين عليه، لكن لَمَّا وقف في الصف صار فرض عين[٢].

ما عدا هذه الأمور الثلاثة يكون الجهاد فيها مستحبًّا أو فرض عين على الأمة كلها إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين.

○ قوله: **«وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار»**، فلو قال: «إذا جاهدت تركت السنن الرواتب وصلاة الليل»، نقول له: «ولو تركته، فالجهاد مُقدَّم»، الجهاد أفضل الآن، اترك النوافل ولو آل منك إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، لو قال: «كنت أصوم الاثنين والخميس والأيام البيض، لكن لَمَّا دخلت في الجهاد لا استطيع»، نقول له: «الجهاد مُقدَّم، واترك صيام الأيام البيض وصيام الاثنين والخميس حتى يندفع العدو».

○ قوله: **«بل مِنْ ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن»** بل قد يؤول بالإنسان إلى أن يترك إتمام صلاة الفرض، ولهذا تصلى صلاة الخوف في الجهاد، فإن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بأصحابه أمام العدو، وصلاة الخوف جاءت على ستة أو سبعة وجوه، **قال الإمام أحمد بن حنبل** رحمه الله: «صحت صلاة الخوف عن النبي ﷺ من خمسة أوجه أو ستة»، وفي رواية أخرى: «من ستة أوجه أو سبعة كلها جائزة»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب «قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]»، رقم (٢٧٦٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «المغني» (٩/ ١٦٣).

(٣) «كشاف القناع» (٢/ ١١)، وانظر: «المغني» (٢/ ١٣٧).

منها: كما في «الصحيحين»[(١)] عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ رضي الله عنه عَمَّنْ شَهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ ذَاتِ الرِّقَاعِ صَلَّى صَلَاةَ الْخَوْفِ: **«أَنَّ طَائِفَةً صَفَّتْ مَعَهُ وَطَائِفَةٌ وِجَاهَ الْعَدُوِّ، فَصَلَّى بِالَّتِي مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَصَفُّوا وِجَاهَ الْعَدُوِّ، وَجَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَصَلَّى بِهِمْ الرَّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ صَلَاتِهِ، ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا، وَأَتَمُّوا لِأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ»**.

ومنها: ما رواه مسلم في «صحيحه»[(٢)] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: **«شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ فَصَفَّنَا صَفَّيْنِ، صَفٌّ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالْعَدُوُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَكَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَبَّرْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَكَعَ وَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ وَرَفَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ السُّجُودَ وَقَامَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ انْحَدَرَ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ بِالسُّجُودِ وَقَامُوا، ثُمَّ تَقَدَّمَ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ، وَتَأَخَّرَ الصَّفُّ الْمُقَدَّمُ، ثُمَّ رَكَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ وَرَفَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ الَّذِي كَانَ مُؤَخَّرًا فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى، وَقَامَ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ السُّجُودَ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ انْحَدَرَ الصَّفُّ الْمُؤَخَّرُ بِالسُّجُودِ فَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَلَّمْنَا جَمِيعًا»**.

إذًا أفضل العبادات في وقت الجهادِ الجهادُ ولو آل بك إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل حتى ولو لم تتمكن من إتمام الفريضة فإنك تصلي صلاة الخوف كما كان النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة ذات الرقاع»، رقم (٤١٣٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٨٤٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٨٤٠).

يفعلها، ومعروف صلاة الطالب والمطلوب[(١)]، فإن المطلوب الذي يطلبه العدو يصلي وهو يمشي، وقد يكون وهو يركض من شدة الخوف.

○ قوله: «**والأفضل في وقت حضور الضَّيف: القيام بحقِّه والاشتغال به**» عن الوِرد المستحب، فإذا نزل بك ضيف تقوم بخدمته، فلو قلت: «لو نزل بي ضيف أنا عندي وِردًا يوميًا فأقرأ جزءًا قبل النوم، أما الآن فلا أقدر»، نقول: «اترك قراءة القرآن؛ الأفضل أن تقوم بخدمة الضيف، فإن إلزامه واجب عليك؛ فحقُّ الضيف واجب»، وفي «الصحيحين»[(٢)] عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لَا يَقْرُونَا، فَمَا تَرَى فِيهِ؟»، فَقَالَ لَنَا: «**إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأُمِرَ لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ**»، هذا واجب، فالأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقِّه والاشتغال به ولو تُرِكت بعض السنن والعبادات والمستحبات، وهذا الكلام منقول من «مدارج السالكين»[(٣)] لابن القيم رحمه الله، وزاد فيه: «والاشتغال به عن الوِرد المستحب» الوِرد يعني: العبادة التي يفعلها، المستحبة مثل صلاة الليل والنوافل والصيام، فلا يشتغل به عن الوِرد الواجب.

إذًا يشتغل بالضيف عن الوِرد المستحب، ولا يشتغل به عن الوِرد الواجب، ومثال الوِرد الواجب: صلاة الجماعة، فلا يقول: «إذا جاءني الضيف لا أصلي مع الجماعة»، بل صلِّ مع الجماعة

---

(١) انظر: «الأوسط» (٥/ ٤٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب «قصاص المظلوم إذا وجد مال ظالمه»، رقم (٢٤٦١)، ومسلم، كتاب اللقطة، رقم (١٧٢٧).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٨٨).

فهي وِرد واجب، لكن لو لم تتمكن من قيام الليل بسبب الضَّيف فلا بأس أن تُقدِّمه على الوِرد المستحب، لكن لا تشتغل به عن الوِرد الواجب كصلاة الجماعة وخدمة الوالدين وحقِّ الزوج أو الزوجة والأهل، لا بُدَّ من أداء الواجب.

○ قوله: «**والأفضل في وقت السَّحر**» آخر الليل: «**الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدُّعاء**»؛ في «الصحيحين»[(١)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»»، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عِمران: ١٧].

إذًا الأفضل في وقت السَّحر أن تشتغل بالاستغفار والصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء، فإذا قال شخص في آخر الليل: «نذهب نخدم الفقراء، ونشتغل بأعمال تنفع الناس»، نقول له: «لا، آخر الليل وظيفته الذكر والدعاء والاستغفار»، أما خدمة الفقراء والدعوة إلى الله فنجعلها بعد الفجر، فإنه في وقت السَّحر الأفضل الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء».

○ قوله: «**والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن**»، ولهذا ينبغي لمن يقرأ القرآن إذا سمع الأذان أن يقف ويُجيب المؤذن، وكذلك من يعظ أو يُحاضِر يقف ويُجيب المؤذن، وكذلك من يتحدث يقف ويُجيب المؤذن؛ لأن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «الدعاء في الصلاة من آخر الليل»، رقم (١١٤٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٧٥٨).

إجابة المؤذن أفضل، فالقرآن أفضل لكن هذا الوقت وظيفته تفوت، وقراءة القرآن وقته واسع وكذلك الموعظة والمحاضرة، فإذا انتهى المؤذن أكَمَلْ.

○ قوله: «**والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدُّ والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أوَّل الوقت، والخروج إلى المسجد وإن بَعُدَ**» فالأفضل في أوقات الصلوات الخمس: إجابة المؤذن، والخروج إلى المسجد ولو كان بعيدًا، والجدُّ والاجتهاد في إيقاع الصلاة على أكمل الوجوه، والتَّقدم حتى تُؤدِّي السنة الراتبة، بعض الناس إذا سَمِعَ المؤذن ينشغل بإجابة الهاتف أو بالكلام في البيع والشراء، نقول له: «قف الآن، أدِّ الوظيفة»، والوظيفة: الخروج إلى المسجد، وإجابة المؤذن، والتَّقدم حتى تُؤدِّي السنة الراتبة، وتبادر إليها، وتأتي إلى الصلاة، وتعتني بها، وتحافظ عليها، وتُؤدِّيها مع الجماعة، وذلك كله مُقدَّم على أيِّ عمل آخر، لأن هذه هي وظيفة هذا الوقت.

○ قوله: «**والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمال والبدن**» إذا كان هناك مُضطر إلى المال فالأفضل أن تسعى إلى جمع المال له، فإذا كان هناك جائع فتسعى لإطعامه وتجمع له حتى تزول ضرورته، فتسعى بمالك فتنفقه، وببدنك فتُساعده، بجاهلك بأن تتوسط حتى تزول ضرورة هذا المحتاج، في «صحيح مسلم»[1] عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَال: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠١٧).

عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ[١] مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ **إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]، **وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ** ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، **تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**»، حَتَّى قَالَ: «**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»، فالنبي ﷺ بادر لَمَّا رأي هؤلاء المحتاجين فحثَّ الناس على مساعدته.

إذًا الأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته حتى تزول حاجته وضرورته، فتساعده بمالك بأن تُنفِق، وببدنك بأن تحمله، وبجاهك كأن تكون ذا جاه فتتوسط عند الأغنياء، تقول: «فلان محتاج فأنفقوا».

---

(١) **النمار** ـ بكسر النون ـ جمع نَمرة ـ بفتحها ـ، وهي ثياب صوف فيها تنمير، **والعباء** ـ بالمد وبفتح العين، جمع عباءة وعباية لغتان، وقوله «**مجتابي النمار**» أي: خرقوها وقوروا وسطها. شرح النووي على «صحيح مسلم» (٧/ ١٠٢).

○ قوله: «**والأفضل في السَّفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرفقة، وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة**» يعني: في وقت السفر الأفضل أن تساعد رفقتك وإخوانك، وتعينهم، فلا تُخدَم بل تَخدِم أنت وتُساعِد، فتقوم تخدم فتنصب الخيمة إذا كان هناك خيمة، وتأتي بالماء، وتأتي بالطعام، وتساعدهم في إنزال الماء والوقود، وهكذا، فهذا أفضل من كونك تخلو بربك وتصلي، فإن بعض الناس إذا نزل وهو مسافر ذهب في مكان يصلي وتركهم، فإذا جاء وقت الطعام قالوا: «تعال يا فلان، القهوة» ويخدمونه، فالذين خَدِموا على الجادة؛ في «الصحيحين»[1] عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرُنَا ظِلًّا الَّذِي يَسْتَظِلُّ بِكِسَائِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَامُوا فَلَمْ يَعْمَلُوا شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِينَ أَفْطَرُوا فَبَعَثُوا الرِّكَابَ[2] وَامْتَهَنُوا وَعَالَجُوا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ**».

إذًا الأفضل في وقت السفر: المساعدة وإعانة الرفقة، وتقديم ذلك على العبادة القاصرة، فإن هذا وقت النفع، أما وقت الصلاة فهو وقت آخر، فكونك تنفرِد وتصلي أو تقرأ القرآن وتترك رفقتك يعملون ويخدمونك هذا خلاف الأفضل والأولى، بل الأفضل خدمتهم ومساعدتهم وإعانتهم، وذلك مُقدَّم على قراءة القرآن وصلاة النافلة.

○ قوله: «**والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعيَّة القلب،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «فضل الخدمة في الغزو»، رقم (٢٨٩٠)، ومسلم، كتاب الصيام، رقم (١١١٩).

(٢) أي: أثاروا الإبل لخدمتها وسقيها وعلفها، وفي رواية مسلم: «**فضربوا الأخبية وسقوا الركاب**». «فتح الباري» (٦/ ٨٤).

والهمَّة على تدبُّرِه، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعيَّة قلب من جاءه كتابٌ من السُّلطان على ذلك» يعني: في الوقت الذي تقرأ فيه القرآن الأفضل أن تحضر ذهنك حتى تتدبَّرَ، ومعلوم أن الشيطان يجلب على الإنسان بخيله ورَجْلِهِ، فإذا دخل الإنسان في الصلاة أقبل عليه الشيطان، وإذا بدأ يقرأ القرآن أقبل وجاءت الهواجس والخواطر الرديئة من هنا وهناك، لكن عليك أن تجاهد وتدافع وتغالب نفسك، فلا تسترسل مع هذه الخواطر في وقت الصلاة بل تُدافع هذه الخواطر حتى يحضر قلبك، فتعلم أنك واقف بين يدي الله، وفي وقت قراءة القرآن كذلك تستحضر عظمة الله وأنك تقرأ كلام الله، وتحاول أن تجمع قلبك، وتهتم بالتَّدبُّر، وتعزم على تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، هذا الكتاب كتاب من الله ﷻ، وهو أعظم وأفضل وخير كتاب، كتابٌ من ربنا ﷻ، يُخبرنا أننا إذا تدبَّرنا هذا القرآن وعملنا به حصلنا على السعادة الدنيوية والأخروية، فكيف نقرأه بقلوب غافلة؟!، نقرأه بحروف نلوكها بألسنتنا فلا نتدبَّر المعاني، يفكر الإنسان ويبيع ويشتري وهو يقرأ، ويصلي وهو يبيع ويشتري ويذهب ذهابًا وإيابًا فإذا انتهت الصلاة لا يعقل شيئًا، أو يقرأ ثمن أو ثمنين أو سورة أو سورتين ولا يعقل شيئًا منها، الشيطان يُريد أن يُضيِّعَ علينا هذه العبادة، فالذي ينبغي على المسلم أن يُجاهِد ليغلب هذه الوساوس، ولا يسترسل معها، وأن يجمع قلبه وهمته على تدبُّر القرآن وتنفيذ أوامره أعظم من جمعيَّة قلب من جاءه كتاب من السلطان، فلو جاءك كتاب من السلطان أو المَلِك أو الأمير أو الوزير ستقرَؤُه وتُفسِّروه وتُحلِّلُهُ، وتقول: «هذا الكتاب له مضامين كذا»، و«المقصود من الجملة كذا، وتفسيرها كذا» وهو كتاب من بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فكيف

نجمع همتنا على الخطاب الذي يأتي من البشر من الوزير أو المَلِك أو الأمير أو رئيس الجمهورية أو الُمدِير أو الرئيس ونتدبَّره ونتأمَّله ونُحلِّلُه وننظر أبعاده ونُنفِّذه وكتاب ربنا بين أيدينا لا نَعِرُهُ اهتمامًا ولا نهتم به ولا نجمع قلوبنا عليه؟!، بل يجب جمعية القلب على الله عند قراءة القرآن أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان.

وفي وقت طلب العلم الأفضل أن تُفرِغ نفسك في طلبه، فمثلا لو عُقِدت دورة علمية أو محاضرة فالأفضل في هذا الوقت أن تُقبِل عليها، ولا تنشغل بقراءة القرآن أثناء الدرس؛ فقراءة القرآن لها وقت آخر والمحاضرة والدورة تفوت، وقراءة القرآن وقتها مُوسَّع، وكذلك في وقت قراءة حديث الرسول ﷺ وشرحه فإنك تُقبِل على الحديث؛ لأن هذا وقت مخصص لهذا ويفوت.

○ قوله: «**والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التَّضرُّع والدُّعاء والذكر**» الأفضل في عشيَّة عرفة للحاج الاجتهاد في التَّضرُّع والدُّعاء والذكر، زاد في «مدارج السالكين»[(١)] : «دون الصوم المُضْعِف عن ذلك»، فالأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التَّضرُّع والدُّعاء والذكر دون الصوم المُضْعِف عن ذلك؛ لأن الوظيفة في عشيَّة عرفة الاجتهاد في التضرع إلى الله وحضور القلب والدعاء والذكر، لكن لو شخص قال: «أنا سأصوم يوم عرفة»، نقول له: «لا؛ فليست الوظيفة الصوم، فالصوم منهي عنه»، في «الصحيحين»[(٢)] عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ ﵂ أَنَّ نَاسًا تَمَارَوْا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب «صوم يوم عرفة»، رقم (١٩٨٨)، ومسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٢٣).

عِنْدَهَا يَوْمَ عَرَفَةَ فِي صَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: «هُوَ صَائِمٌ»، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «لَيْسَ بِصَائِمٍ»، **فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِقَدَحِ لَبَنٍ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَعِيرِهِ فَشَرِبَهُ**، لكن غير الحاج يُشرع له الصيام، وهو يكفر ذنوب سنتين[1] إذا تقبَّل الله منه وترك الكبائر، لكن في عرفة ليس مشروعًا أن تصوم، بل الصوم مكروه[2]، والمشروع أن تُفطِر حتى تتقوَّى على التضرع والدعاء والذكر دون الأعمال الأخرى، لو قال أحد: «أنا سأذهب أنفع الناس وأشفع لهم وأطعم الجائع وأعمل كذا»، نقول له: «لا، فهذا الوقت خصص للذكر والدعاء».

فالأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التَّضرع والدعاء والذكر دون الصوم المُضْعِف عن ذلك.

○ قوله: «**والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التَّعبُّد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد**» يشير إلى حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ - يَعْنِي: أَيَّامَ الْعَشْرِ -**»، قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟»، قَالَ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»[3] وفي الحديث: الحثُّ على الإكثار من التسبيح والتحميد والتهليل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٦٢) عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) **قال ابن قدامة: «أكثر أهل العلم** يستحبون الفطر يوم عرفة بعرفة». «المغني» (٣/ ٥٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «فضل العمل في أيام التشريق»، رقم (٩٦٩)، وأبو داود، كتاب الصوم، باب «في صوم العشر»، رقم (٢٤٣٨) - واللفظ له -، والترمذي، كتاب الصوم، باب «ما جاء في العمل في أيام العشر»، رقم (٧٥٧)، وابن ماجه، كتاب الصيام، باب «صيام العشر»، رقم (١٧٢٧)، وأحمد (١/ ٢٢٤).

والتكبير، إذًا في أيام عشر ذي الحجة الأفضل التعبد والإكثار من التكبير والتهليل والتحميد.

○ قوله: «**وهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن**» يعني: الجهاد الواجب المُتعيِّن، الفرض، فإذا كان جهاد فرض فهذا مُقدَّم، كما في الأحوال الثلاثة التي ذكرناها ـ إذا داهم العدو بلدًا من بلاد المسلمين صار فرض عين، وإذا استنفر الإمام أحدًا صار فرض عين أيضًا، وإذا وقف في الصف صار فرض عين ـ فالتعبد في العشر الأُول من ذي الحجة، والإكثار من التكبير والتهليل والتحميد، أفضل من الجهاد المُتعيِّن؛ لأن هذه وظيفته في هذه الأيام.

وصيغ التهليل والتحميد والتكبير في أيام عشر ذي الحجة: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا»، «الله أكبر الله أكبر» مرتين أو ثلاثة، «لا إله إلا الله»، «الله أكبر الله أكبر ولله الحمد»، يكرر «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا»، وهكذا، «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، «اللهم صلي على محمد»، «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، «لا الله إلا الله وحده لا شريك، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، «سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

والسنة التكبير في كل مكان، في المساجد والأسواق والمدارس والمتاجر، وكان **ابن عمر وأبو هريرة** رضي الله عنهما يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[1].

---

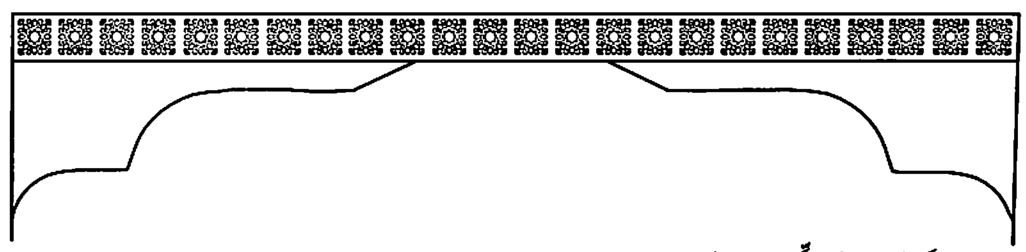
(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١/ ٣٢٩) مُعلَّقًا بصيغة الجزم. =

○ قوله: «**والأفضل في العشر الأواخر من رمضان: لزوم المساجد، والخلوة فيها، مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة الناس، والاشتغال بهم حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء**» يعني: في العشر الأواخر من رمضان تتفرغ للخلوة بربك ﷻ والاعتكاف، هذا أفضل شيء، فتعتكف في العشر الأواخر؛ اقتداءً بالنبي ﷺ[١]، وتُعرض عن مخالطة الناس، وتُقبِل على قراءة القرآن، وتعلم العلم وتعليمه، ولو تركت التعلم والتعليم في هذه العشر؛ فهي مخصصة بالعبادة، فوقتها ووظيفتها الخلوة بالله ﷻ، والاعتكاف، وقراءة القرآن، والإعراض عن الناس.



= **قال ابن حجر**: «لم أره موصولًا عنهما، وقد ذكره البيهقي أيضًا مُعلَّقًا عنهما، وكذا البغوي». «فتح الباري» (٢/٤٥٨)

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب «الاعتكاف في العشر الأواخر»، رقم (٢٠٢٥)، ومسلم، كتاب الاعتكاف، رقم (١١٧١) من حديث ابن عمر ﷺ.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيَّتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم، والمؤمن الذي يُخالِط الناس ويصبر على أذاهم وإيذائهم أفضل من المؤمن الذي لا يُخالِط الناس ولا يصبر على أذاهم.

وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشَّرِّ أفضل من خلطتهم فيه، فإن عَلِمَ أنه إذا خالطهم أزاله وقلَّله فخلطتهم خير من اعتزالهم».

الشَّرْح

○ قوله: «**والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيَّتك**» الأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أن تعوده، والأفضل في وقت موته أن تُشيِّع جنازته، وتُقدِّم ذلك على خلوتك وجمعيتك، يعني: إذا كان الإنسان يخلو بربه أو له قراءة خاصة أو أذكار خاصة يُقدِّم تشييع الجنازة وزيارة المريض.

○ قوله: «**والأفضل في وقت نزول النوازل وأذى الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم**» فإذا نزل بك نازلة أو مصيبة من

فقر أو مرض أو فقد محبوب فإن الواجب الصبر، والصبر: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التَّشكي، وحبس الجوارح عما يُغضِب الله[(١)].

○ قوله: «**والمؤمن الذي يُخالِط الناس ويصبر على أذاهم وإيذائهم أفضل من المؤمن الذي لا يُخالِط الناس ولا يصبر على أذاهم**» والأنبياء يُخالِطون الناس ويصبرون على أذاهم، كذلك العلماء والدُّعاة.

○ قوله: «**وخلطتهم في الخير أفضل من عزلتهم فيه**» إذا كان يُخالطهم في خير ويُؤثِّر عليهم ويفيدهم أفضل من كونه يعتزلهم، «**وعزلتهم في الشَّرِّ أفضل من خلطتهم فيه**» إذا نُزِعَ الخير وصار الإنسان لا يجد محلًّا للخير فهذا يعتزل الناس، في «صحيح البخاري»[(٢)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِن الْفِتَنِ**»، **قالَ العلماء**: هذا الحديث يأتي العمل به إذا نُزِعَ الخير من المدن والقرى، ولم يكن فيه جُمعة ولا جماعة، ولا تعلم ولا تعليم، ولا أحد يقبل النصح، هنا يكون الاعتزال عن الناس أفضل، فيذهب الإنسان للبرِّية، ويتخذ غنمًا ويعتزل الناس؛ لأن المدن والقرى نُزِعَ فيها الخير، ليس هناك أذان ولا صلاة ولا جمعة ولا جماعة ولا تعلم ولا تعليم، ففي هذا الوقت العمل بهذا الحديث «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» لابن القيم (ص ٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «من الدين الفرار من الفتن»، رقم (١٩).

يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِن الْفِتَنِ»، وحينئذ تكون الخلطة مع الوحوش أولى من الخلطة مع الناس، ويأتي العمل بقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوَّت إنسان فكدت أطير[1]

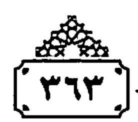
لأن الشرور والفتن تكون في خلطة الناس، أما إذا كان المدن فيها جمعة وجماعة وأذان وصلاة وتعلم وتعليم وفيها أهل الخير ومَنْ يقبله فلا ينبغي للإنسان أن يذهب إلى البرِّية، فالتعرُّب في البادية من كبائر الذنوب[2]؛ لأنه حينئذ يبتعد عن سماع الذكر وصلاة الجمعة والجماعة ويكون عنده جفاء.

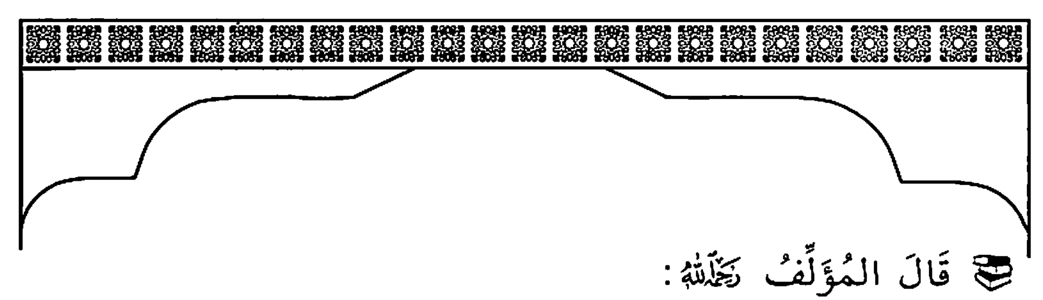
○ قوله: «**فإن عَلِمَ أنه إذا خالطهم أزاله وقلَّله فخلطتهم خير من اعتزالهم**» فإذا عَلِمَ أنه إذا خالط الناس يخفُّ الشَّرُّ ويقلُّ ويُؤثِّر في الناس فيُخالطهم، وإذا عَلِمَ أن الشَّرَّ يزيد ويبقى على حاله فلا يُخالطهم.



(١) «غريب الحديث» للحربي (٣/ ٩٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ١٠٣) رقم (٥٦٣٦) من حديث سهل ابن أبي حثمة ﷺ.
قال ابن كثير: «وفي إسناده نظر، ورفعه غلط فاحش». «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٥).
وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه: ابن لهيعة». «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٣).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وهؤلاء هم أهل التَّعبُّد المطلق، والأصناف التي قبلهم أهل التَّعبُّد المُقيَّد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته، فهو يعبد الله تعالى على وجه واحد، وصاحب التَّعبُّد المطلق ليس له غرض في تعبُّدٍ بعينه يُؤثِره على غيره، بل غرضه تتبُّع مرضاة الله تعالى، إن رأيت العلماء رأيته معهم، وكذلك في الذَّاكرين، والمتصدِّقين، وأرباب الجمعيَّة، وعكوف القلب على الله، فهذا هو الغذاء الجامع للسَّائر إلى الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق».

الشَّرْح

○ قوله: «**وهؤلاء هم أهل التَّعبُّد المطلق**» هؤلاء الذين يقولون إن أفضل العبادات العمل على مرضاة الرَّبِّ سبحانه، واشتغال كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، «**والأصناف التي قبلهم**» يعني: الذي يقول أفضل العبادة أصعبها «**أهل التَّعبُّد المُقيَّد**» هؤلاء عبادتهم مُقيَّدة بالعبادة الصعبة، وهؤلاء عبادتهم مُقيَّدة بالزهد في الدنيا، وهؤلاء عبادتهم مُقيَّدة بالنفع المتعدِّي، لكن هؤلاء الذين يقولون كل وقت له وظيفة وعبادة نُؤدِّيها هم أهل التَّعبُّد المطلق.

○ قوله: «**فمتى خرج أحدهم عن الفرع**» في «مدارج السالكين»[1]

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٩).

«عن النوع» بدل «عن الفرع» «**الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته**» مثلًا إذا كان الذي يرى أن أفضل العبادات العبادة الصعبة، فإذا فارق العبادة الصعبة يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته، «**فهو يعبد الله تعالى على وجه واحد، وصاحب التَّعبُّد المطلق ليس له غرض في تعبُّدٍ بعينه يُؤْثِره على غيره، بل غرضه تتبُّع مرضاة الله تعالى**» في «مدارج السالكين»[١]: «بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت»، وبهذا يتبيَّن أن **أهل الصنف الرابع** قولهم هو **الصواب**، أن أفضل العبادات أن تُؤدَّى كل عبادة في الوقت الذي شرعها الله فيه، فتُؤدَّى العبادات كل وقت بالوظيفة التي وَظَّفَها الله فيه، فصاحب التَّعبُّد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يُؤْثِره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت.

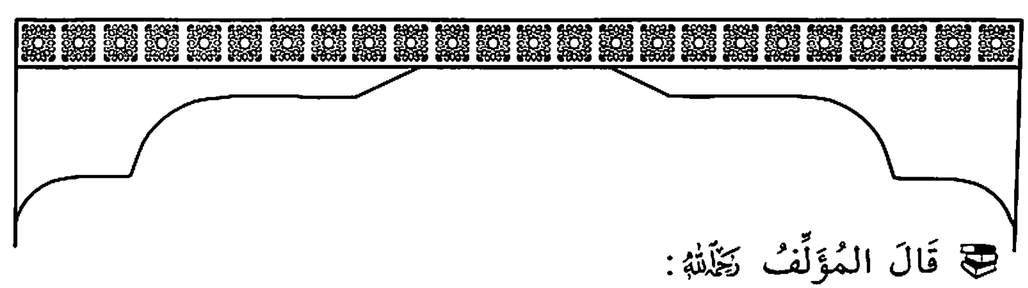
○ قوله: «**إن رأيت العلماء رأيته معهم، وكذلك في الذَّاكرين، والمتصدِّقين، وأرباب الجمعيَّة، وعكوف القلب على الله**» فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وكذلك في الذاكرين تجده معهم، وفي المتصدِّقين تجده معهم، وأرباب الجمعيَّة وعكوف القلب على الله تجده معهم، هذا يعبد الله بجميع أنواع العبادات، «**فهذا هو الغذاء الجامع للسَّائر إلى الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق**» فالمؤمن سائر إلى الله ووافد عليه يوم القيامة، فهذا هو الغذاء الجامع للسائر إلى الله في كل طريق والوافد عليه مع كل فريق.

في «مدارج السالكين»[٢] اختلاف، **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ: «فإن

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٩).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٩٠).

رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العُبَّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدِّقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعيَّة وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ولم تُقيِّده القيود»، لكن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تصرف فيه.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«واستحضر ههنا حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وقول النبي ﷺ بحضوره: «هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «هل منكم أحد أصبح اليوم صائمًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «هل منكم أحد عاد اليوم مريضًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال ﷺ: «هل منكم أحد اتبع اليوم جنازةً؟»، قال أبو بكر: «أنا»... الحديث.

هذا الحديث رُوِي من طريق عبد الغني بن أبي عقيل، حدَّثنا نعيم بن سالم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في جماعة من أصحابه، فقال: «من صام اليوم؟»، فقال أبو بكر: «أنا»، قال: «من تصدَّق اليوم؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «من عاد اليوم مريضًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «من شهد اليوم جنازة؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «وجبت لك»، يعني: الجنة.

ونعيم بن سالم وإن تُكلِّم فيه لكن تابعه سلمة بن وردان، وله أصل صحيح من حديث مالك، عن محمد بن شهاب، عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نُودِي في الجنة: «يا عبد الله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة نُودِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نُودِي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الرَّيَّان»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، ما على من يُدعَى من

هذه الأبواب من ضرورة، فهل يُدعَى أحدٌ من هذه الأبواب كلها؟»، قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

هكذا رواه عن مالك موصولًا مسندًا عن يحيى بن يحيى ومعن ابن عيسى وعبد الله بن المبارك، ورواه يحيى بن بكير وعبد الله بن يوسف، عن مالك، عن ابن شهاب، عن حميد مرسلًا، وليس هو عند القعنبي مرسلًا ولا مسندًا.

ومعنى قوله «من أنفق زوجين» يعني: شيئين من نوع واحد، نحو: درهمين، أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين، وكذلك من صلَّى ركعتين، أو مشى في سبيل الله تعالى خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك، وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أقل التكرار وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البرِّ؛ لأن الاثنين أقل الجمع، فهذا كالغيث أين وقع نفع، صَحِبَ الله بلا خلق، وصَحِبَ الخلق بلا نفس، إذا كان مع الله عزل الخلائق مع البين، وتخلَّى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط، وتخلَّى عنها فما أغربه بين النَّاس؟، وما أشدُّ وحشته منهم، وما أعظم أُنسِه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه».

الشَّرْح

○ قوله: «واستحضر ههنا حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه» يعني: هذا كله تأييد لأَنْ يعمل المسلم في كل وقت، لا يأخذ نوعًا واحدًا من العبادة، بل يُؤدِّي أنواعًا من العبادة، جهادٍ، وذكر، وصدقة، وإحسان، وهكذا.

○ قوله: «واستحضر ههنا حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه» يعني: استحضر دليلًا لأهل التَّعبُّد المطلق، استحضر لهم دليلًا «حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وقول النبي ﷺ بحضوره» يعني: النبي ﷺ قال

يوماً لأصحابه ومعهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «**«هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «هل منكم أحد أصبح اليوم صائمًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «هل منكم أحد عاد اليوم مريضًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال ﷺ: «هل منكم أحد اتبع اليوم جنازةً؟»، قال أبو بكر: «أنا»... الحديث»**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» وهذا الحديث رواه الإمام مسلم في «صحيحه»[1] يعني: إذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة في شخص دخل الجنة، وهذا يدل على أن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه سبَّاق بالخيرات، كل عبادة يضرب فيها بنصيب، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَنَا»، قَالَ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَنَا»، قَالَ: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَنَا»، قَالَ: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَنَا»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، يعني: مع الإيمان بالله ورسوله، فهذه من أسباب دخول الجنة إذا اجتمعن في يوم في شخص وكان مؤمن بالله ورسوله، ويشهد لله بالوحدانية، ونبيه بالرسالة، وليس من عمله شرك فهذا من أسباب دخول الجنة، وكذلك أيضًا يُشترط أن لا يكون مُصِرًّا على كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن النصوص تُضمُّ بعضها إلى بعض.

وهذا الحديث أخرجه مسلم في «صحيحه»، لكن المؤلف رحمه الله لم يبلغه أن الحديث أخرجه مسلم، فغفل رحمه الله عن رواية مسلم واشتغل بالكلام على الحديث وتقويته، ولو وقف رحمه الله على رواية

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مسلم لاستغنى عن الطرق الواهية التي ذكرها، لأن الحديث في «صحيح مسلم»، و«صحيح مسلم» تجاوز القنطرة.

فائدة:

يمكن أن يكون أبوبكر رضي الله عنه قام بهذه الأعمال أول النهار؛ إذ كانت المدينة ليست واسعة، والبيوت متلاصقة، فمقبرة البقيع قريبة؛ كما في صحيح مسلم من حديث عن أبي سعيد الخدري، قال: «لقد كانت صلاة الظهر تقام فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته. ثم يتوضأ. ثم يأتي ورسول الله ﷺ في الركعة الأولى مما يطولها»[1] فيمكن زيارة المريض واتباع الجنازة، والصدقة؛ لتقارب البيوت، مع ما كان من الهمة العالية عند أبي بكر رضي الله عنه فهو السباق إلى الخيرات، ويستفاد من سؤال النبي ﷺ الترغيب في هذه الأعمال الخيرية في يوم واحد وأنه من أسباب دخول الجنة، مع فعل الواجبات وترك الكبائر؛ جمعا بين هذا الحديث وغيره من النصوص.

قال رحمه الله: **«هذا الحديث رُوِي من طريق عبد الغني بن أبي عقيل، حدَّثنا يغنم بن سالم[2]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في جماعة من أصحابه، فقال: «من صام**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **قال ابن حجر**: «نعيم بن سالم، عن أنس، وعنه عمرو بن خليفة، **قال ابن القطان**: «لا يعرف»، **قلت**: تصحَّف عليه اسمه، وإلا فهو معروف مشهور الضعف، متروك الحديث، وأول اسمه ياء مثناة من تحت، ثم غين معجمة، ثم نون». «لسان الميزان» (٦/ ١٦٩).

هكذا **قال الحافظ** أن الصواب أنه «يغنم» وأن «نعيم» تصحيف.

وقال في ترجمة «يغنم بن سالم بن قنبر»: «وقد صَحَّفَه بعض الرواة فقال «نعيم» بالنون والمهملة مصغرًا، **والصواب** الأول». «لسان الميزان» (٦/ ٣١٥).

اليوم؟»، فقال أبو بكر: «أنا»، قال: «من تصدَّق اليوم؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «من عاد اليوم مريضًا؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «من شهد اليوم جنازة؟»، قال أبو بكر: «أنا»، قال: «وجبت لك»، يعني: الجنة» هذا الطريق أخرجه ابن عبدالبر في «التمهيد»[1]، وهذا الإسناد متروك، **قال الإمام ابن حبان: «يغنم بن سالم بن قنبر** شيخ يضع الحديث على أنس بن مالك»[2]وقال ابن يونس: «حَدَّثَ عن أنس فكذب»[3]، وجزم بضعفه **أبو حاتم**[4] **وجماعة**[5]، **فالحديث في سنده متروك فلا يصح.**

○ قوله: **«ويغنم بن سالم وإن تُكلِّم فيه لكن تابعه سلمة بن وردان»** ويُجاب عنه: بأن الكلام في يغنم بن سالم عظيمًا وليس يسيرًا، **قال ابن حبان** عنه «يضع الحديث على أنس بن مالك» فلا تُفيده المتابعة، فحديث في سنده متروك لا تُفيده المتابعة، و«**سلمة بن وردان**» فيه كلام أيضًا[6] فلا تُغِني متابعته، **ويغنم** متروك فلا تُفيد متابعته أيضًا.

ومتابعة **سلمة بن وردان** جاءت في «مسند أحمد»[7]، وجعل

---

(١) «التمهيد» (٧/ ١٩٣).

(٢) «المجروحين» (٣/ ١٤٥).

(٣) «ميزان الاعتدال» للذهبي (٧/ ٢٨٨).

(٤) **قال**: «هو مجهول ضعيف». «الجرح والتعديل» (٩/ ٣١٤).

(٥) انظر: «ضعفاء العقيلي» (٤/ ٤٦٦)، و«الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي (٧/ ٢٨٤).

(٦) **قال أحمد بن حنبل**: «منكر الحديث، ضعيف الحديث»، **وقال يحيى بن معين**: «ليس بشيء»، وسئل **أبو حاتم** عنه فقال: «ليس بقوي، تدبرت حديثه فوجدت عامتها منكرة». «الجرح والتعديل» (٤/ ١٧٤).

(٧) «مسند أحمد» (٣/ ١١٨).

القائل «أنا» عُمَرَ ولم يجعله أبا بكر، وفي «صحيح مسلم» أبو بكر، **وسلمة بن وردان** لا يُحتج بخبره إذا انفرد فكيف إذا خالف؟!، وبهذا تعلمون أن هذا الطريق الذي ذكره **المؤلف** رحمه الله غير ثابت ولا صحيح، والحديث في «صحيح مسلم» لو اطلع عليه **المؤلف** رحمه الله لأغناه عن الكلام في هذا.

○ قوله: **«وله أصل صحيح من حديث مالك، عن محمد بن شهاب، عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نُودِي في الجنة: «يا عبد الله، هذا خير»، فمن كان من أهل الصلاة نُودِي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد نُودِي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الرَّيَّان، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، ما على من يُدعَى من هذه الأبواب من ضرورة، فهل يُدعَى أحدٌ من هذه الأبواب كلها؟»، قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»»** الحديث هذا صحيح، أخرجه الشيخان البخاري ومسلم[1].

وفيه: **«مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ»** يعني: شيئين، أي: صنف من أصناف المال من نوع واحد كأن يُنفق درهمين، أو دينارين، أو رغيفين، أو شاتين، أو أشبه ذلك، **«فِي سَبِيلِ اللهِ» قيل**: المراد: الجهاد في سبيل الله، **وقيل**: المراد ما هو أعم منه[2]، أي: في طلب ثواب الله ومرضاته، وهذا هو **الأقرب**[3].

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب «الريان للصائمين»، رقم (١٨٩٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٢٧).
(٢) «فتح الباري» (٤/ ١١٢).
(٣) «فتح الباري» (٧/ ٢٨).

○ قوله: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ» يعني: في طلب ثواب الله ومرضاته «نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ» فيُدعى لدخول الجنة، هذا فيه فضل النفقة وأن الإنسان إذا أنفق شيئين من أي صنف من نوعٍ واحد فإن له هذا الأجر، «نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: «يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ»، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ» كل أحد يُدعى، المتميز في الصيام يُدعى من باب الصيام، والمتميز في الصدقة يُدعى من باب الصدقة، والمتميز في الصلاة يُدعى من باب الصلاة، «فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟» لكن هل هناك شخص يُدعى من جميع الأبواب الثمانية؟، «قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»، وهذا رجاء النبي ﷺ المُتحقِّق، فأبو بكر رضي الله عنه يُدعى من أبواب الجنة الثمانية كلها؛ لأنه سبَّاق إلى الخيرات، فهو من أهل الصلاة والصيام والصدقة والجهاد، سبَّاق إلى الخيرات يُنادى فيُفتح له باب الصدقة، يُنادى فيُفتح له باب الصلاة، يُنادى فيُفتح له جميع الأبواب، رضي الله عنه وأرضاه.

في الحديث: دليل على تعدُّد أبواب الجنة، وهي ثمانية، في «الصحيحين»[1] عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ**»، وأبواب النار سبعة كما قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب «صفة أبواب الجنة»، رقم (٣٢٥٧)، ومسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٥٢).

لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ [الحجر: ٤٤]، وأبواب الجنة ثمانية، وسعة الباب كما بين مكة والشام؛ في «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**».

وفي الحديث: دليل على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه سبَّاق بالخيرات، وأنه يُدعى من أبواب الجنة كلها.

وفيه: الردُّ على **الرافضة** الذين يسبُّون أبا بكر رضي الله عنه ويشتمونه ويلعنونه ـ قبَّحهم الله ـ.

وفيه: الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الإنسان يحصل له ما قدَّره الله له، فإن الله تعالى قدر لأبي بكر رضي الله عنه هذا الخير.

وفيه: أن الأعمال داخلة في مُسمَّى الإيمان، مجرد التصديق لا يكفي كما تقوله **المرجئة**(١)، بل لا بُدَّ من الأعمال.

وفيه: الردُّ على **القدريَّة** الذين يقولون العبد يخلق فعل نفسه(٢)؛ ففيه أن الله تعالى هو خالق الإنسان وأفعاله.

وفيه: الردُّ على **الجبرية** الذين يقولون العبد مجبور، ولا يعمل باختياره(٣).

○ قوله: «**هكذا رواه عن مالك موصولًا مسندًا عن يحيى بن يحيى ومعن بن عيسى وعبد الله بن المبارك، ورواه يحيى بن بكير وعبد الله بن يوسف، عن مالك، عن ابن شهاب، عن حميد مرسلًا،**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ١١١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٣٥).

وليس هو عند القعنبي مرسلًا ولا مسندًا» هذا الكلام منقول من «التمهيد»[(١)] لابن عبد البر بشيء من التصرف، **وقال الحافظ ابن حجر** مُعقِّبًا على كلام ابن عبدالبر: «هذا أخرجه الدارقطني في «الموطآت» من طريق يحيى بن بكير موصولًا، فلعله اختلف عليه فيه، وأخرجه أيضًا من طريق القعنبي فلعله حَدَّثَ به خارج «الموطإ»»[(٢)]، والخبر ثابت محفوظ من حديث مالك رواه البخاري وغيره، وقد ثبت من حديث غيره.

○ قوله: «**ومعنى قوله «من أنفق زوجين» يعني: شيئين من نوع واحد، نحو: درهمين، أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين، وكذلك من صلَّى ركعتين، أو مشى في سبيل الله تعالى خطوتين، أو صام يومين، ونحو ذلك**» هذا تفسير لقوله «**من أنفق زوجين**».

○ قوله: «**من أنفق زوجين**» قلنا: يعني: شيئين من نوع واحد نحو درهمين، أنفق درهمين هذا شيء من نوع واحد، أو دينارين هذا شيء من نوع واحد، أو فرسين أو قميصين هذا صحيح، لكن قوله «**وكذلك من صلَّى ركعتين، أو مشى في سبيل الله تعالى خطوتين، أو صام يومين**» ونحن نناقش المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه.

نقول: قياس الصلاة والجهاد والصيام على النفقة فيه نظر؛ لأن الصلاة لا تصلى إلا ركعتين ما عدا الوتر، فلا يُتطوع بركعة واحدة في غير الوتر، وكذلك من مشى خطوتين في سبيل الله ولم يصل إلى الغاية لم يحصل المطلوب وهو الجهاد وإن كان يُؤجر على مشيه في سبيل الله، وكذلك من مشى إلى الصلاة خطوتين، وكذلك الصيام لا

---

(١) «التمهيد» (٧/ ١٨٤).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ١١٢).

يُشرع أن يصوم يومين متتابعين بقصد أن ينفق زوجين؛ لأن الصيام والمشي لا يُسمَّى إنفاقًا، ولو كان هذا مشروعًا لفعله الصحابة.

إذًا قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ «**ومعنى قوله «من أنفق زوجين» يعني: شيئين من نوع واحد، نحو: درهمين، أو دينارين، أو فرسين، أو قميصين**» هذا مُسلَّم صحيح، أما قوله «**وكذلك من صلَّى ركعتين، أو مشى في سبيل الله تعالى خطوتين، أو صام يومين**» هذا ليس بصحيح؛ لأن الصلاة والمشي والصيام لا يُسمَّى إنفاقًا.

○ قوله: «**وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أقل التكرار**» وأقل التكرار اثنين «**وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البرِّ؛ لأن الاثنين أقل الجمع**» الاثنين أقل الجمع هذا من حيث الشرع واللغة، لكن ليس المراد من الحديث الجمع، قال ﷺ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ**» ما أراد الجمع، فليس المراد من الحديث أقل الجمع.

○ قوله: «**فهذا**» يعني: المتصف بالأوصاف المُتقدِّمة، الذي يعمل الأعمال الخيرية من صلاة وصيام وجهاد وصدقة مع الإخلاص والمتابعة «**كالغيث**» كالمطر «**أين وقع نفع**» فهو يدور مع أعمال الخير حيث وجدت، كالغيث في نفعه، وإلى هنا منقول من «مدارج السالكين»[١] لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

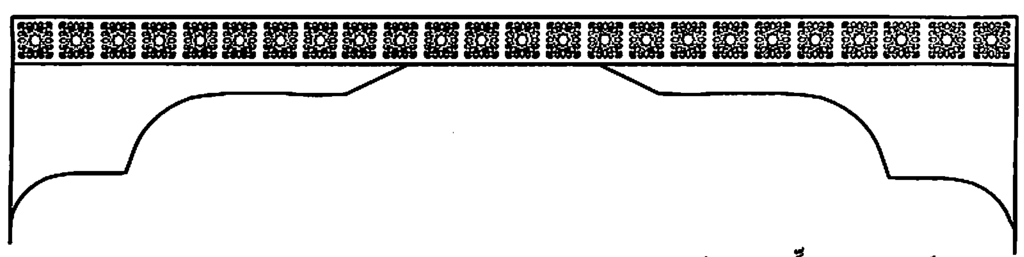
○ قوله: «**صَحِبَ الله بلا خلق**» وهذه منزلة الإحسان، وهي أعظم منازل العبودية حيث يقوم بالعبودية عن معرفة وانقطاع عن الخلق، وتعلق بربِّ العالمين، «**وصَحِبَ الخلق بلا نفس**»؛ لأن النفس مُعلَّقة بالله تعالى فأخرج نفسه، وآثر الخلق على نفسه في

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٠).

نفعهم وقضاء حوائجهم «إذا كان مع الله عزل الخلائق مع البين، وتخلَّى عنهم» في نسخة «من البين»، وفي «مدارج السالكين»[1] : «عن البين»، والبين هي النفس، فهو بنفسه يخلو بربِّهِ ويتخلى عن الخلق بإخلاصه ومراقبته لربِّه، «وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلّى عنها فما أغربه بين النَّاس؟، وما أشدُّ وحشته منهم، وما أعظم أُنسِه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه؟» أي: وسط الخلق، فيعزل نفسه عنهم، ويتخلى عنهم، فيُقدِّم مصلحتهم على حظ نفسه.



(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٠).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقًا أربعة، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحِكم والتعليل الذين يردُّون الأمر إلى نفس المشيئة، وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلَّا لمجرَّد الأمر من غير أن يكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرِّد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغايةٍ ولا لعلّةٍ هي المقصودة به، ولا لحكمةٍ تعود إليه منه، وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النار سبب للإحراق، ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد، وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حُسْنُهُ، ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي قُبحُهُ، ولهذا الأصل لوازم فاسدة وفروع كثيرة.

وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذَّتها، ولا يتنعَّمون بها، ولهذا يُسمُّون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك «تكاليف»، أي: كُلِّفوا بها، ولو سَمَّى مُدَّعي محبة ملك الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا لم يعد محبًّا له، وأول من صدرت عنه هذه المقالة: الجعد بن درهم.

الصنف الثاني: القدريَّة النُّفاة الذين يُثبتون نوعًا من الحِكمة والتعليل لا يقوم بالرَّبِّ ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم أن العبادات شُرِعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره.

قالوا: ولهذا يجعلها ﷻ عِوضًا كقوله: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٩٠]، ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، وفي «الصحيح»: «إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إيَّاها».

قالوا: وقد سَمَّاها جزاءً وأجرًا وثوابًا لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه.

قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلُّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى».

الشَّرْح

○ قوله: «واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقًا أربعة، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل الذين يردُّون الأمر إلى نفس المشيئة، وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلَّا لمجرَّد الأمر من غير أن يكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرِّد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: لم يخلق لغايةٍ ولا لعلّةٍ هي المقصودة به، ولا لحكمةٍ تعود إليه منه، وليس في المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النار سبب للإحراق، ولا في الماء قوة الإغراق ولا

التبريد، وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي قُبحه».

ذكر المؤلف رحمه الله في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها أربعة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الجبرية من الجهمية والأشاعرة أن العبادات ليس لها حِكم ولا منفعة ولا فائدة ولا مقصد، لكن تُفعل امتثالًا للأمر، وإلا فليس فيها فائدة، وليست جزاءً، ولا يترتب عليها الثواب، وليس الثواب على الأعمال سببًا في دخول الجنة، بل دخول الجنة برحمة الله، والأعمال لا فائدة منها إلا امتثال الأمر فقط.

والجهمية أشد من **الأشاعرة**؛ لأن **الجهمية جبرية** خالصة، **والأشاعرة** أقل منهم في الغلو، ولهذا يُثبِتون العِلة ويسمونها أمارات وعلامات؛ فرارًا من القول من إثبات الأسماء، أما **الجهمية** فينفون ذلك[١].

الجبرية من **الجهمية والأشاعرة** نفوا الحِكم والتعليل[٢] وقالوا: ليس لله حِكمة ولا مقصود في الأوامر والنواهي، إلا امتحان العباد وابتلائهم بالامتثال فقط، لكن الأوامر والنواهي ليس فيها فائدة، وليست الأعمال الصالحة سببًا في دخول الجنة، ولا الأعمال السيئة سببًا في دخول النار، بل الفائدة من الأوامر والنواهي ترجع إلى

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/٤٩٨)، و«منهاج السنة النبوية» (٣/١٧٧).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/٤٩٨)، و«أحكام أهل الذمة» (٢/١١٢٦)، و«إعلام الموقعين» (١/٣٣٥)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (٤/١٥٥٠).

نفس مشيئة الله وصرف الإرادة فقط، فالقيام بالأوامر والنواهي ليس إلا لمجرد الأمر، وليست امتثال الأوامر والنواهي سببًا لسعادة العبد في معاشه ومعاده، ولا سببًا للنجاة، وإنما يقوم بها الإنسان لمجرد الأمر ومحض المشيئة[١].

وكذلك **قالوا** في الخلق: أن الله لم يخلق الخلق لغاية ولا لعلة هي المقصودة به ولا لحكمة تعود إليه، فأنكروا قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، **وقالوا**: إن الله لم يخلق الخلق لا لحكمة ولا لغاية تعود إليه، وليست للمخلوقات أسباب تكون مقتضية في مسبباتها، وليس في المخلوقات أسباب ولا طبائع ولا غرائز ولا علل ولا حِكم، فينفونها كلها؛ لأنه لو كانت هناك أسباب وغرائز وحِكم لكان هناك مُؤثِّر مع الله، المُؤثِّر هو الله فقط، ليس هناك أسباب ولا طبائع ولا غرائز ولا علل ولا حِكم، فلا فرق عندهم بين الخلق والأمر، فليس لله حكمة في خلقه ولا في أمره ونهيه، وليس هناك فرق بين المأمور والمنهي عنه إلا في الأمر فقط فالمشيئة اقتضت أمره، اقتضى أمر الله بالنكاح ونهيه عن الزنا، وإلا لا فرق بينهما، الزنا ليس فيه قُبح، والنكاح ليس فيه حُسن، فللّه أن يجعل الزنا واجبًا والعفة حرامًا؛ لأن ليس هناك حكمة[٢].

وقالوا: لله أن يُبطل حسنات الأبرار والأنبياء والمتقين، يُحمِّلُهم أوزار الفجار، ويُخلِّدُهم في النار ـ تعالى الله عما يقولون ـ، فليس لله حكمة في الخلق ولا الأمر والنهي ـ تعالى الله عما يقولون ـ، لكن تُفعل الأوامر امتثالًا لأمر الله، وتُترك النواهي امتثالًا لأمر

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٨٦)، «مجموع الفتاوى» (٨/ ٨٣)، (١٩/ ٢٠٦)، «الجواب الصحيح» (٢/ ٣١٣).
(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢).

الله، ولا فرق بين الأمر والنهي، أي: لا فرق بين قوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: ٤٣] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسرَاء: ٣٢] إلا في الأمر والنهي، وإلا فالزنا لا نعلم قُبحَهُ، فليس فيه قُبح ولا حُسن، فألغوا عقولهم - نسأل الله العافية -.

وقالوا: المشيئة الإلهية اقتضت أمر الله بهذا ونهيه عن هذا من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي الُحسنَ ولا بالمنهي عنه صفة تقتضي القُبح، ولهذا قال المؤلف ﷺ: «**ولهذا الأصل لوازم فاسدة وفروع كثيرة، وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذَّتها، ولا يتنعَّمون بها**»؛ لأنهم يفعلونها كأنهم مُرغمون مجبُورون، يقول على فعل الأوامر: ليس فيها فائدة، إنما تُفعل إرغامًا، أرغمنا الله على فعلها، وليست الأعمال الصالحة سببًا في دخول الجنة، ولا الأعمال السيئة سببًا في دخول النار، فإن الله يُدخل هؤلاء الجنة بدون حكمة ولا عمل، ويُدخل هؤلاء النار بدون حكمة ولا عمل، إذًا ما الفائدة من الأوامر والنواهي؟، ليس فيها فائدة، إلا نحن مجبورون على فعل الأوامر واجتناب النواهي - تعالى الله عما يقولون -، ولهذا قال المؤلف ﷺ: «**ولهذا يُسمُّون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك «تكاليف»، أي: كُلِّفوا بها**»، مُرغمين.

○ قوله: «**ولو سَمَّى مُدَّعي محبة ملك الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا لم يَعُدْ محبًّا له**» يقول المؤلف ﷺ: ولا يُسمِّي أحدهم ما يُحبُّه ملك من الملوك أو أمير من الأمراء أو مدير من المدراء أو وزير من الوزراء ما يأمر به وينهى عنه تكليفًا فإنه لا يُعدُّ مُحبًّا له، فكيف يجعلون أوامر الله تكليفًا؟!.

○ قوله: «**وأول من صدرت عنه هذه المقالة: الجعد بن درهم**»، ثم **الجهم بن صفوان**[1]، أوَّل من حُفِظَ عنه هذه المقالة هو **الجعد بن درهم**، والمقاله هي: «أن العبد مجبور على أفعاله»، فالعبد مجبور على الأوامر والنواهي، وليس فيها حكمة ولا فائدة، ثم تقلَّدها عنه **الجهم بن صفوان**، ثم تقلَّدتها **الجهمية والجبرية والأشاعرة**.

○ قوله: «**الصنف الثاني: القدريَّة النُّفاة الذين يُثبتون نوعًا من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرَّب ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم أن العبادات شُرِعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره، قالوا: ولهذا يجعلها ﷻ عِوضًا كقوله** ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل: ٩٠]، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، وفي «الصحيح»: «إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إيَّاها».

قالوا: وقد سَمَّاها جزاءً وأجرًا وثوابًا لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه.

قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلُّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى».

المذهب الثاني: القدرية النُّفاة، وهم **المعتزلة** قابلوهم، فأثبتوا نوعًا من الحِكمة ترجع إلى مصلحة المخلوق، **قالوا**: الأعمال فيها

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٦٠).

حِكمة لكنها ترجع إلى المخلوق، أما الرَّبُّ فليس له حِكمة في ذلك، فأثبتوا حِكمةً للأوامر والنواهي، لكنها تعود إلى مصلحة المخلوق فقط؛ ذلك أن الخالق ما له حكمة تقوم بذاته، وإنما تقوم بذات المخلوق(١).

وقالوا: العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، فإذا صلى هو الذي يخلق الصلاة، وإذا زنى هو الذي يخلق الزنا، إذًا يجب على الله أن يُثيبه على الطاعة؛ لأن هذا هو الذي خلق فعله فهذا فعله، ويستحق على الله الثواب والأجر كما يستحق الأجير أجرته(٢).

وقالوا: إن الله لا يُثيب الإنسان فضلًا منه وإحسانًا؛ لأنه يكون لله مِنَّة عليه وهذا تنغيص يُنغص عليه ويكدر العمل، فيقول: «لا نُرِيد المنَّة من الله» ـ نعوذ بالله ـ، يقول: «الواحد يعمل بعرق جبينه»، يقولون: نفعل الصلاة ونأخذ الثواب، ويجب عليه أن يُثيبنا، وهكذا يُوجِبون على الله الثواب، كما أنه يجب عليه أن يُعاقب العاصي ولا يعفوا عنه؛ لأن الله توعَّدَه، والله لا يخلف الميعاد، فأوجبوا على الله أن يُثيب المطيع، **قالوا**: هذا عمله وأجرته لا بُدَّ أن يأخذها كما يأخذ الأجير أجرته، فقاسوا المخلوق على الخالق، ويجب على الله أن يُعاقب العاصي، وليس له أن يعفو عنه، ولا أن يغفر له ولا أن يرحمه؛ لأنه توعده، والله لا يخلف الميعاد(٣).

وقالوا: إن العبادات شُرِعت أثمانًا، فالثواب ثمن، فإذا صليت يجب على الله أن يُسلِّمك الأجرة، والزكاة لها أجرة، والصوم له

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٩).
(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٩٠).
(٣) انظر: «المواقف» للإيجي (٣/ ٤٩٠).

أجرة، والحج له أجرة، يجب على الله أن يعطيك ثوابها، وليس لله مِنَّة ـ نعوذ بالله ـ، **قالوا**: المِنَّة لو كان يُعطيه بدون ثمن، لكن الذي يعمل هو الذي يخلق صلاته وصيامه، ويخلق فعله، ويخلق الخير والشَّرَّ، إذًا ليس لله مِنَّة عليه، ولو أعطاه ثوابًا بدون ثمن لكان فيه مِنَّة وتنغيص على المخلوق، فالأولى أن لا يعمل عملا بدون مِنَّة، **فقالوا**: العبادات شُرِعت أثمانًا وعوضًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وهي بمنزلة استيفاء الأجير أجرته.

قالوا: عندنا أدلة تدل على أن الأعمال عِوض وثمن، **قالوا**: الله تعالى جعل الجنة عِوضًا عن العمل، فقال تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]، قالوا: الباء باء العِوض، ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ عِوض عن عملِكم، إذًا الجنة ثمن عن العمل.

ومن الأدلة: قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النَّمل: ٩٠]، إذًا الجزاء بالعمل، وقوله ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾ [النحل: ٣٢]، الباء للعِوض عن عملكم، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمَر: ١٠]، إذا وُفُّوا أجرهم بالصبر وهو العمل، وفي «صحيح مسلم»[1] عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»، **قالوا**: والدليل على ذلك: أن الله تعالى سمَّاها جزاءً وأجرًا وثوابًا؛ لأنه شيء يثوب إلى العامل من

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧٧).

عمله، أي: يرجع إليه، **قالوا**: ولولا ارتباط الجزاء بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى، ولهذا قال المؤلف ﷺ: «**قالوا: وقد سَمَّاها جزاءً وأجرًا وثوابًا لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه**»، وفي «مدارج السالكين»[1] تكملة فقال: «أي: يرجع إليه منه، **قالوا**: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءًا ولا أجرًا ولا ثوابًا معنى».

المذهب الثالث: كما سيأتي وهم **الصوفية**، **قالوا**: فائدة العبادة رياضة النفوس وترويضها واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها.

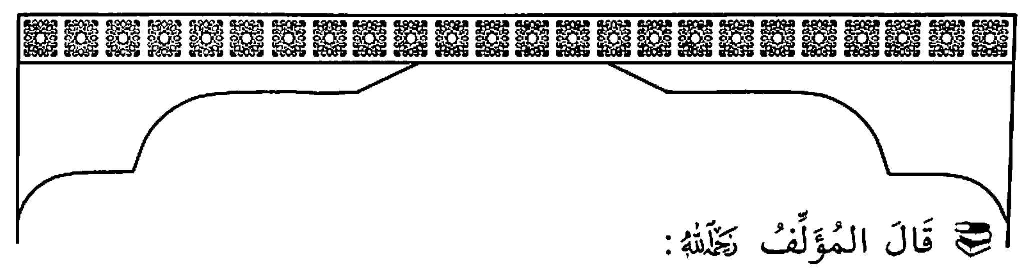
المذهب الرابع: أهل الحقِّ، وهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية، أتباع الخليلين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، العارفون بالله وحِكمته في أمره وشرعه وخلقه، فأثبتوا لله الحكمة في أوامره ونواهيه وشرعه وخلقه وقضائه وقدره، فجمعوا بين الخلق والأمر والقدر والسبب، هؤلاء هم أهل الحقِّ.



---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٣).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهاتان الطائفتان متقابلتان، فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتَّة، وجوَّزت أن يُعذِّب الله من أفنى عمره في الطاعة، ويُنعِّم من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة.

والقدرية أوجبت عليه ﷻ رعاية المصالح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضُّله ﷻ على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، وأن إعطاءه ما يعطيه أجرةً على عمله أحب إلى العبد من أن يُعطِيَه فضلًا منه بلا عمل، فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتَّة».

الشَّرْح

○ قوله: «**وهاتان الطائفتان متقابلتان**» في «المدارج»[1] زيادة: «أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين».

○ قوله: «**فالجبريَّة**» وهم **الجهمية**، وكلاهما يُسمَّى **قدرية**، هؤلاء يُسمَّون **قدرية جبرية**، وهذه **قدرية النُّفاة**، **فالجبرية** يُسمَّون **القدرية المُجبِرة**، **والمعتزلة** يُسمَّون **القدرية النُّفاة**.

يقول القدرية المُجبِرة: العبد مجبور على أفعاله، **ويقولون**: إن

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٣).

العباد ليس لهم أفعال، فحركات العباد كحركات المرتعش والنائم وهبوب الرياح[(١)].

وقالوا: إنه ليس له العمل، الله هو الذي يعمل، فهو المصلي والصائم، والعبد وعاء للعمل تجري على أعضائه، فالعبد مجبر ليس له اختيار، **وقالوا**: العبد مثل الكوب يُصبُّ فيها الماء، والله كصباب الماء فيه، فالأعمال يصبها الله فيه صبًّا يجريها على جوارحهم بغير اختيارهم، فالعبد مجبور على أفعاله كلها مجبر عليها، فالزاني مجبور على زناه، والسارق مجبور على سرقته، والمصلي مجبور على صلاته، وعلى هذا فتكون الشرائع والرُّسُل عبث، هذا المذهب فيه فساد للدين والدنيا، وفيه إبطال لأعمال الدنيا والآخرة، وهو أفسد مذهب، **والقدرية** تُقابلهم، فهما على طرفي نقيض، ولهذا قال المؤلف ﷺ: «**وهاتان الطائفتان متقابلتان**».

○ قوله: «**فالجبريَّة لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتَّة**»، فهي تقول: الأعمال ليس لها علاقة بالجزاء أبدًا، الله يُدخل أهل الجنةِ الجنةَ بدون عمل ولا ثواب بل بمحض مشيته، والأعمال نعملها لأن الإنسان مُجبر عليها ومرغم أن يفعلها إجبارًا، فالأعمال الصالحة ليست سببًا في دخول الجنة، والأعمال السيئة ليست سببًا في دخول النار، بل الله يدخل هؤلاء الجنة بمحض مشيئته من دون حِكمة ولا عمل، ويدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من دون حِكمة ولا عمل، **فالجبرية** لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتَّة.

○ قوله: «**وجوّزت أن يُعذِّب الله من أفنى عمره في الطاعة، ويُنعِّم من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٩٣، ٣٩٤).

راجع إلى محض المشيئة» قالوا: يجوز على الله أن يُعذِّب من أفنى عمره في طاعته من أول العمر إلى آخره؛ لأنه ليس هناك حِكمة ولا أسباب، ويجوز أن يُنعِّم من أفنى عمره في المعاصي والكفر، ولا يكون هذا مخالفًا لحِكمته؛ لأنه ليس هناك حِكمة، يُعذِّب من أفنى عمره في الطاعات، ويُنعِّم من أفنى عمره في المعاصي والكفر، وكلاهما سواء بالنسبة إليه؛ لأن الكل راجع إلى محض المشيئة.

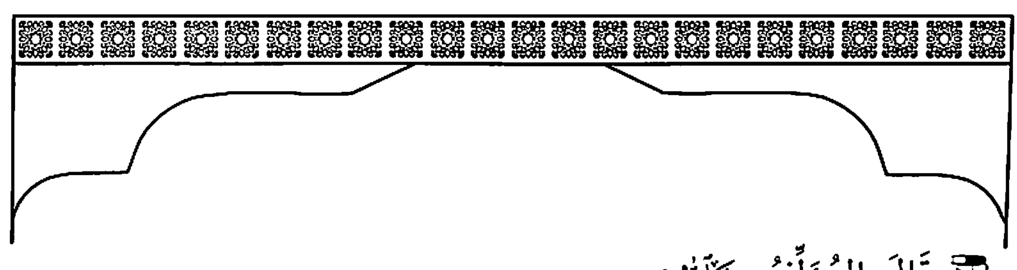
○ قوله: «**والقدرية**» قابلوهم، **القدرية النُّفاة** فـ«**أوجبت عليه** ﷻ **رعاية المصالح» قالوا**: يجب على الله أن يراعي مصالح العباد، «**وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال**» فجعلوا الأعمال ثمنًا وعِوضًا للأعمال، **قالوا**: بالثمن والأجر والجزاء، والجنة عِوض وثمن للأعمال، «و» **قالوا**: «**أن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن**» فالله لو أثاب العبد وجزاه وأدخله الجنة بدون عمل لكان فيه تنغيص له؛ لأنه يتحمل مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن، وهم لا يريدون المِنَّة من الله - نعوذ بالله -.

○ قوله: «**فجعلوا تفضُّله** ﷻ **على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد» فقالوا**: إن تفضل الله على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، فكما أن العبد إذا تصدَّق عليك يصير مِنَّة عليك فكذلك الرَّبُّ إذا أثابك يكون فيه مِنَّة عليك، لا تأخذ ثمنًا من الله إلا بمقابل العمل، حتى لا يكون لله مِنَّة عليك - نعوذ بالله -.

○ قوله: «**وأن إعطاءه ما يعطيه أجرةً على عمله أحب إلى العبد من أن يُعطِيَه فضلًا منه بلا عمل، فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتَّة**» فتجد هاتين **الطائفتين** متقابلتين، لكن عند النظر والتأمل **القدرية النُّفاة** أقرب إلى الحقِّ وإن

قالوا إن العبد يجب على الله أن يُثيبه، لكنهم أثبتوا الشرائع والأوامر والنواهي، **وقالوا** : الصلاة واجبة، والزكاة واجبة، والحج واجب، **وقالوا** : إن الأعمال ثمن للجنة، وأقرَّوا بالشرائع والأوامر والنواهي بخلاف **الجبرية**، **فالجبرية** ما أقرَّوا بالشرائع، بل **قالوا** : الشرائع والرُّسُل عبث، والأوامر والنواهي لا قيمة لها، والإنسان مجبور على المعاصي، والمطيع مجبور على طاعته، ولا فائدة في الأعمال، فكانت **القدرية النُّفاة** أقرب إلى الحقِّ؛ لأنهم أثبتوا الشرائع والأوامر والنواهي وعَظَّمُوها وإن قالوا إنه يجب على الله إن يثيبه عليها، لكن **الجبرية** أنكروا الشرائع والأوامر، فالرُّسُل والكتب عندهم كلها عبث ـ تعالى الله عما يقولون ـ.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم، وهو أن الأعمال أسباب مُوصِلة إلى الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شُكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نِعَمه سبحانه، فلو عَذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ، ولو رَحِمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢] مع قوله ﷺ: «لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله» تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال، ولا تنافي بينهما؛ لأن توارد النفي والإثبات ليس على محلٍّ واحدٍ، فالمنفي باء الثمنيَّة واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال ردًّا على القدريَّة المجوسيَّة التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكدير المِنَّة، والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيَّة الثمنيَّة ردًّا على القدريَّة الجبريَّة الذين يقولون لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة.

والسنة النبوية هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تُنافِي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها، وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحقِّ فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل بل

أنواعًا، فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه».

الشَّرْح

○ قوله: «**والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم**»، والصراط المستقيم هو الذي عليه **أهل السنة والجماعة**، وهو الحقُّ.

بَيَّنه **المؤلف** رحمه الله فقال: «**وهو أن الأعمال أسباب مُوصِلة إلى الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شُكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نِعَمه سبحانه**» فالصراط المستقيم هو أن الأعمال أسباب تُوصِّل إلى الثواب، والأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله، لا يفعلها الإنسان باستقلال، بل الله تعالى هو الذي وَفَّقَه للعمل الصالح، ثم جعل هذا العمل الصالح سببًا يُوصِله إلى الثواب ودخول الجنة، فالأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة والثواب، وهي مِنَّةٌ من الله وتوفيق، وليست قدرًا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شُكرًا لله على أحد الأجزاء القليلة من نِعَمه سبحانه.

○ قوله: «**فلو عَذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم، ولو رَحِمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم**» هذا الكلام معنى حديث، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»[1]، المعنى: أن الله تعالى لو حاسب عباده على نِعَمِهِ عليهم وأعمالهم لكانوا مدينين له، وحينئذ لو عَذَّبهم لعَذَّبهم وهو غير ظالم لهم، لكنه لا يحاسبهم

(١) تقدم تخريجه.

سبحانه بل يبتدئهم بنعم جديدة.

○ قوله: «**وتأمل**» - هذا على مذهب أهل السنة والجماعة - «**قوله تعالى**: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢] **مع قوله ﷺ**: «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**»» في «الصحيحين»[(١)] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟»، قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**»، فكيف الجمع بين الآية والحديث؟.

○ قوله: «**تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال**» فهل هذا تعارض وتناقض - معاذ الله -؟، هناك قاعدة تقول: شرط التعارض أن تكون الجهة مُتَّحِدَةً، فإذا كانت الجهة مُنفكة لم يكون هناك تعارض، وهنا الجهة منفكة، ولذلك يقول **المؤلف** رحمه الله: «**ولا تنافي بينهما؛ لأن توارد النفي والإثبات ليس على محلٍّ واحدٍ**» فالمنفيُّ في الحديث غير المثبت في الآية، عندنا باءان، باء في الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وهذه وقعت في الإثبات، إذًا تكون للسببية، والحديث «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**» وقعت في النفي، إذًا تكون للعِوض، والقاعدة: أن الباء التي تكون في الإثبات تكون للسببية، والتي في النفي تكون للعِوض، فإذًا الجهة منفكة، والمعنى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يعني: بسبب عملكم، والحديث «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**» الباء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «القصد والمداومة على العمل»، رقم (٦٤٦٧)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٨١٨).

للعِوض، عِوضًا عن عمله، وعلى هذا فيكون المعنى: دخول الجنة ليس عِوضًا عن العمل، والعمل لا يكون عِوضًا عن دخول الجنة، ولكن دخول الجنة برحمة الله، «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**» يعني: عِوضًا عن عمله، «**إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**» دخول الجنة برحمة الله، وهذه الرحمة لها سبب وهو العمل، فمن جاء بالسبب نالته الرحمة، ومن لم يأتِ بالسبب لم تنله الرحمة، فتكون الآية أثبتت السبب، والحديث نفى دخول الجنة بالعمل بل برحمة الله، والآية أثبتت سبب الرحمة وهو العمل، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: بسبب عملكم، فدخول الجنة بالسبب، وعلى هذا ليس بينهما تناقض[1]؛ لأن الجهة منفكة، ولهذا **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ولا تنافي بينهما؛ لأن توارد النفي والإثبات ليس على محلٍّ واحدٍ**، فالمنفي» في الحديث «**باء الثمنيَّة**»، «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**» يعني: بثمن عمله، «**واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال**» فيكون العمل ثمنًا لدخول الجنة هذا منفي، فكون الإنسان يستحق الجنة بمجرد عمله هذا منفي.

○ قوله: «**ردًّا على القدريَّة المجوسيَّة**» وهم **المعتزلة النُّفاة**، يسمون **قدرية مجوسية**؛ لأنهم شابهوا **المجوس** في القول بتعدُّد الخالق، **قالوا**: العبد يخلق فعل نفسه، **والمجوس** قالوا بخالقين، خالق الخير وخالق الشَّرِّ، فشابهوهم بالقول بتعدُّد الخالق فسُمُّوا **القدرية المجوسية** «**التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكدير المِنَّة**» **قالوا**: لو أن الله تفضَّل على العبد وأعطاه الثواب ابتداءً هذا فيه مِنَّة عليه، وهذا يكدر عليه التنعم، والسبب: إنهم

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢١٧)، و(٨/ ٧٠).

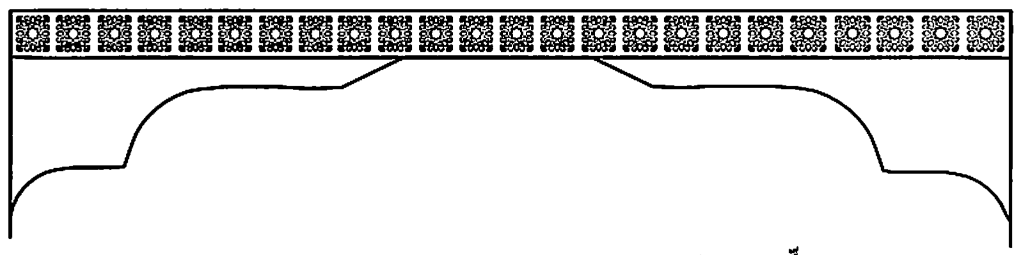
يقيسون الخالق على المخلوق، فالحديث فيه ردٌّ على القدرية.

○ قوله: «**والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيَّة الثمنيَّة ردًّا على القدريَّة الجبريَّة الذين يقولون لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها**» فإذًا الحديث فيه ردٌّ على **القدرية**، والآية فيها ردٌّ على **الجبرية**، **القدرية والجبرية** كل منهما فَهِمَ من الآية والحديث فهمًا معكوسًا، **القدرية** قالوا ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢] الباء باء العِوض، **وقالوا**: العمل عِوض، نقول: هذا خطأ، الباء في الآية ليست للعِوض، بل هي للسببية، فهمت **القدرية** من الحديث «**لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله**» أن الباء سبب فجعلوها للسببية، وهذا خطأ، بل هي للعِوض، ففهموا فهمًا معكوسًا، «**وإنما غايتها أن تكون أمارة**» فرارًا من القول بإثبات الأسباب.

○ قوله: «**والسنة النبوية هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها، وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحق فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل بل أنواعًا، فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**» وساق **ابن القيم** رحمه الله آيتين، **فقال**: «﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]»[١].



---
(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٦).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها، وخروج قواها من قوى النفس السَّبُعيَّة والبهيميَّة، فلو عُطِّلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم، فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول فتصير قابلةً لانتقاش صور المعارف فيها».

الشَّرْح

الصنف الأول: الجبرية، قالوا: العبادات ليس فيها فائدة، **والصنف الثاني: القدرية، قالوا:** العبادات فيها فائدة للمخلوق، وأما الخالق فليس له حِكمة.

○ قوله: **«الصنف الثالث»** وهم **الصوفية «الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها»** يعني: هذه العبادات فيها فائدة للإنسان يكون عنده استعداد وتقبل لأن تفيض عليه العلوم والمعارف.

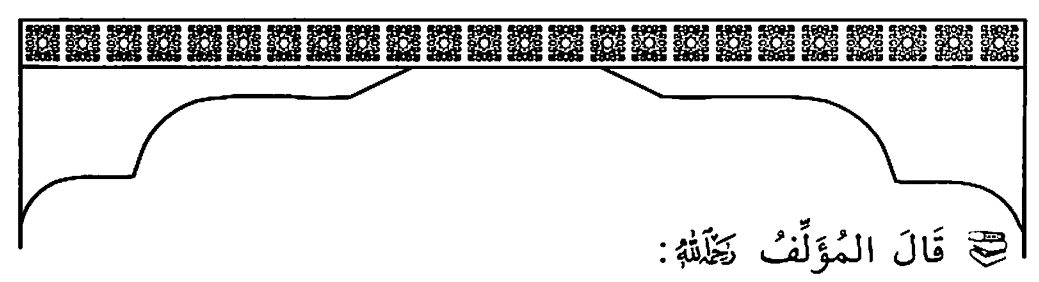
○ قوله: **«وخروج قواها من قوى النفس السَّبُعيَّة والبهيميَّة» قالوا:** لو لم يكن هناك عبادة لصارت نفس الإنسان مثل نفس السباع والبهائم، لكن العبادة تُروِّضُها وتُهيِّئُها وتُهذِّبُها حتى تجعلها مستعدة لقبول العلوم والمعارف، وتخرجها من مشابهة السباع والبهائم، فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول، **«فلو عُطِّلت العبادة لالتحقت**

بنفوس السباع والبهائم، فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول فتصير قابلةً لانتقاش صور المعارف فيها»، زاد في «المدارج»[(١)]: «فتصير عالمة قابلةً لانتقاش...».



(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٦).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وهذا يقوله طائفتان:

إحداهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقِدم العالم وعدم الفاعل المختار.

والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفيَّة الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقليَّة ومخالفة العوائد».

الشَّرْح

○ قوله: «وهذا» الذين يقولون إن فائدة العبادة رياضة النفوس ترويضها واستعدادها لفيض العلوم والمعارف «**يقوله طائفتان**»:

○ قوله: «**إحداهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقِدم العالم وعدم الفاعل المختار**» في «المدارج»[1]: «**إحداهما**: من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة القائلين بقِدم العالم وعدم انشقاق الأفلاك وعدم الفاعل المختار».

هذه الطائفة **الأولى**، وهم من يقرب إلى الإسلام، يعني: طائفة من الفلاسفة تحاول القُرب إلى النبوات والشرائع، وهم يقولون بقِدم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار، يعني: يقولون إن العالم قديم، ومعنى كونه قديم إنكار لوجود الله، فليس له

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٦).

بداية، والسماوات والأراضين والآدميين مستمرة ليس لها بداية، **فالفلاسفة** القائلين بقِدم العالم أنكروا وجود الله(١).

الطائفة الأولى: الفلاسفة الذين يُقرِّبون إلى النبوات والشرائع، ومذهبهم القول بقِدم العالم، وأن العالم قديم ليس له أول ولا بداية؛ لأنه ليس له خالق، كما أنه لا ينتهي، **وقالوا**: الأفلاك لا تنشق، فلا تنشق السماء، ولا تنكدر النجوم، ولا تقوم القيامة، فأنكروا الرَّبَّ، والمعاد، وعدم الفاعل المختار، وهو الرَّبُّ ﷻ، **وقالوا**: إنه ليس هناك لهذا العالم فاعل مختار أوجده باختياره، فلا يُثبتون وجود الله إلا من جهة كونه علة مُوجِدة لهذا الكون، وتقدم الخالق على المخلوق كتقدم العِلة على المعلول، يعني: يقولون هذا العالم مبدأه الله، فلا يؤمنون بوجود الله إلا لكونه مبدأ لهذه الكثرة، وهو علة لحركة الفلك أو الُمحَرِّك لهذا الفلك، ولهذا قالوا العالم قديم ليس له بداية، كما أنه لا ينتهي ولا يخرب، فقالوا: بعدم انشقاق الأفلاك، ولا تنكدر النجوم، ولا تنشق السماء، ولا تسير الجبال، ولا تسجر البحار، كل هذا أنكروه، **فقالوا**: إن العالم لا يخرب، فالأفلاك لا تنشق بل مستمرة فلا رب ولا معاد.

وقد زعم **أرسطو** صاحب منطق اليونان، ويُقال **أرسطو طاليس**، هذا فيلسوف من فلاسفة اليونان، كل أمة لها فلاسفة، والفلاسفة جمع فيلسوف، ومعنى الفلسفة: محبة الحكمة، والفيلسوف أصله: فيلاسوفا، أي: محبة الحكمة، فـ«فيلا» هي المحب و«سوفا» هي الحكمة(٢)، هكذا يقولون، والفلاسفة في كل أمة هم العلماء، كل أمة لها فلاسفة، اليونان أمة، الرومان أمة، البربر أمة، العرب أمة،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٨٦)، و«بدائع الفوائد» (٤/ ٩٦٢).
(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٦).

كل أمة لها فلاسفة، والفلاسفة هم العلماء.

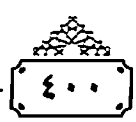
واشتهر فلاسفة اليونان، واشتهر من فلاسفة اليونان **أرسطو**، وسبق أرسطو فلاسفة كثيرون، ولكن الفلاسفة الذين سبقوا فلاسفة اليونان كلهم بالجملة يُعظِّمون الشرائع والإلهيات والنبوات، ويقولون بوجود الله، ويثبتون وجود الله حتى جاء **أرسطو** فخالف شيخه والفلاسفةَ السابقين، وكان مُشرِكًا يعبد الأوثان، **وقال**: إن العالم قديم[١]، فاشتهرت فلسفة **أرسطو**، وصاروا يُسمونه «المُعلِّم الأول»، وهو أول من قال بقِدم العالم، ثم جاء بعده **أبو نصر الفارابي** «المعلَّم الثاني»، وهو أول من وضع علم المنطق، **فأرسطو** وضع حروف المنطق **وأبو نصر الفارابي** أخذ به إلى الصوت على الأوتار، ثم جاء بعده **أبو علي بن سينا**، وسَمَّوه «المعلَّم الثالث»، وقد جاء متأخرًا، لكنه يقول: «أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم»[٢] والحاكم العُبيدي رافضي خبيث لا يؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر، **فأرسطو والفارابي وابن سينا** ملاحدة لا يؤمنون بالله ولا بالملائكة ولا بالكُتُب ولا بالرُّسُل، بعض الناس يسميهم «فلاسفة الإسلام»، ويسمي باسمهم مدارس وصيدليات، صيدليات؛ لأن ابن سينا طبيب، لكنه لا يصلح أن يسمى باسمه مدارس لأنه مُلحِد لا يؤمن بالله ولا بملائكته، وحاول مُقرِّبًا الفلسفة إلى دين الإسلام، وأثبت وجودًا لله في الذهن واللفظ فقط، لكن نفى عن الله جميع الأسماء والصفات.

قال: إن الملائكة عبارة عن أمور يتخيلها النبي، وفي زعمه هي أشكال نورانية وإلا ليس لهم أشخاص محسوسة تذهب وتصعد

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٣٩).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٦).



وتُرى وتنزل وتخاطب الرُّسُل، وإذا تقرب بها إلى الإسلام، **وقال**: الملائكة التي تبعث على الخير والإحسان والإيثار والشجاعة، والشياطين عبارة عن الأمور الرديئة التي تبعث على الإيذاء والظلم والعدوان، وليس هناك ملائكة ولا شياطين.

وقال عن الرُّسُل والأنبياء: هو رجل عبقري يتمرن ويكون عنده قوة التخيُّل حتى يُخيِّل للناس الملائكة ويتخيلهم.

وقال عن البعث والجزاء والحساب: ليس هناك جنة ولا نار، ولا أمر ولا نهي، لكن الرُّسُل كذبوا على الناس حتى يتعايش الناس بسلام، وإلا فليس هناك جنة ولا نار، ولا بعث ولا جزاء، هذا مذهب **ابن سينا**(١).

زعم **أرسطو** أن هذا العالم قديم مع الله، وأنه مقارن لله في الزمان، موجود مع الله كلاهما في وقت واحد، وقد أشار **ابن القيم** رحمه الله في «النونية» إلى مذهب **أرسطو** وأنه مذهب كُفرِيٌّ فقال:

وأتى ابن سينا القرمطي مُصانِعًا ... للمسلمين بإفك ذي بهتان
فرآه فيضًا فاض من عقل هو الـ ... ـفعَّال علة هذه الأكوان
حتى تلقَّاه زكي فاضل ... حسن التخيل جيد التبيان
فأتى به للعالمين خطابة ... ومواعظًا عريت عن البرهان
ما صرَّحت أخباره بالحقِّ بل ... رمزت إليه إشارة لمعان
وخطاب هذا الخلق والجمهور بالحـ ... ـقِّ الصريح فغير ذي إمكان
لا يقبلون حقائق المعقول إلا ... في مثال الحِسِّ والأعيان
ومشارب العقلاء لا يردونها ... إلا إذا وُضِعَت لهم بأوان

---

(١) انظر: «الرد على المنطقيين» لابن تيمية (ص ١٤١، ١٤٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٠٣/٤)، و«الصفدية» (٢/١).

من جنس ما ألفت طباعهم من الـ ـمحسوس في ذا العالم الجثماني
فأتوا بتشبيه وتمثيل وتجـ ـسيم وتخييل إلى الأذهان
ولذاك يحرم عندهم تأويله لكنه حلٌّ لذي العرفان
فإذا تأولناه كان جناية منّا وخرق سياج ذا البستان
لكن حقيقة قولهم أن قد أتوا بالكذب عند مصالح الإنسان
والفيلسوف وذا الرسول لديهم متفاوتان وما هما عدلان
أما الرسول ففيلسوف عوامهم والفيلسوف نبي ذي البرهان
والحق عندهم ففيما قاله أتباع صاحب منطق اليونان
ومضى على هذي المقالة أمة خلف ابن سينا فاغتذوا بلبان
منهم نصير الكفر في أصحابه الناصرين لملة الشيطان
فأسأل بهم ذا خبرة تلقاهم أعداء كل مُوحِّدٍ رباني
وأسأل بهم ذا خبرة تلقاهم أعداء رُسُل الله والقرآن
صوفيهم عبدُ الوجود المطلق الـ ـمعدوم عند العقل في الأعيان
أو ملحد بالاتِّحاد يدين لا التوحيـ ـد منسلخ من الأديان
معبوده موطوءه فيه يرى وصف الجمال ومظهر الإحسان
الله أكبر كم على ذا المذهب الـ ـملعون بين الناس من شيخان
يبغون منهم دعوة ويُقبِّلو ن أياديًا منهم رجا الغفران
ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرهم رجموهم لا شك بالصَّوَّان
فابذُرْ لهم إن كنت تبغي كشفهم وافرش لهم كفًّا من الأتبان
واظهر بمظهر قابل منهم ولا تظهر بمظهر صاحب النكران
وانظر إلى أنهار كفر فُجِّرَت وتَهِمُّ لولا السيف بالجريان[1]

الملحِد الزنديق أرسطو يقول: إن هذا العالم مستمر ما يفنى،

---

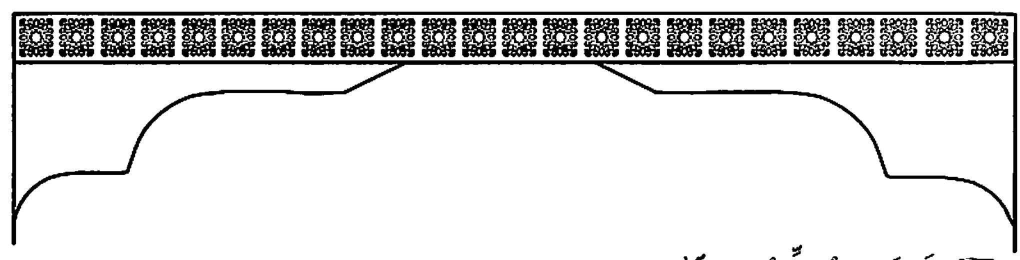
(١) «النونية» (ص٥٣، ٥٤).

فهذا العالم إلى ما لا نهاية، فليس هناك قيامة، ولا بعث، ولا جزاء، ولا جنة، ولا نار، كما أنه لم يُثبت أن الله هو الأول الذي ليس قبله شيء، وقد ذكر **الغزالي** في كتابه «تهافت الفلاسفة» كفر الفلاسفة في مسائل، **منها**: إنكارهم حشر الأجساد، وإنكارهم التعذيب بالنار والتنعيم بالجنة، **ومنها**: قولهم إن الله لا يعلم الجزئيات وإنما يعلم الكليات، فقد قالوا إن الله لا يعلم الجزئيات فلا يعلم عدد الأفلاك، يعلم علمًا مجملًا فيعلم بالسماء وبالأرض، لكن يعلم النجم الفلاني، **ومنها**: قولهم إن العالم قديم، وأن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة كتقدم العلة على المعلول، ولم يزالا في الوجود متساويين، الرَّبُّ والمخلوقات متساويان كلهم في وقت وزمان واحد.

○ قوله: «**والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفيَّة الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقليَّة ومخالفة العوائد**»، والمقصود من صوفية الإسلام: الصوفية المنسوبون إلى الإسلام، وأن هذه الصوفية لم تخرجهم من الإسلام إلى دائرة الكفر، وليس المراد تقرير أن الصوفية من الإسلام وأنها مذهب من المذاهب الإسلامية.

والصوفية أنواع: **منهم**: الغلاة في الأسماء والصفات، **ومنهم**: الغلاة في العبادة، **ومنهم**: أصحاب الغلو في أصحاب القبور، **ومنهم**: أرباب الكشوف، **ومنهم**: المتصل بالبدعة، **ومنهم**: من ينسب إلى لبس الصوف والزهد في العبادة، فهم طبقات.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ثُمَّ مِنْ هؤلاء مَنْ لا يُوجب العبادة إلَّا بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقي متحيِّرًا في حفظ أورادِه والاشتغال بالوارد عنها، ومنهم: من يُوجِب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها.

وهم صنفان أيضًا:

أحدهما: مَنْ يقول بوجوبها حفظًا للقانون، وضبطًا للنفوس.

والآخرون: يُوجِبونها حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرُّج النَّفس بمفارقتها إلى حالتها الأولى من البهيميَّة، فهذه نهاية أقدامِهم في حكمة العبادة وما شُرِعت لأجله.

ولا تكاد تجد في كُتُب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاثة أو مجموعها».

الشَّرْح

في «المدارج»[1]: «والآخرون الذين يوجبونه حفظًا للوارد وخوفًا من تدرج النفس بمفارقتها له إلى حالتها الأولى من البهيمية»

○ قوله: **«ثَمَّ مِنْ هؤلاء مَنْ لا يُوجِب العبادة إلَّا بهذا المعنى»** إلَّا أنها رياضة فقط **«فإذا حصل لها ذلك بقي متحيِّرًا في حفظ أورادِه والاشتغال بالوارد عنها»** يقول رَحِمَهُ اللهُ: **بعض الصوفية يقول**: لا تجب

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٧).

العبادة إلَّا إذا كانت رياضة للنفوس، فإذا كانت النفوس حصلت لها الرياضة بقي متحيرًا هل يفعل العبادة أم لا يفعلها ؟، فبقي متحيرًا في حفظ أوراده والاشتغال بها، «**ومنهم: من يُوجِب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها**».

○ قوله: «**وهم صنفان أيضًا:**

أحدهما: مَنْ يقول بوجوبها حفظًا للقانون، وضبطًا للنفوس.

والآخرون: يُوجِبونها حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرُّج النَّفس بمفارقتها إلى حالتها الأولى من البهيميَّة» إذًا يقولون العبادة وجبت رياضةً، فإذا حصلت الرياضة فاختلفوا، **تقول طائفة**: اترك العبادة، **وتقول طائفة أخرى**: قم بالعبادة ولا تُخل بها، وهم صنفان:

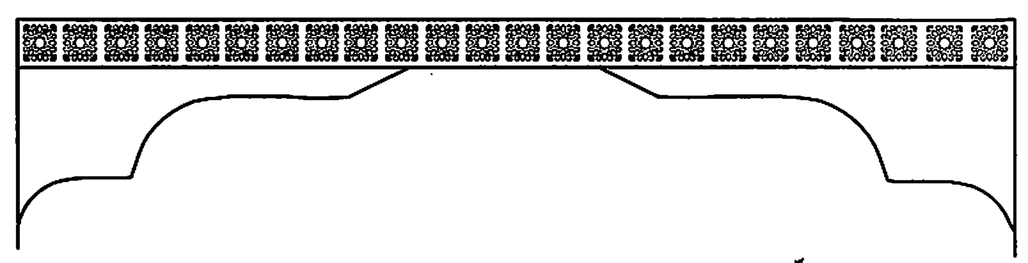
صنف بوجوب القيام بالعبادة حفظًا للقانون وضبطًا للنفوس.

والصنف الثاني بوجوبه حفظًا للوارد وخوفًا من أن تدرج النفس إلى حالتها الأولى فتتصف بصفة البهيمية والسبعية.

○ قوله: «**فهذه نهاية أقدامِهم في حكمة العبادة وما شُرِعت لأجله**» يقول: هذه المذاهب الثلاثة **مذهب الجبرية والقدرية والصوفية**، يقول: هذه مذاهبهم في حِكمة العبادة وما شُرِعت لأجله، «**ولا تكاد تجد في كُتُب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاثة أو مجموعها**» فلا تكاد تجد في كتب **الصوفية** إلا هذه المذاهب أو مجموعها.

وهذه الصوفية بأقسامها التي ذكر المصنف كلها شطحات من الانحراف عن منهج النبي ﷺ والتمسك بالكتاب العزيز.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«والصنف الرابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب، فعندهم أن سرَّ العبادة وغايتها مبنيٌّ على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كونه تعالى إلهًا، وأن العبادة موجب الإلهية وأثرها ومقتضاها، وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فعندهم من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغةً وشرعًا ومصدرًا وموردًا استقام له معرفة حِكمة العبادات وغايتها به، وعَلِمَ أنها هي الغاية التي خُلِقَت لها العباد، ولها أُرسِلت الرُّسُل، وأُنزِلت الكُتُب، وخُلِقَت الجنة والنار، وقد صَرَّحَ سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة هي التي وُجِدت لأجلها الخلائق كلها كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦] أي: مهملًا، قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: لا يُؤمر ولا يُنهى»، وقال غيره: «لا يُثاب ولا يُعاقب»، وهما تفسيران صحيحان؛ فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، فأخبر الله تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحقِّ المتضمِّن أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فإذا كانت السموات والأرض إنما خُلِقَتَا لهذا وهو غاية الخلق فكيف يُقال: «إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة»، أو إن ذلك لمجرد استئجار العُمَّال حتى لا يتكدَّر عليهم الثواب بالمِنَّة، أو لمجرَّد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد؟!».

الشَّرْح

هذا **المذهب الرابع**، وهو المذهب الحقُّ.

○ قوله: «**والصنف الرابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب**» في «مدارج السالكين»[1]: «**وأما الصنف الرابع**: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته ومراده بها»، قوله «فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية»، المحمدية نسبة إلى محمد بن عبد الله، والإبراهيمية نسبة إلى إبراهيم الخليل، و«أتباع الخليلين» الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

فهم يقولون: الله حكيم في أمره وشرعه وخلقه، فجمعوا بين الخلق والأمر والقدر والسبب، أي: يقولون بإثبات هذه الأمور الأربعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والصنف الرابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر**» أن الله خلق الخلق لحكمة، وأمر الأوامر وشرع السنن

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٧).

لحِكمة، «**والقدر والسبب**» وقدَّر الأقدار لحِكمة، وجعل الأسباب وهي من القدر، فربط الأسباب بمسبباتها، هذا مذهب **أهل الحقِّ**، فجمعوا بين الخلق والأمر والقدر والسبب، **فقالوا**: إن الله خلق الخلق لحِكمة، وشرع الشرائع وأمر بالأوامر لحِكمة، وقَدَّرَ الأقدار لحِكمة، وربط الأسباب بمسبباتها لحكمة.

○ قوله: «**فعندهم أن سرَّ العبادة وغايتها**» في «مدارج السالكين»[1]: «فاعلم أن سرَّ العبودية وغايتها ...» «**مبنيٌّ على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كونه ﷻ إلهًا، وأن العبادة موجب الإلهية وأثرها ومقتضاها**» يقول المؤلف ﷺ: إن سرَّ العبادة مبنيٌّ على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كون الله سبحانه إلهًا، أنه الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وخوفًا وتعظيمًا ورجاء، ولهذا قال المؤلف ﷺ: «**فعندهم أن سرَّ العبادة وغايتها مبنيٌّ على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كونه ﷻ إلهًا**»، معنى كونه إلهًا أي مألوهًا تألهه القلوب بالمحبة، «**وأن العبادة موجب الإلهية وأثرها ومقتضاها**» فيتعبَّد الإنسان محبة لله وتألهًا له، والعبادة ثمرة للإلهية، فكون الله إلهًا فلا بُدَّ أن تعبد هذا الإله، فموجب كونه إلهًا أن تعبده وأن تتأله له، وعليه فمعنى «لا اله إلَّا الله» لا معبود حق إلا الله، خلافًا **للصوفية وأهل الكلام كالمعتزلة والأشاعرة** الذين يُفسِّرون الإله بالقادر على الاختراع[2]، فيقول «لا إله إلَّا الله» معناها لا خالق ولا قادر إلا الله، ولو كان كذلك لصار كفار قريش مؤمنين، **فأبو جهل وأبو لهب لعنهما الله** يقولان «لا خالق إلا الله»، على هذا **فالصوفية وأهل الكلام** لا يُنكرون الشِّرك في العبادة لأن كلمة التوحيد لا تنفي

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٠١).

الشِّرك؛ لأنها عندهم تُقرِّر توحيد الربوبية ولا تتجاوزه إلى توحيد الألوهية، لكن هذا باطل، الإله معناه المعبود[(١)].

○ قوله: «**وارتباطها**» أي: وارتباط العبادة بالإلهية «**كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود**» إذًا معنى كونه إلهًا يعني: مألوهًا معبودًا، موجب الإله موجب الإلهية أن تعبده.

○ قوله: «**فعندهم من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغةً وشرعًا ومصدرًا وموردًا استقام له معرفة حِكمة العبادات**» هنا تعرف حِكمة العبادة، حكمة العبادة أنها أثر موجب الإلهية، موجب كون الرَّبِّ إلهًا فتعبده «**وغايتها به**».

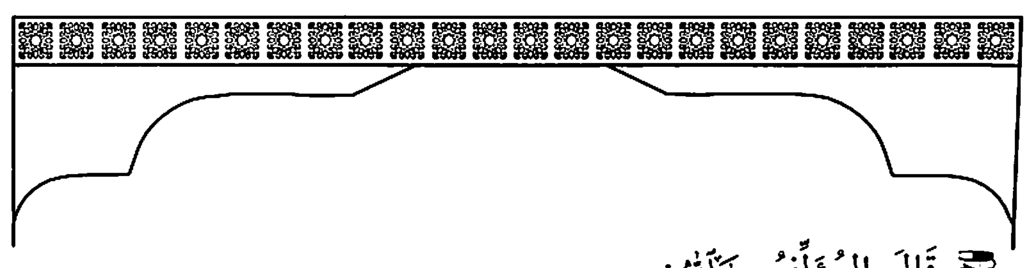
○ قوله: «**وعَلِمَ أنها هي الغاية التي خُلِقَت لها العباد**» فالعبادة هي الغاية والحكمة التي خُلِقَ العباد لها»، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، «**ولها أُرسِلت الرُّسُل، وأُنزلت الكُتُب**» قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، «**وخُلِقَت الجنة والنار، وقد صَرَّحَ سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾** [الذاريات: ٥٦]، **فالعبادة هي التي وُجِدت لأجلها الخلائق كلها كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾** [القيامة: ٣٦] **أي: مهملًا، قال الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **لا يُؤمر ولا يُنهى»، وقال غيره: «لا يُثاب ولا يُعاقب»، وهما تفسيران صحيحان؛ فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة**

---

(١) انظر: ما تقدم صفحة (٥١).

وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، فأخبر الله تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحقِّ المتضمِّن أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فإذا كانت السموات والأرض إنما خُلِقَتَا لهذا وهو غاية الخلق فكيف يُقال: «إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة»، أو إن ذلك لمجرد استئجار العُمَّال حتى لا يتكدَّر عليهم الثواب بالمِنَّة، أو لمجرَّد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد؟!»».





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا تأمَّل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال وبين ما دلَّ عليه صريح الوحي عَلِمَ أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبَّته مع الخضوع له والانقياد لأمره، فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده تعالى بالمحبة، فلا يُحِبُّ معه سواه، وإنما يُحِبُّ ما يُحِبُّه لأجله وفيهِ كما يُحِبُّ أنبياءه ورُسُله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتَّخذ من دونه أندادًا يُحبهم كُحبِّهِ».

الشَّرْح

أنوع المحبة:

١- محبة الله

٢- المحبة في الله

٣- محبة ما يعين على محبة الله

٤- المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية.

٥- المحبة الطبيعية، وليست من هذا الباب، فهي ليست من أنواع المحبة، المتعلقة بالعبادة، بل هي محبة طبيعية، وهي: ميل الإنسان إلى ما يُلائم طبعه كمحبة الظمآن للماء، ومحبة الجائع للطعام، ومحبة النوم، والزوجة، والولد، والمال، والصديق، فهذه المحبة لا تُذمُّ إلَّا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبته كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن

ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

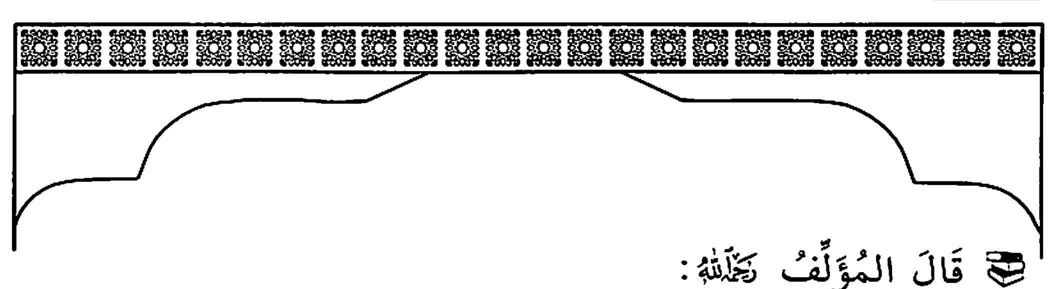
أحدها: محبة طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

النوع الثاني: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم.

النوع الثالث: محبة أنس وإلف، وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر بعضهم بعضًا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضًا، فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركًا في محبة الله سبحانه»[١]، فيجمعها شيء واحد محبة طبيعية، لكن الأنواع الأربعة التي سبقت هذه هي المحبة التي تتعلق بالعبادة.



(١) «طريق الهجرتين» (ص ٤٤١).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرُّها فهي إنما تتحقق باتِّباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتِّباع الأمر والنهي تتبيَّن حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل سبحانه اتِّباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها وشاهدًا لها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، **فجعل اتِّباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبتهم لله تعالى وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع، فعُلِمَ انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول ﷺ، ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما، ومتى كان عنده شيءٌ أحبَّ إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره، قال تعالى:** ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة: ٢٤]، **وكلٌّ من قَدَّم قول غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه فليس ممن أحبه».**

الشَّرْح

○ قوله: **«وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرُّها»** حقيقة العبودية المحبة لله، يعني: يُحِبُّ ما يُحِبُّه الله، وإذا كانت المحبة له هي حقيقة العبوديته وسرُّها **«فهي إنما تتحقق باتِّباع أمره واجتناب نهيه»**.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن المحبة تتحقق بشرطين: بإتباع أمره واجتناب نهيه، فمحبة ما يُحِبُّه الله التي هي حقيقة العبودية وسرُّها تتحقق بشرطين بإتباع أمر الله واجتناب نهيه «**فعند اتِّباع الأمر والنهي تتبيَّن حقيقة العبودية والمحبة**» أي: فعند إتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة.

إذًا حقيقة العبودية وسرها: أن تكون المحبة لله، بأن تُحِبَّ ما يُحِبُّه الله، وتُحِبُّ لأجل الله، فهذه هي حقيقة العبودية وسرها، فإنها تتحقق بإتباع الأمر واجتناب النهي، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتحقق العبودية.

والعبادة لها ركنان: الإخلاص والمتابعة، الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ، وليس في الوجود من يستحقُّ أن يُحَبَّ لذاته من كلِّ وجه إلَّا الله تعالى، فإن الأنبياء والرسل تحبهم لله، لكن الذي يُحَبَّ لذاته من كلِّ وجه هو الله سبحانه.

○ قوله: «**ولهذا جعل سبحانه اتِّباع رسوله عَلَمًا عليها**» أي: عَلَمًا على المحبة، فجعل الله تعالى إتباع الرسول عليه الصلاة والسلام عَلَمًا على المحبة «**وشاهدًا لها**» أي: ودليلًا عليها «**كما قال تعالى**: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]» هذه الآية تُسمَّى «آية المحنة»(١) آية الامتحان والاختبار، ادَّعى قوم محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، لو قال شخص: «أنا أحب الله»، نقول: «عندنا ميزان، وهو إتباع الرسول ﷺ، فإن كنت متبع للرسول فأنت صادق، وإن كنت لا

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٢٢).

تتبع الرسول فأنت كاذب، هذا هو الميزان، وهذه دعوى ولا تفيدك».

○ قوله: **«فجعل اتِّباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبتهم لله تعالى وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع»** المشروط محبة الله، والشرط إتباع الرسول، ووجود المشروط بدون الشرط مستحيل ممتنع، فلا يمكن أن يُوجد المشروط بدون الشرط، الوضوء شرط لصحة الصلاة، والصلاة مشروطة بالوضوء فالوضوء شرط، فإذا فُقِدَ الشرط وهو الوضوء استحال وجود الصلاة، فلا يوجد المشروط وهو الصلاة إلا إذا وُجِدَ الشرط، فكذلك محبة الله مشروطة، وشرطها إتباع الرسول، فإذا لم يوجد الشرط وهو إتباع الرسول استحال وجود محبة الله، ويكون صاحبها كذَّابًا، ولهذا **قال** رحمه الله: **«فجعل اتِّباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبتهم لله تعالى وشرطًا لمحبة الله لهم»**.

○ قوله: **«فعُلِمَ انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول ﷺ»** في «مدارج السالكين»(١): «فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله، ودلَّ على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما».

○ قوله: **«ولا يكفي ذلك»** يعني: في العبودية **«حتى يكون الله**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٩).

ورسوله ﷺ **أحبَّ إليه مما سواهما»** وهذه المحبة قد تنتفي من كل وجه، وقد ينتفي بعضها.

ومِنْ ترك طاعة الرسول: ما يُنافي أصل الإيمان كما إذا ترك طاعته في عبادة الله، **ومنها:** ما ينفي كماله الواجب كما إذا عصى الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو مراتب، فالمعصية أخف من الكبيرة، والكبيرة أخف من البدعة.

○ قوله: «**ومتى كان عنده شيءٌ أحبَّ إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره**» فمتى كان عند العبد شيء أحب إليه منهما ـ يعني: من الله ورسوله ـ فهو الإشراك الذي لا يغفره؛ لأنه محبة مع الله، وهي محبة المشركين لأندادهم، **وقال ابن القيم** رحمه الله في «مدارج السالكين»[1]: «ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]»، هذه الآية ذكر الله فيها ثمانية أصناف، من قَدَّمَ واحدًا من هذه الأصناف الثمانية فهو فاسق ومُتعرِّض للوعيد، والمعنى: إن قَدَّمتم واحدًا من الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ يعني: انتظروا ماذا يحل بكم من عقوبة الله ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾، فمن فعل ذلك فهو فاسق يستحق الوعيد، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٩).

والأصناف ثمانية وهي:

الأول: تقديم محبة الآباء.

الثاني: تقديم محبة الأبناء.

الثالث: تقديم محبة الإخوان.

الرابع: تقديم محبة الأزواج.

الخامس: تقديم محبة العشيرة.

السادس: تقديم محبة الأموال، قال تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: حصلتموها وكسبتموها.

السابع: محبة التجارة، قال تعالى: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾.

الثامن: محبة المساكن، قال تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

○ قوله: «**وكلُّ من قَدَّم قول غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه فليس ممن أحبه**» من قَدَّم قول غير الله على قول الله لم يكن أحب الله كمال المحبة، وكذلك من حكم بغير ما شَرَعَ الله لم يكن ممن يحب الله، وكذلك من حاكم إلى غير شرع الله فليس ممن أحبه.

وتقديم قول غير الله أو رسوله أو طاعته أو محبته أو حكمه قد يكون كفرًا، وقد يكون فسقًا لأنه كبيرة، وقد يكون معصية، وهو أقسام.

فمَنْ قَدَّم قول غير الله على قول الله ورسوله في العبادة والتوحيد فهذا شرك، ومَنْ قَدَّمَ قول غير الله على قول الله فترك

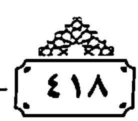
واجبًا من الواجبات أو ارتكب كبيرة فهذا مرتكب للكبيرة فاسق، ومَنْ قَدَّمَ قول غير الله على قول الله في ترك سنة أو نافلة يكون قد ترك ما أولى.

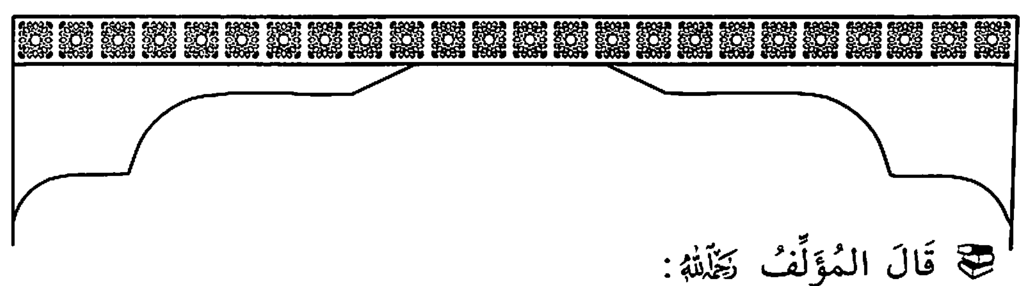
إذًا تقديم قول غير الله أو رسوله على قول الله ورسوله، أو تقديم طاعة غير الله أو رسوله على طاعة الله ورسوله، أو تقديم محبة غير الله على محبة الله ورسوله، أو تقديم حب غير الله على حب الله ورسوله له أحوال، فقد يكون كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، كالحُكم بغير ما أنزل الله فقد يكون كفرًا أكبر كما إذا استحلَّ حكم غير ما أنزل الله فاعتقد أنه أحسن منه أو يُماثِله أو يُساوِيه، أو أنه يجوز له الحُكم بغير ما أنزل الله، كمن قال: «يجوز أن يحكم بالقوانين الوضعية» فهذه رِدَّة عن الإسلام، فهو مثل من يقول: يجوز الزنا، أو تجوز الخمر، أو يجوز الربا، أما إذا حكم بغير ما أنزل الله في مسألة أو في قضية من القضايا وهو يعلم أنه عاصٍ لكن حكم طاعة لهوى أو للشيطان، أو لأجل رشوة، أو لأجل أن ينفع المحكوم له ويضر المحكوم عليه فهذا فسق ومعصية، وقد يكون خطأ كما إذا استفرغ الحاكم جهده في معرفة الحقِّ فأخطأ فهو مغفور له وله أجر على اجتهاده كما في «الصحيحين»(١) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»**.



---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب «أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ»، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم، كتاب الأقضية، رقم (١٧١٦).





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«لكن قد يشتبه الأمر على مَنْ يُقدِّم قول أحد أو حكمه أو طاعته على قوله ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلَّا ما قاله الرسول ﷺ فيُطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك، وأمَّا إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ، وعرف أن غير مَنْ اتَّبعه أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور كمسألةٍ معيَّنةٍ، ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ ولا إلى مَنْ هو أولى به فهذا يُخاف عليه».

الشَّرْح

○ قوله: **«لكن قد يشتبه الأمر على مَنْ يُقدِّم قول أحد أو حكمه أو طاعته على قوله ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلَّا ما قاله الرسول ﷺ فيُطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك»** يقول: يشتبه الأمر على بعض الناس فيُقدِّم قول أحد على قول الله ورسوله، أو يُقدِّم حُكم أحد على حكم الله ورسوله، أو يُقدِّم طاعة أحد على طاعة الله ورسوله غير متعمد لذلك بل ظنًّا منه أن هذا الشخص الذي أطاعه أو امتثل أمره أنه لا يأمر إلا بما شرع الله، ولا يحكم إلا بحكم الله، ولا يقول إلا ما قاله الله ورسوله، عامِّيٌّ قلد شخصًا يظنُّ أنه عالم وأنه لا يأمر إلا بأمر الله ورسوله، أو لا يحكم إلا بحكم الله ورسوله، فهذا اشتبه عليه الأمر فأطاعه في غير طاعة الله ورسوله فهذا معذور

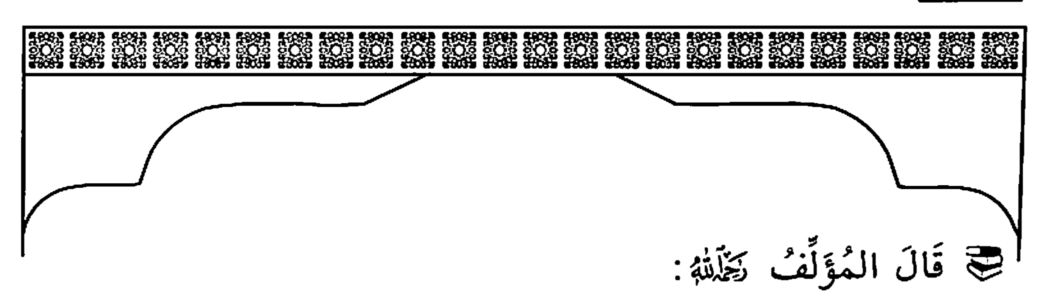
إذا لم يقدر على غير ذلك؛ لأنه عاميٌّ لا يدري.

○ قوله: «**وأمَّا إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ، وعرف أن غير مَنْ اتَّبعه أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور كمسألةٍ معيَّنةٍ، ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ ولا إلى مَنْ هو أولى به فهذا يُخاف عليه**» في «مدارج السالكين»[1] زيادة: «وهو داخل تحت الوعيد».

○ قوله: «**إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ وعرف أن غير مَنْ اتَّبعه أولى به مطلقًا**» يعرف أن قوله وحكمه باطل «**أو في بعض الأمور كمسألةٍ معيَّنةٍ**» وترك قول الرسول «**ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ ولا إلى مَنْ هو أولى به فهذا يُخاف عليه**»؛ لأنه عرف الحق وعدل عنه، وهو داخل تحت الوعيد.



(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وكلُّ ما يتعلَّل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأن ذلك المُتقدِّم كان أعلم منِّي بمراده ﷺ فهذه كلها تعلُّلات لا تُفيد، هذا مع الإقرار بجواز الخطإ على غير المعصوم، إلَّا أن يُنازَع في هذه القاعدة فتسقط مكالمته، وهذا هو داخل تحت الوعيد.

فإن استحلَّ مع ذلك ثلب مَنْ خالفه وقرض عِرضه ودينه بلسانه، أو انتقل من هذا إلى عقوبته، أو السعي في أذاه فهو من الظلمة المعتدين ونوَّاب المفسدين».

الشَّرْح

○ قوله: **«وكلُّ ما يتعلَّل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين»** يعني: الشخص الذي يُقدِّم قول غير الله على قول الله، أو يُقدِّم حكم غير الله على حكم الله، أو يتحاكم إلى غير الله ويتعلَّل، فإذا قلت له: «لماذا يا فلان؟»، قال: «أنا لا أدري؛ ما عندي علم»، أو قال: «ما عندي فهم»، فعِلَّتُهُ عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين، قال: «ما عندي فقه في الدين»، **«أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر»** فيقيس هذه المسألة على مسألة أخرى، **«أو بأن ذلك المُتقدِّم»** الذي اتبعته **«كان أعلم منِّي بمراده»** فلا تُفيده هذه الأعذار، **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: **«فهذه كلها تعلُّلات لا تُفيد»**؛ فيجب عليه أن يبحث عن الحقِّ، أما أنه يقول: «أنا لا

أدري»، أو «أنا ليس عندي علم»، أو «ليس عندي فهم»، أو «ليس عندي آلة فقه الدين»، أو يقيس وهو لا يبحث عن الحقِّ فهذه تعلُّلات لا تُفيد.

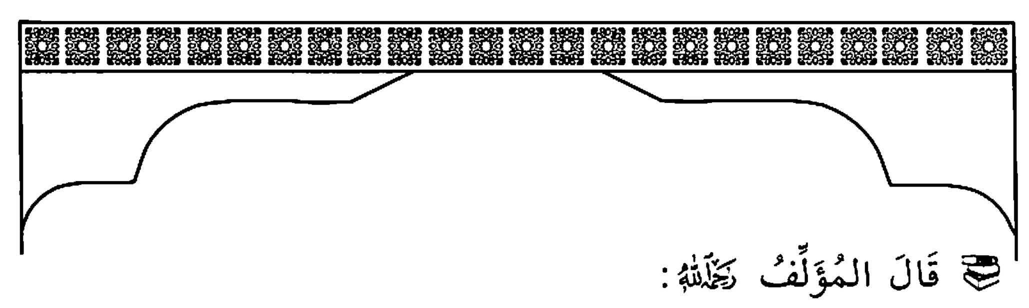
○ قوله: **«هذا مع الإقرار بجواز الخطإ على غير المعصوم»** وهو الرسول ﷺ، أما غيره فليس بمعصوم، لا بُدَّ أن يُقِرَّ بأنه يجوز الخطأ على هذا الشخص أو العَالِم الذي اتبعه، فيجوز الخطأ عليه؛ فهو غير معصوم يُخطئ، فإذا كنت تُقِرُّ بهذا فكيف تتعلَّل بعدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر؟!، فلا تُفيدك هذه التعلُّلات ما دمت أنك تُقِرُّ أن هذا الشخص يجوز عليه الخطأ.

○ قوله: **«إلَّا أن يُنازَع في هذه القاعدة»** وهي أنه لا بُدَّ أن تُقِرَّ بأنه يجب تقديم طاعة الله على طاعة كل أحد، ويجب تقديم قول الله ورسوله على قول كل أحد، ويجب تقديم مرضاة الله ورسوله على مرضاة كل أحد، ويجب تقديم خوف الله ورجاؤه والتوكل عليه، فإن نازع فيها **«فتسقط مكالمته»** فليس هناك كلام معه؛ لإنكاره المسلمات من القواعد الكلية، حيث أنكر قاعدة مُسلَّمة لكل أحد، وهي وجوب تقديم طاعة الله ورسوله على طاعة كل أحد، فالذي يُنكِرها تسقط مكالمته؛ لأنه أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، فتقديم مرضاة الله ورسوله على مرضاة كل أحد معلوم من الدين بالضرورة، ووجوب خوف الله معلوم من الدين بالضرورة، ووجوب الرجاء معلوم من الدين بالضرورة، ووجوب التوكل على الله وأن تعامل الله خلاف ما تعامل به المخلوق معلوم من الدين بالضرورة، فإذا نازَع في هذه القاعدة سقطت مكالمته؛ لأنه أنكر المُسلَّمات، **«وهذا هو داخل تحت الوعيد»** مثل **الرافضي** الذي دخل تحت عصمة

إمامه، واعتقد عصمة إمامه فتسقط المكالمة معه، لأنه لا يوجد معصوم إلا الرسول ﷺ؛ ولأنه من المُسلَّمات في الدين أنه لا عصمه إلا للرسول ﷺ، فإن الرُّسُل والأنبياء معصومون من الشِّرك وكبائر الذنوب والخطإ في تبليغ شرائع الله ودينه، أما الصغائر وخلاف الأولى فقد تقع منهم، قال الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال عن آدم عليه السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦].

○ قوله: «**فإن استحلَّ مع ذلك ثلب مَنْ خالفه**» في نسخة «سبَّ من خالفه»، فإذا قال: إنه يجوز العصمة على غير الرسول، واعتقد أن هذا الشخص معصوم، واستحل أن يسبَّ من خالفه «**وقرض عِرضه**» يعني: يغتابه «**ودينه بلسانه، أو انتقل من هذا إلى عقوبته**» بالضرب أو السجن «**أو السعي في أذاه فهو من الظلمة المعتدين ونوَّاب المفسدين**» فيكون نائبًا عن المفسدين في الأرض، ومن الظلمة.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«واعلم أن العبادة أربع قواعد، وهي التحقيق بما يحبُّ الله ورسوله ﷺ ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه، وأخبر رسوله ﷺ عن ربِّهِ من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته، ولقائه، وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدُّعاء إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره تعالى، وتبليغ أمره.

وعمل القلب كالمحبَّة له، والتَّوكل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصبر على أوامره ونواهيه، وأقداره، والرِّضا به، وله، وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة، ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله تعالى من مستحبِّ أعمال الجوارح.

وأما أعمال الجوارح فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فقول العبد في صلواته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام أحكام هذه الأربعة

وإقرار بها، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥] طلب الإعانة عليها والتوفيق لها، وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦] متضمِّنٌ للأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السَّالكين إلى الله تعالى.

والله المُوفِّق بمنِّهِ وكَرَمِهِ، والحمد لله وحده، وصلَّى الله على من لا نبيَّ بعده، وآله وصحبه ووارثيه وحزبه.

تمَّ الكتاب بعون الله الملك الوهاب».

الشَّرْح

هذا البحث منقول من «مدارج السالكين» **لابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ، لكنه **قال** رَحِمَهُ اللهُ: «فصل. وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح»(١) وقال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «**وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح**».

قيام القلب ينقسم إلى قسمين: قول القلب وعمل القلب، في «مدارج السالكين»: «التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح»، هذه أربعة أشياء، التحقق بما يحبه الله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

ثم **قال** رَحِمَهُ اللهُ: «فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها» بَدَّلَ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وقال: «**فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها**».

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠).

إذًا ما في «مدارج السالكين»: «فصل. وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها».

إذًا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: نخصُّك يا الله بالعبادة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قَدَّمَ المفعول على الفعل لإفادة الحصر، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو معنى «لا إله إلَّا الله»، يعني: لا نعبد إلا إياك، وهذا مأخوذ من تقديم المفعول على الفعل فيفيد الحصر، لكن لو قيل «نعبدك» بدون التقديم فلا يُفيد الحصر، لكن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ صار معناها إياك نعبد ولا نعبد غيرك، وصار هو معنى «لا إله إلا الله».

والتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات، «لا إله» هذا النفي، «إلا الله» هذا الإثبات، بهذا يكون الإنسان مُوحِّدًا؛ لأن «لا إله إلا الله» مشتملة على ركنين:

الأول: النفي، وهذا هو الكفر بالطاغوت، فينفي جميع ما يُعبد من دون الله، فإن معنى الكفر بالطاغوت: البراءة من كل معبود سوى الله، وإنكارها، ونفيها، والكفر بأصحابها، والتبرؤ منها ومن أهلها، وهذا هو معنى «لا إله».

الثاني: الإثبات في «إلا الله»، أي: إثبات العبادة لله وحده، فكلمة التوحيد «لا اله إلا الله» فيها كفر وإيمان، فيها كفر بالطاغوت في «لا إله»، أما «إلا الله» هذا إيمان بالله، ولا يحصل التوحيد إلا بالأمرين النفي والإثبات، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

إذًا ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] مبنية على أربع قواعد، العبادة التي هي حقُّ الله مبنية على أربع قواعد: قول اللسان، وقول القلب، وعمل القلب، وعمل الجوارح، ولهذا **قال**: «التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح».

○ قوله: «**فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع**» وهي:

المرتبة الأولى: قول اللسان.

المرتبة الثانية: قول القلب.

المرتبة الثالثة: عمل القلب.

المرتبة الرابعة: عمل الجوارح.

وهذا تحقق لا بُدَّ منه، فخرج بذلك: البدعة والمعصية؛ فإنها لا يُحبُّها الله ورسوله.

وهذه القواعد الأربع داخلة في مُسمَّى الإيمان، عند أهل السنة والجماعة، قول اللسان وقول القلب وعمل القلب وعمل الجوارح، وسيُفصِّل المؤلف رحمه الله هذه المراتب الأربعة، **وقال بعض السلف** في تعريف الإيمان: «الإيمان قول وعمل ونية»[1]، «قول» يُقصد به قول القلب وقول اللسان، فقول القلب: هو الاعتقاد والتصديق، وقول اللسان: النطق، وعمل القلب: النية والإخلاص والصدق، وعمل الجوارح: كالصلاة والصيام والزكاة.

وزاد **بعضهم وقال**: «قول وعمل ونية وسنة»[2]، وهذا أشمل من قول **بعضهم**: «الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠٩).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧١).

بالأركان»، الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان وهو القلب، وعمل بالأركان يعني الجوارح، هنا نقصٌ فأين عمل القلب؟، إذًا هذا أشمل، وقول **بعضهم** «الإيمان قول وعمل» يعني: القول قسمان: قول القلب وقول اللسان، والعمل قسمان: عمل القلب وعمل الجوارح.

○ قوله: «**فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه، وأخبر رسوله ﷺ عن ربِّهِ من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته، ولقائه**» يعني: البعث «**وما أشبه ذلك**» كل هذا داخل في قول القلب، أن تُصدِّق وتعتقد أخبار الله التي أخبر بها عن نفسه بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا، فأخبر عن نفسه بأنه العليم والقدير والسميع والبصير كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وكذلك لا بُدَّ تعتقد وتُصدِّق ما أخبر عنه رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله، ولهذا **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه، وأخبر رسوله ﷺ عن ربِّهِ من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته**» فإن الله تعالى أخبر عن الملائكة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]، فلا بُدَّ إن نؤمن

بالملائكة الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم والسنة المُطهَّرة والإيمان بأعيانهم، مَنْ سُمِّيَ مِنَ الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وما لم يُسمَّ، فنؤمن بهم إجمالًا، ومنهم: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ [المرسلات: ١-٣] وهم الملائكة، ومنهم: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات: ١-٥]، كل هذا الملائكة.

والملائكة من عالم الغيب، خلقهم الله من نور، وهم أشخاص وذوات محسوسة، تنزل، وتصعد، وتذهب، وتُرى، وتجيء، وتخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام، وأما أعداء الله **الفلاسفة** فهم يُنكِرون الملائكة، ويقولون: الملائكة عبارة عن أشباح وأشكال نورانية يتصورها النبي بزعمهم، فيتخيلها ويتصورها في نفسه، وإلَّا فلا حقيقة لها، ومن تقرَّب منهم إلى أهل الإسلام فيقول: الملائكة عبارة عن أمور معنوية تبعث على الخير والبرِّ والإحسان والإيثار والشجاعة والإقدام، والشياطين عبارة عن الأمور الرديئة التي تبعث على الإيذاء والظلم والعدوان.

فلا بُدَّ من الإيمان بالملائكة، وبأسمائهم، ووظائفهم، وشرفهم عند الله ﷻ.

والملائكة لهم وظائف، **منهم**: حملة العرش الذين حول العرش، وهم المقرَّبين ومن أشرف الملائكة، **ومنهم**: سُكَّان السماوات، **ومنهم**: المُوكَّلُون بتدبير أمر نطفة بني آدم حتى يتم خلقها، **ومنهم**: مُوكَّل بالموت، **ومنهم**: مُوكَّل بالنار وإعداد العذاب لأهلها، **ومنهم**: مُوكَّل بالجنة وإعداد النعيم لأهلها، **ومنهم**: ملائكة مُوكَّلُون بقبض الروح، وهو ملك الموت، وله أعوان، **ومنهم**: مُوكَّل بالقطر، وهو ميكائيل، **ومنهم**: مُوكَّل بالنفخ في الصور، وهو

إسرافيل، ومنهم: مُوكَّل بالوحي، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، بل كل حركة في السماوات والأرض فهي ناشئة على الملائكة بأمر الله الكوني القدري، خلافًا لأعداء الله الذين يقولون النجوم هي المُدبِّرة لهذا الكون.

كذلك يدخل في الإيمان بالكُتُب المُنزَّلة التي أنزلها الله: ما سُمِّي من الكتب الأربعة التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، نؤمن بها بأعيانها، ونؤمن بأن لله كُتُبًا لا يعلم أسمائها وعددها إلا الله.

ونؤمن بالرُّسُل من سُمِّيَ بأعيانهم، وهم خمس وعشرون في سورة «الأنعام» و«النساء»، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣]، وفي «الأنعام»: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦]، فهذه الرُّسُل الذين ذكروا في سورة «النساء» و«الأنعام»، وإذا حفظت المُكرَّر وزدت هود وصالح ونبينا محمد ﷺ يكون خمس وعشرون، ونُؤمِن ببقية الرُّسُل، وأن الله تعالى أرسل رُسُلًا كثيرين لا يعلم أسمائهم إلا الله.

ولا بُدَّ من الإيمان بالبعث بعد الموت، ولهذا **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولقائه**» أي: لقاء الله، بالبعث بعد الموت، والحشر،

والنشر، وتطاير الصحف، والحساب، والجزاء، ووزن الأعمال، والورود على الحوض، والمرور على الصراط، والجنة، والنار، والاستقرار في الجنة والنار، لا بُدَّ من الإيمان بذلك، كل هذا داخل في قول القلب وهو اعتقاد القلب وتصديقه.

○ قوله: «**وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك**» الإخبار بأسمائه وصفاته وأفعاله والنطق بذلك «**والدُّعاء إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره تعالى، وتبليغ أمره**» كل هذا داخل في قول اللسان، وكذلك قراءة القرآن والذكر والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلها داخل في قول اللسان.

○ قوله: «**وعمل القلب كالمحبَّة له**» ولرسوله وأنبيائه ورسله «**والتَّوكل عليه، والإنابة**» إليه «**والخوف**» من الله «**والرجاء، والإخلاص، والصبر على أوامره ونواهيه**» في «المدارج»[(١)]: «والصبر على أوامره وعن نواهيه»، وفيه زيادة معنى، فالأوامر يُصبر على فعلها، والنواهي يُصبر عنها.

○ قوله: «**وأقداره، والرِّضا به، وله**» كلمة «له» زائدة ليست في «المدارج»، «**وعنه**» كل هذا داخل في عمل القلب، فيرضى بالله، وعن الله.

○ قوله: «**والموالاة فيه، والمعاداة فيه**» من أعمال القلوب الموالاة والمعاداة في الله، فمن أصول الإيمان الموالاة والمعاداة في الله.

○ قوله: «**والإخبات إليه**» يعني: الخضوع لله ﷻ «**والطمأنينة**» به.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٠١).

○ قوله: «**ونحو ذلك من أعمال القلوب**» كل هذا داخل في أعمال القلوب.

○ يقول المؤلف رحمه الله: «التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله تعالى من مستحبِّ أعمال الجوارح» وهذا ليس على إطلاقه، بل قد يكون بعض أعمال الجوارح أفضل من بعض أعمال القلوب، مثل: الصلاة، فليس على إطلاقه.

○ فقوله رحمه الله: «**ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله تعالى من مستحبِّ أعمال الجوارح**» هذا في الجملة، لكن قد يكون بعض أعمال الجوارح أفضل.

○ قوله: «**وأما أعمال الجوارح فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك**» كل ذلك من أعمال الجوارح، وأعمال الجوارح هي المرتبة الرابعة، وهي داخلة في مُسمَّى الإيمان.

○ قوله: «**وأما أعمال الجوارح فكالصلاة**» هذه من أعمال الجوارح «**والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك**» كل هذا داخل في أعمال الجوارح، وهي كثيرة كالصدقة، والإحسان، والبرِّ، والإيثار، وبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسانُ إلى الجيران، وكفِّ الجوارح عن الغيبة والنميمة وأذية الناس، فكل هذا داخل في أعمال الجوارح، هذه هي مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وعليه مراتب العبادة: قول القلب، وقول اللسان، وعمل

القلب، وعمل الجوارح، وهذه كلها داخلة في مُسمَّى الإيمان، فمُسمَّى الإيمان قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح كما **قال السلف**: «الإيمان: قول وعمل ونية»، **وقال بعضهم**: «قول وعمل ونية»، **وقال بعضهم**: «قول وعمل ونية وسنة»، **ومنهم**: من قال: «الإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان»[1] هذا هو **قول أهل الحقِّ من الصحابة والتابعين ومن بعدهم**.

والأعمال داخلة في مُسمَّى الإيمان، خلافًا **للمرجئة** الذين يقولون إن الأعمال غير داخلة في مُسمَّى الإيمان، فهم يقولون: الإيمان قول اللسان، وقول القلب، وعمل القلب، وأما أعمال الجوارح فليست داخلة في مُسمَّى الإيمان[2].

واختلف **المرجئة** في عمل القلب، **فمنهم**: من ادخلها، **ومنهم**: من لم يُدخلها، وكذلك قول اللسان فإن **بعض المرجئة** لم يدخله، **وقال**: تصديق القلب فقط، وأما مذهب **الصحابة والتابعين والأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنة قاطبة وعلماء أهل السنة** أن الأعمال داخلة في مُسمَّى الإيمان، أعمال القلوب وأعمال الجوارح، هذه الأمور الأربعة، قول القلب وهو التصديق والاعتقاد، وقول اللسان وهو النطق، وعمل القلب وهو النية والإخلاص، وعمل الجوارح من الصلاة والصيام والزكاة والحج كلها داخلة في مُسمَّى الإيمان، وقد اتفق **الصحابة والتابعون ومن بعدهم من علماء السنة** على أن الأعمال من الإيمان، واتفقوا على أن تارك جنس

---

(١) «لمعة الاعتقاد» لابن قدامة (ص ٢٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٨٧).

العمل مطلقًا كافر، فلا يجزئ التصديق بالقلب والنطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح، وحكى **الشافعي** رحمه الله إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم أن الإيمان قول وعمل ونية، فلا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر[١]، فلا يجزئ القول عن العمل، ولا يجزئ العمل عن النية، أي: لا يجزئ جنس واد عن الآخر فإذا اختلَّ جنس من هؤلاء يصبح الرجل كافرًا، وإذا ترك العمل هذا فيه تفصيل:

منه: ما يُنافي أصل الإيمان كالصلاة، فإن تركها يُنافي أصل الإيمان.

ومنه: ما يُنافي كمال الإيمان الواجب كترك برِّ الوالدين وصلة الأرحام وغيره مما يعتبر كبيرة من كبائر الذنوب.

والمرجئة الذين لا يُدخِلون الأعمال في مُسمَّى الإيمان ثلاث مذاهب:

المذهب الأول: المرجئة المحضة الغلاة الذين يعتقدون أن الإيمان معرفة الرَّبِّ بالقلب، والكفر جهل الرَّبِّ بالقلب، وهذا **مذهب الجهم بن صفوان**، ومذهب **الجهمية**، **وأبو الحسين الصالحي** من **القدرية**، وهذا أفسد وأخبث قول على وجه الأرض في تعريف الإيمان، **يقول الجهم**: «إذا عرفت ربك بقلبك فأنت مؤمن»، وعلى هذا ليس هناك كافر عند **الجهم**؛ لأنه ليس هناك أحد لا يعرف ربه بقلبه[٢].

وعلى هذا التعريف يكون **فرعون** مؤمنًا؛ لأنه يعرف ربه بقلبه،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٤٣، ٥٤٤).

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فإن العلم معرفة القلب، ويكون **إبليس** مؤمنًا على مذهب **الجهم**؛ لأن **إبليس** كذلك يعرف ربه، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، ويكون **اليهود** كذلك مؤمنين على مذهب **الجهم** لأنهم يعرفون ربهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، أي: يعرفون صدق الرسول، وكذلك **أبو طالب** عم الرسول ﷺ الذي مات على الشِّرك يكون مؤمنًا على مذهب **الجهم**؛ لأنه يعلم صدق الرسول ﷺ، وقد استفاض عنه أنه كان يعلم بنبوة محمد، وأنشد عنه:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا[1]

ومع ذلك ثبت في «الصحيحين»[2] أنه مات على الكفر، وأبى أن يقول «لا إله إلا الله».

وقال العلماء: إن **الجهم** يكون كافرًا بتعريفه هو؛ لأنه جاهل بربه، هو ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

وعلى مذهب **الجهمية**: الأعمال غير واجبة، فكل من فعل جميع نواقض الإسلام لا يكفر عند **الجهم** ولو سبَّ الله أو سبَّ الرسول أو سبَّ الصحابة أو قتل الأنبياء أو هدم المساجد أو فعل جميع الكبائر، فلا يكفر إلا إذا جهل ربه بقلبه ـ نعوذ بالله ـ، وهذا ذكره **ابن القيم** رحمه الله في «النونية»، وأطال في الردِّ عليهم.

المذهب الثاني: مذهب الكرَّامية أتباع **محمد بن كِرام**،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٦١).

(٢) تقدم تخريجه.

يقولون: الإيمان النطق باللسان، فإذا أقرَّ بلسانه وقال: «لا إله إلا الله» يكون مؤمنًا كامل الإيمان ولو كان مُكذِّبًا بقلبه، لأنه نطق بلسانه، ولكنه يُخلَّد في النار لأنه كَذَّبَ بقلبه، وعلى هذا: من نطق بلسانه عند **الكرَّامية** يكون مؤمنًا؛ فيكون المنافقون مؤمنين على مذهبهم.

ويلزم على قولهم التناقض؛ إذ كيف يكون مؤمنًا كامل الإيمان لأنه نطق بلسانه ومُخلَّدًا في النار لأنه كَذَّبَ بقلبه؟!، وكذلك مذهبهم يلي مذهب **الجهم** في الفساد.

المذهب الثالث: مذهب مرجئة الفقهاء أبو حنيفة وأصحابه، وهو أن الإيمان شيئين تصديق القلب وإقرار اللسان فقط[1]، وأما أعمال الجوارح فهي مطلوبة ولكن ليست من الإيمان، فأعمال الجوارح كالصلاة والصيام والزكاة والحج ليست من الإيمان، ولكنها واجبة، نُسمِّيها «بر»، نُسمِّيها «هدى»، نُسمِّيها «تُقى»، نُسمِّيها «صلة»، لكن لا نُسمِّيها «إيمان»، **وأهل السنة** يقولوا نُسمِّيها «بر، وتقى، وهدى، وإيمان»، فهم موافقون **لأهل السنة** في المعنى، لكن مخالفون لهم في اللفظ، فإن **أهل السنة** يقولون أعمال الجوارح من الإيمان، **ومرجئة الفقهاء** يقولون أعمال الجوارح ليست من الإيمان، لكنها مطلوبة، الواجبات واجبات، والمحرمات محرمات، ومن فعل الواجب أثابه الله، ومن فعل المحرم استحقَّ العقوبة، ولكن لا يُسمّى «إيمان».

ويقولون: إن الفرق بينه وبين مذهب **الجمهور** خلاف لفظي؛ لأنهم يتفقون على أن الواجبات واجبات وأن المحرمات محرمات،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩٥).

لكن يختلفون في التسمية **فأهل السنة** يُسمُّونها إيمان، **ومرجئة الفقهاء** يُسمُّونها بر وتقوى، **والصواب** أنه ليس خلافًا لفظيًا بل له آثار تترتب عليه.

من الآثار: أن **جمهور أهل السنة** تأدَّبوا مع الكتاب والسنة، فالنصوص أدخلت الأعمال في مُسمَّى الإيمان، **منها**: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤]، كل هذه في مُسمَّى الإيمان، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، وفي «الصحيحين»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»**، فجعل ﷺ الإيمان بضع وسبعون شعبة، والبضع من ثلاثة إلى تسعة، وقد تتبع **الحافظ البيهقي** رحمه الله شعب الإيمان من الكتاب والسنة وأوصلها إلى أعلى البضع، إلى تسع وسبعين وألف في مؤلف عظيم سَمَّاه «شعب الإيمان».

فشعب الإيمان كلها داخلة في مُسمَّى الإيمان، ومَثَّلَ النبي ﷺ للشعبة القولية بقول «لا إله إلا الله»، ومَثَّلَ للشعبة العملية بإماطة الأذى عن الطريق، ومَثَّلَ للشعب القلبية بالحياء، فكلها داخلة في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «أمور الإيمان»، رقم (٩)، مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٥) ـ واللفظ له ـ.

مُسمَّى الإيمان، فكيف يقول **المرجئة** ليست داخلة في مُسمَّى الإيمان؟!، وفي «الصحيحين»[(١)] عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ، فَقَالَ: «أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي»، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ الْقَوْمُ أَوْ مَنِ الْوَفْدُ؟**»، قَالُوا: «رَبِيعَةُ»، قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ»، وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**»، قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»، فكل هذه أدخلها ﷺ في مُسمَّى الإيمان، وهذا صريح في الردِّ على **المرجئة**.

إذًا **أهل السنة** تأدَّبوا مع الكتاب والسنة، فأدخلوا الأعمال في مُسمَّى الإيمان، وأما **مرجئة الفقهاء** فلم يتأدَّبوا، وافقوا الكتاب والسنة في المعنى، **وأهل السنة** وافقوا الكتاب والسنة في اللفظ والمعنى، ولا يجوز للإنسان أن يُخالف الكتاب والسنة لا في اللفظ ولا في المعنى، بل يجب عليه أن يتأدَّب مع النصوص.

ومن الآثار: أن **مرجئة الفقهاء** لَمَّا اختلفوا مع **أهل السنة، وقالوا:** أن الأعمال غير داخلة في مُسمَّى الإيمان، فتحوا بابًا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «أداء الخمس من الإيمان»، رقم (٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٧).

للفُسَّاق، فإن **المرجئة** يقولون إيمان أهل السماء والأرض واحد، إيمان أتقى الناس وأفسق الناس واحد وهو التصديق، والتفاوت بينهما ليس في الإيمان بل في الأعمال، فيأتي السكير العربيد الذي يعمل الكبائر ويقول: «أنا مؤمن كامل الإيمان، إيماني كإيمان أبي بكر وعمر، وكإيمان جبريل وميكائيل»، فإذا قلت له: «اتقِ الله، أبو بكر وعمر لهما أعمالًا عظيمة»، قال: «ليس لي شأن في الأعمال، فهي ليست من الإيمان، أنا مُصدِّق وأبو بكر مُصدِّق، كلنا إيماننا واحد، أما الأعمال فهي شيء آخر».

ومن الآثار: أنهم فتحوا باب **للمرجئة المحضة الغلاة كالجهمية** **لَمَّا قال مرجئة الفقهاء**: الأعمال ليست من الإيمان وإن كانت مطلوبة، دخلت **المرجئة المحضة** وقالت: الصلاة والزكاة والصيام والحج ليست من الإيمان وليست مطلوبة، والذي فتح لهم الباب **مرجئة الفقهاء**.

ومن الآثار: الاستثناء في الإيمان، كأن تقول: «أنا مؤمن إن شاء الله»، **مرجئة الفقهاء** يقولون: «لا تقول «إن شاء الله»»، لا تستثني، يقولون: «أنت تشك في إيمان؟، ما تعلم نفسك؟، أنت تعلم أنك مُصدِّق كيف تقول «إن شاء الله»، تشك في إيمانك؟»، ولهذا يُسمُّونها الشكاكة، يقول: «أنت تعلم من نفسك أنك مؤمن، كيف تقول «إن شاء الله» لشيء محقق؟!، إنما تستثنى الشيء الذي يُشك فيه»[1].

وأما **أهل السنة** يقولون هذا فيه تفصيل: إن قصدت الشك في

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٢٩).

أصل الإيمان فهذا مذموم، وأما إذا أردت أن الأعمال له شعب متعددة وكثيرة والإنسان لا يُزكِّي نفسه، ولا يجزم بأنه أدَّى ما عليه فلا بأس أن يقول «إن شاء الله»؛ لأن هذا راجع إلى الأعمال، والأعمال لا يُزكِّي الإنسان نفسه فيها، ولا يدري أنه أدَّاها[1]، وكذلك إذا أراد التبرك بذكر اسم الله فله أن يقول «إن شاء الله»، وكذلك إذا أراد عدم علمه بالعاقبة، فهذه كلها آثار تترتب على خلاف **مرجئة الفقهاء**.

وبهذا يتبين أن المرجئة ثلاث أصناف: الجهمية، والكرَّامية، ومرجئة الفقهاء وطائفة من أهل السنة، وأن خلاف جمهور الفقهاء **جمهور أهل السنة** خلاف معنوي يترتب عليه هذه الآثار.

○ قوله: «**فقول العبد في صلواته** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] **التزام أحكام هذه الأربعة**» وهي قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح، فهي التزام بأن لا تعبد الله إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ، مع الإخلاص لله والتزام بالعبودية المتمثلة بقول اللسان، وقول القلب، وعمل القلب، وأعمال الجوارح «**وإقرار بها**».

○ قوله: «**وقوله**: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] **طلب الإعانة عليها**» أي: على العبادة «**والتوفيق لها**» لأنه لا يمكن أداء هذه العبادة إلَّا بالاستعانة بالله والتوكل عليه.

○ قوله: «**وقوله**: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: ٦] **متضمِّنٌ للأمرين على التفصيل**» في «مدارج السالكين»[2]: «متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل»، قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٠١).

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ متضمن للتعريف بالعبادة والاستعانة بهما على التفصيل «**وإلهام القيام بهما**» يعني: تسأل ربك أن يُلهِمك القيام بالعبادة والاستعانة «**وسلوك طريق السَّالكين إلى الله تعالى**» في «مدارج السالكين»[١]: «وسلوك طريق السالكين إلى الله تعالى بها».

○ قوله: «**والله المُوفِّق بمنِّهِ وكَرَمِهِ**» يعني: الله المُوفِّق لسلوك طريق السَّالكين، وهو المُوفِّق لتأليف هذا الكتاب وجمعه، وهو المُوفِّق للقيام بالعبودية لله ربِّ العالمين.

ختم **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ الكتاب بالحمد لله، **فقال**: «**والحمد لله وحده**» اقتداء بالكتاب العزيز، كما في آخر «الصافات» ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصَّافات: ١٨٠-١٨٢]، وآخر «الزمر» في قوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزُّمَر: ٧٥]، فيُشرع ختم الأعمال بالحمدلة.

○ قوله: «**وصلَّى الله على من لا نبيَّ بعده**» وهو نبينا محمد ﷺ، وهو آخر الأنبياء «**وآله وصحبه ووارثيه**» من وَرِث علم النبي ﷺ ودينه «**وحزبه**» حزب الرسول ﷺ وأتباعه.

○ قوله: «**تمَّ الكتاب بعون الله المَلك**» أي: النافذ الأمر في مُلكِه، **وقيل**: المَلك هو احتواء الشيء والقدرة على التصرف في الشيء بلا مدافعة ولا ممانعة، «**الوهاب**» الوهاب في اللغة: هو المُعطِي، فهو المعطي بلا عِوض ولا مَنٍّ، وهو من أسماء الله تعالى، فهو المتفضل بالعطاء من غير طلب للثواب من أحد.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠١).

ومناسبة ختم الكتاب بهذين الاسمين «الملك الوهاب» أن الله تعالى هو المتصرف، وهو المعطي بلا عِوض، ولكن أوجب الله عليك الشكر والاعتراف بهذه النِّعم، وصرفها في محابه ومراضيه، وطاعته وطاعة رسوله.

وبهذا نكون قد انتهينا من هذا الكتاب، وَفَّقَ الله الجميع لطاعته، وثبت الله الجميع على هداه وتقواه، ونسأل الله أن يرزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يثبتنا على ديننا القويم؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى اللهِ وسلم بارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة الشارح:	٥
ترجمة المؤلف:	٦
فصل في بيان منزلة علم التوحيد لاسيما وأن هناك من يزهد في تعلمه:	٩
فصل في الحث على العلم وإخلاص النية فيه:	١٣
مقدمة المؤلف:	٢١
أقسام أسماء الله:	٢٢
الفرق بين النبي والرسول:	٢٥
أصح ما قيل في تعريف الصحابي:	٢٧
أقسام المعلومات:	٣٠
ضابط محبة العبادة التي لا يجوز حرفها لغير الله:	٣٣
أنواع الخوف:	٣٥
حقيقة التوحيد:	٣٩
أنواع الأسباب:	٤٠
الرحمة رحمتان والخلاف في تفسيرها:	٤٤
أصح ما قيل في تعريف العبادة:	٤٩
القديم ليس من أسماء الله:	٥٠
تسمية النطق بكلمة التوحيد قشرا غلط:	٥٤
التوحيد لا يصح إلا بأمور أربعة:	٥٨
الذي يخرج عن التوحيد أمران:	٦٠
من عبد شيئا فقد هواه:	٦٣
السخط على الحلق وعلاقته بالتوحيد:	٦٥
حالات الأسباب والشرك:	٦٧
أحوال إضافة الشر:	٦٩
رجاء الخلق والأمل منهم:	٧٠
التوحيد واحد وهو الذي جاء به الأنبياء وأرسلت به الرسل:	٧١
أقسام التوحيد:	٧٢
إثبات المشركين لتوحيد الربوبية:	٧٤

الموضوع	الصفحة
توحيد الربوبية مبني على أمرين:	٧٥
تفسير الطبائعين:	٧٦
توحيد الأسماء والصفات:	٧٨
المكر لا يطلق على الله:	٨٠
توحيد الأسماء والصفات مبني على ثلاثة أصول:	٨١
توحيد الألوهية:	٨٢
توحيد الألوهية مبني على أصلين:	٨٣
شروط لا إله إلا الله:	٨٥
أقسام الكفار:	٨٨
أقسام التوحيد عن ابن تيمية وابن القيم:	٩٠
دلالات الألفاظ:	٩٣
القول في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾:	٩٥
أقسام المحبة:	٩٦
لفظ العبودية يتضمن كمال الله وكمال الحب:	٩٧
لابد من مباينة الشرك في توحيد الألوهية:	١٠٠
لا حكم إلا الله:	١٠١
من قال لا رب إلا الله لم تجزئه عند المحققين:	١٠٥
الاحتجاج على منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية:	١١١
ملك ومالك من أسماء الله تعالى لكن ملك أبلغ:	١١٢
الإيمان باسم الملك فيه إثبات لأنواع التوحيد الثلاثة:	١١٢
أسماء الله المزدوجة التي لا يفصل أحدها عن الآخر:	١١٤
الرب إذا عرف بالألف واللام لا يطلق إلا على الله وإذا حذفت كان مشركا:	١١٧
الربوبية والألوهية إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا:	١١٧
أعظم رقية يوقى أو يتعوذ بها الإنسان:	١٢١
شروط صحة الرقية:	١٢٣
الإجابة عن شبهة إنكار سحر النبي ﷺ:	١٢٥
السر في تعلق الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه الإله:	١٣٠
من أثبت خالق غير الله لم يقولوا إنه إله مكافئ:	١٣٣
أصول المعتزلة وما ستروا تحتها:	١٣٥
القدر مبني على أصول أربعة:	١٣٧

الموضوع | الصفحة

الدليل على كونه سبحانه يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون: ١٣٨
أنواع الإرادة: ١٤٠
طوائف القدرية: ١٤١
أثر المحض للذي لا حكمة في إيجاده لا ينسب إلى الله: ١٤٥
الحكم في خلق الله للمعاصي والكفر: ١٤٥
الشرك في اللغة والشرع: ١٤٨
تعريف الشرك الأصغر: ١٤٨
الكفر في اللغة والشرع: ١٤٨
الكفر والشرك شيء واحد أم شيئان: ١٤٨
من مات على الشرك لا حيلة فيه ومحكوم عليه بالنار: ١٥٦
الأدلة الدالة على أنه تعالى يحب أن يكون وحده هو المألوه: ١٦٢
خلقه وأمره وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من العقول شاهدة على التوحيد: .. ١٦٥
الفلاسفة: ١٦٨
شرك الفلاسفة أخبث شرك في العالم: ١٧٤
الجامع بين شرك القدرية والمجوس هو تعدد الخالق: ١٧٥
القدر من شؤون الله وخصائصه: ١٧٧
المرفوع إلى النبي في القدرية ضعيف خلاف الخوارج: ١٨٠
أقسام الناس بالنسبة إلى الشرك: ١٨٢
من عند الأقسام واعتقد أنها تنفع وتضر كان مشركا في الربوبية والألوهية: ١٨٤
صلاح هذا العالم بالتوحيد وخرابه بخلوه منه: ١٨٨
حكم اتخاذ القبور مساجد: ١٨٩
الصواب في حكم في الصلاة في المسجد الذي فيه قبر: ١٩٠
حكم زيادة النساء للقبور: ١٩٢
الناس في زيادة القبور على ثلاثة أقسام: ١٩٤
نهى النبي عن البدع وعن كل وسيلة توصل إلى الشرك حماية التوحيد: ١٩٩
الصلاة في وقتي النهي بعد الفجر وبعد العصر ممنوع مطلقا عند الجمهور: ٢٠٢
كلمة لا ينبغي في كلام الله ورسوله إنما يستعمل للذي هو في غاية الاقتناع: .. ٢٠٣
الحلف بغير الله: ٢٠٤
الحلف بغير الله يكون شركا أكبر في ثلاث حالات: ٢٠٥
التنديد ينقسم إلى قسمين: ٢٠٧

الموضوع الصفحة

أحوال قول ما شاء الله وشئت: ٢٠٨
حكم قول أنا متوكل على الله ثم عليك: ٢٠٨
التوكل على أمير أو سلطان فيما يقدر عليه شرك أصغر: ٢١١
الشرك في الإرادات والنيات بحر لا ساحل له قل من ينجو منه: ٢١٤
أهوال العمل لغير الله: ٢١٥
قاعدة الرياء في العبادات مغايرة لقاعدة الشريك في العبادات: ٢١٦
الشرك والتعطيل متلازمان: ٢١٨
أقسام التعطيل: ٢١٩
كلمة الصانع تطلق على الله من باب الخير وليس اسما لله: ٢١٩
أعظم الناس كفرًا الذين يسمون بالاتحادية: ٢٢١
شرك التماثيل: ٢٢٣
حقيقة الشرك تشبه الخالق بالمخلوق أو العكس: ٢٢٦
قول رب الأرباب: ٢٢٧
من خصائص الإلهية العبودية التي لا تقوم إلا على ساق الحب والذل: ٢٣٠
من تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى عبادته فقد نازع الله في ربوبيته: ٢٣٥
الكفر يكون بأشياء: ٢٣٧
أقسام التوسل: ٢٣٩
النفع محصور في واحد من أربعة أمور: ٢٤٥
الأصول التي يرجع إليها ضلال طوائف الضلال والبدع: ٢٤٨
جماهير أهل العلم على أن الرسل معصومون في ثلاثة: ٢٥١
القدرية الثقاة طائفتين: ٢٥٥
مرتب القدر: ٢٥٦
الطوائف الثلاث في الأفعال العباد: ٢٦١
الرد على الجبرية: ٢٦٢
أعلى طبقات الشيعة في الكفر: ٢٦٧
قول الرافضة مشتق من قول اليهود والنصارى: ٢٦٩
ما قدر الله حق قدره من زعم انه لا يحي الموتى: ٢٧٢
عبادة الشيطان في قوله: ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ تفسير بعبادته حقيقة وتفسير بالطاعة: ٢٧٦
أمور تتعلق بالشرك: ٢٨٠

الموضوع | الصفحة

تحريم وقدح الشرك ليس لمجرد النهي فقط: ٢٨٣
ليس بصحيح أن الأشاعرة من أهل السنة والجماعة: ٢٨٤
أقسام الناس في عبادة الله والاستعانة به: ٢٨٥
تعريف العبادة: ٢٨٧
من سأل الله شيئا واستعان به على شر لا يكون عونا على طاعة كان السؤال مبعداً له عن الله: ٢٩٠
حلاف العلماء في الخضر هل هو نبي أم من العباد الصالحين: ٢٩١
الدليل على أن القلب محشو ومتسخط على قضاء الله وقدره: ٢٩٥
الإقران والإهانة لا تدوران على المال وسعة الرزق وتقديره: ٢٩٦
الأصول التي تبنى عليها السعادة: ٣٠١
مذهب أهل السنة والجماعة أن الله أعان المؤمن وخذل الكافر: ٣٠٨
أهل السنة والجماعة عندهم هدايتان: ٣٠٨
الفرق بين العلة والحكمة: ٣١٣
شبهة الأشاعرة في تقي الأسباب: ٣١٣
أنواع الرياء: ٣١٤
الاختلاف في أفضل العبادات: ٣٣٠
قول من قال أفضل العبادات أشقها: ٣٣٠
المشقة في العبادة ليست مطلوبة لذاتها: ٣٣٢
قول من قال أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا: ٣٣٣
العارف عند الصوفية له ثلاث إطلاقات: ٣٣٨
قول من قال أفضل العبادات ما فيه نفع متعد: ٣٤٢
قول من قال أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب والتعبد في كل وقت بالوظيفة التي شرعه الله فيها: ٣٤٦
أمثلة على ذلك: ٣٤٧
الصواب أن أفضل العبادات أن تؤدى كل عبادة في الوقت الذي شرعها الله فيه: ٣٦٤
حديث أبي بكر الصديق ﷺ وقول النبي ﷺ هل منكم أحد أطعم...: ٣٦٦
فوائد من الحديث: ٣٧٣
المذاهب في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها: ٣٧٩
مذهب الجهمية والأشاعرة والجبرية: ٣٧٩

الموضوع الصفحة

تناقض الجبرية القدرية: ٣٨٦
شرط التعارض أن تكون الجهة متحدة: ٣٩٢
الباء التي يكون في الإثبات تكون للسببية والتي تكون في النفي للعوض: ٣٩٢
مذهب الصوفية في العبادة: ٣٩٥
مذهب الفلاسفة في العبادة: ٣٩٧
مذهب أهل الحق: ٤٠٥
أقسام المحبة المتعلقة بالعبادة: ٤١٠
أنواع المحبة المشتركة: ٤١١
آية المحبة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾: ٤١٣
شرط محبة الله اتباع الرسل: ٤١٤
حكم تقديم محبة غير الله على محبة الله: ٤١٥
العبادة أربع قواعد: ٤٢٣
القاعدة الأولى: قول القلب: ٤٢٧
القاعدة الثانية: عمل اللسان: ٤٣٠
القاعدة الثالثة: عمل القلب: ٤٣٠
القاعدة الرابعة: عمل الجوارح: ٤٣١
قد يكون بعض أعمال الجوارح أفضل من بعض أعمال القلوب: ٤٣١
مذهب أهل السنة أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان: ٤٣٢
حكم ترك العمل: ٤٣٣
مذاهب المرجئة في العمل: ٤٣٣
الفرق بين مذهب أهل السنة ومرجئة الفقهاء: ٤٣٦
حكم قول: أنا مؤمن إن شاء الله: ٤٣٩
الخاتمة: ٤٤٠
فهرس الموضوعات: ٤٤٣

التنفيذ الطباعي
مركز ابن تيمية للنشر والتوزيع
الرياض - المملكة العربية السعودية
هاتف الإدارة: ٠٥٠٢٩١٥٠٠٠ - المبيعات: ٠٥٤٧٠٢٩٠٠٠
البريد الإلكتروني: m.ibn.teemeah@gmail.com